المركز القومى للترجمة

على طريق الحج
جناب شهاب الدين

الطبعة الثانية

ترجمة: سامية محمد جلال

مراجعة: الصفصافى أحمد المرسى

2/636

على طريق الحج

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٦٣٦/ ٢
- على طريق الحج
- جناب شهاب الدين
- سامية محمد جلال
- الصفصافى أحمد المرسى
- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة حج يولندة

جناب شهاب الدين

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة .

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦

فاكس ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St . Opera House, El-Gezira, Cairo

e mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.. 27354524 - 27354526

Fax: 27354554

علـى طريق الحـج

تأليـف: جناب شهـاب الديـن

ترجمـة: سامية محمـد جلال

مراجعة: الصفصافى أحمد المرسى

٢٠٠٩

رقم الإيداع: ١١٠٢٧ / ٢٠٠٩

الترقيم الدولى: 0 - 342 - 479 - 977 - 978

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

إلى روح والدي الطاهرة

طيب الله ثراه

وجزاه عني خير الجزاء

سامية

تقديم المترجمة

مولد جناب شهاب الدين ونشأته:

ولد جناب شهاب الدين " عام ١٢٨٦ هـ =١٨٧٠م ، في مدينة مناستير (وهي مديرية في إقليم الروم إيلي) . قدمت عائلته إلى إستانبول ، وهو يناهز الثامنة من عمره ، وذلك عندما جاء مع والدته "عصمت هانم" بعد استشهاد والده البكباشي "عثمان شهاب الدين بك " في معركة بلونه (١٢٩٣ هـ = ١٨٧٦م) .

لم يكد جناب شهاب الدين يستقر في إستانبول ، حتى بدأ يتلقى تعليمه الأول في مدرسة "فيضية" بحي طوبخانه ، ثم أكمل جميع دراساته في المعاهد العسكرية الخاصة بالطب ، حتى التحق بكلية الطب حيث تخرج منها (١٣٠٣ هـ = ١٨٨٩م) برتبة يوزباشي طبيب ، ويجب التنويه إلى أن التعليم العسكري في ذلك الوقت كان يقوم على أسس أوروبية ، ولاسيما المدرسة الفرنسية ، ومن ثم كانت المدارس العسكرية أكثر اتصالاً بالثقافة الأوروبية ، لذا كانت ارتباطات أديبنا بالاتجاهات الفكرية الأوروبية ... خاصة وأنه انتهز فرصة سفره إلى باريس في بعثة لدراسة الطب عام١٨٩٠ ، ودرس الأدب الفرنسي وتعمق

فيه وظل بها أربع سنوات تعرف خلالها على الاتجاهات الأدبية الحديثة. وعند عودته اضطلع بالعمل فى أقسام وزارة الصحة المختلفة فى إستانبول ، فعمل فترة طبيبًا فى مستشفى" حيدر باشا " ، ثم التحق بالحجر الصحى فى " رودس ومرسين"، وبعد ذلك رقى إلى درجة مفتش صحى فى أزمير وأنقرة وقونية (١٨٩٧م) . ومن ناحية أخرى التحق بالعمل فى عدد من المجلات الأدبية كمحرر فيها ، فانضم إلى مجلة " ثروت فنون " ١٨٩٦م ، ومع ذلك لم يترك وظيفته كطبيب عسكرى ، وظل يمارس عمله طيلة عشرين عامًا عمل خلالها مديرًا للإدارة الصحية فى سوريا ١٩٠٨م ، حتى استقال من عمله ١٩١٤م ، وبعد هذا العام عمل مدرسًا للترجمة الفرنسية فى جامعة إستانبول ، وواصل أبحاثه الأدبية ، ونشر أعماله الأدبية القديمة من حين إلى آخر حتى توفى فى إستانبول فى ١٣ فبراير ١٩٣٤ .

ثقافته وميوله الأدبية

إن كل من يقرأ الأعمال الأدبية لجناب لابد من أن يجد نفسه أمام أديب واسع الثقافة والاطلاع ، ولابد له من أن يلمح هذه الثقافة تطل برأسها فى كل ما فاض به قلمه ، ولا شك فى أن البيئة التى نشأ فيها الكاتب قد لعبت دورًا مهما فى تنمية نزعته الأدبية ، فقد نشأ فى بيئة مثقفة مستنيرة ؛ فعلى الرغم من أن والده كان ضابطًا ، فإنه يعد من أرباب الأدب، وكذلك كان جده أيضًا يشغل منصب رئيس الكتاب لدى

ديوان خسرو باشا " رئيس الوزراء " ، وعلى هذا الأساس ، ورث جناب منهما موهبة الأدب ، فقد ظهرت ميوله الأدبية منذ حداثة سنه. وهو لم يزل بعد في صفوف المدرسة ، وخاصة في مجال الشعر، وفي ظهور إمضاءاته خلال الصحف والمجلات المعاصرة له ، وفي عام ١٨٨٨م نشر أولى أشعاره في كتابه "طامات " (هذيان) مقتفيًا فيها النمط التقليدي القديم ، غير أنه استفاد كثيراً من دراسته للأدب الفرنسي حينما سافر إلى باريس ، فكتب أشعاراً بعد عودته إلى إستانبول ١٨٩٤م مقلداً الشعر الفرنسي سواء من ناحية الشكل أو الموضوع ، والواقع أن جناب قد تميز بغنائية وخيال واسع ، وهو أول من قدم للأدب التركي نماذج غربية تحمل خصائص تعبيرية وتتسم بخيال مستلهم من الشعر الفرنسي ، وله دور كبير في اعتناق "ثروت فنون" (*) لمبدأ (الفن من أجل الجمال) ، وهكذا حفلت سيرة جناب بالكثير من المصادر والمؤثرات التي خلقت من هذا الأديب مثقفًا بكل ما تحمل هذه الكلمة من

(*) ثروت فنون : مجلة دورية مصورة أشرف على تحريرها "أحمد إحسان"، وصدر أول أعدادها في ٢٧ مارس عام ١٨٩١م ، وكانت تهتم بالأدب والعلم والفن والسيرة والرحلة والأدب القصصي . كانت في بداية أمرها تتخذ من الصور الفرنسية نموذجًا لها ؛ فكانت مجلة أخبار مصورة تعتمد أساسًا على المصادر الأجنبية سواء من ناحية الشكل أو الموضوع أيضًا، وكانت تنشر تراجم عن دودي والكتاب الفرنسيين الآخرين وسرعان ما جذبت المجلة الجديدة اهتمام الكتاب الشبان، ذوي الميول الغربية وتأييدهم في ذلك الوقت ، ومن أبرزهم : توفيق فكرت الذي التحق بها عام ١٣١٢هـ / ١٨٩٦م ، ثم تولى رئاستها في العام نفسه. وبعد ذلك تعاقب على هذه المجلة العديد من الأدباء الشبان الذين انضموا إليها مثل : ـ جناب شهاب الدين ، وخالد ضياء ، وحسين سيرت ، وحسين جاهد يالجين .

معنى من ناحية ، والتى أتاحت له أن يكون على هذا المستوى الرفيع من الثقافة الواسعة المتنوعة من ناحية أخرى ، وتعد إجادته للغات عديدة من أبرز هذه المؤثرات ؛ فاللغة هى النافذة التى يطل الأديب من خلالها على العالم الواسع ، وهى فى الوقت نفسه المنهل الذى ينهل الأديب منه ويستمد منه ثقافته. أجاد جناب اللغات الفارسية والفرنسية ، وقرأ لمشاهير الأدباء الفرنسيين والألمان والإنجليز والإيطاليين ، وقد تركت اللغة الفرنسية بصمات واضحة على ثقافته ، فبدأ ينسلخ عن الآداب الشرقية ، ويتجه إلى التأثر بالأدب الجديد المتأثر بالآداب الغربية منذ عام ١٨٨٦م ، أما المؤثر الأخير الذى أثر فى ثقافته ، فهو :

رحلاته العلمية والأدبية

قام جناب بالعديد من الجولات فى بلاد كثيرة ، بحكم وظيفته كطبيب ومحرر فى الصحف أيضًا ؛ فأرسل إلى اليمن والحجاز والعراق ، ثم إلى الهند، وقد كانت هذه الرحلات سببًا فى أن يثرى أدب الرحلات بآثاره المهمة ؛ وهى :

١- حج يولنده

أرسل جناب إلى جدة (١٨٩٨م) مفتشًا صحيا ، وأصدر فى "ثروت فنون" مذكرات سياحية جمعها فيما بعد فى كتاب بعنوان "حج يولنده" عام ١٩٠٩م

٢- آفاق عراق

تقلد جناب رئاسة الإدارة الصحية لولاية سوريا، ثم عاد إلى إستانبول ، وهو عضو فى المجلس الصحى الكبير سنة ١٩٠٨م ، وألف هذا الكتاب الذى يبين فيه أحوال بلاد سوريا والعراق .

آوروپا مكتوبلرى

فى عامى (١٩١٨/١٩١٩م) قام جناب برحلة إلى أوروبا ، وقدم انطباعه لهذه الرحلة التى قام بها لحساب جريدة (تصوير أفكار) .

ولعل من المناسب قبل التعريف بمؤلفه "حج يولنده " الوقوف على مفهوم الرحلة عند الأتراك ، وأهم الرحلات التركية إلى مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

الرحلة ... ومفهومها فى الأدب التركى

مما لا شك فيه أن الإنسان قد عرف الرحلة منذ العصور الغابرة ، وهى أيضًا قديمة لدى الأتراك قدم هجراتهم منذ ظهورهم على مسرح الأحداث ، فقد كانوا قوما رحلاً ، عاشوا أولاً فى جنوب سيبريا، وفى التركستان ، ثم توسعوا غربًا ، وجنوبًا، وأقاموا إمبراطوريات عدة فى آسيا ، وكان من الطبيعى أن تكون فتوحاتهم باعثًا رئيسيا على الرحلة ، والاهتمام بوصف البلاد التى دخلت فى حوزتهم ، إلا أن النظرة العامة

إلى تـأريخ أدب الرحـلات فى الأدب التـركى تقـود إلى تعـيين فـتـرتين متميزتين ، وهما :

١- الفترة الأولى

وتبدأ هـذه الفـتـرة بظهـور كـتب الجـغـرافـيـا والرحـلات فى القرن الخامس عشر وتسـتمر حتى القرن السـابع عشر الميلادى ، وكان من الطبيعى أن تقع هذه المؤلفات تحت تأثير المؤلفات العربية والفارسية ؛ فلم يكن ما ظهر منها فى القرن الخامس عشر سوى ترجمات منقولة من القـزوينى (٦٨٢ هـ - ١٢٨٣ م) وابن الوردى (٧٤٩ هـ - ١٣٤٨ م) ، اللذين ترجما مرة أخرى فى القرن السادس عشر ، كما ترجمت أيضًا كتب الاصطخرى ، وكان من النتائج البحرية التى اتبعتـها سياسـة الإمبراطورية العثمانية ، أن كتب "بيرى رئيس " عام ٩٣٥ هـ (١٥٢٩م) كـتـابه المشـهـور "بحـريه" الذى يعطى مـعلومـات حـول طرق البـحـر ، وحـوادث المد والجزر ، والمرافئ ، والأمـاكن الصـالحـة لإقامـة المرافئ الحديدية ، والعواصف ، والرياح والبوصلة والخريطة ، مـعتمـدا فى ذلك على العلم والتجربة ، وكذلك اعتمد فى بعضه على أصحاب الخرائط القدماء مثل صفائى (١١٩٦ م) كما اعتـمد على الخرائط البحرية الإيطالية القديمة ، وبعد أن صارت الملاحة العثمانية قوة تجاوزت البحار الخارجية والبعيدة ، ظهر من ناحية شعراء غنائيون ملاحون بين نوتية الأتراك الذين يذهبون الى هذه البـحار البعيدة ، ومن ناحية أخرى ،

فقد عكس هؤلاء الملاحون الأدباء ، الحياة العامة للملاحة ، وذلك من خلال مؤلفاتهم التى تحوى عجائب الأحداث التى مروا بها ، والحروب التى دارت فى البحار البعيدة ، ومن آثار الحملات التى شنها السلطان سليمان فى البر : أن ألف مطراقجى نصوح (٩٤٥ هـ) كتابا قيما يحوى رسومات مخططة ، وصور الممرات ، وعددا من المدن من إستانبول إلى تبريز ، ومن تبريز إلى إيران ، وكذلك كتب "سيدى على رئيس" (٩٧٠ هـ) كتابه المشهور" محيط " ذكر فيه محاولاته الفاشلة فى بحار الهند "المحيط الهندى" ويعتبر كتابه الثانى "مرآت الممالك" أثرا مهما أصيلا ، حتى إن مؤرخى الأدب يضعونه فى مقدمة كتب الرحلات ، وأيضًا يعد كتاب "مناظر العوالم" لمحمد عاشق الطرابزونلى الذى أتمه فى نهاية هذا القرن ، أثرا مهما فى الجغرافيا ؛ إذ يعطى معلومات جديدة وقيمة عن الممالك العثمانية ، ولا ينبغى أن تغفل ذكر المؤلف الذى كتب بالتركية الشرقية فى هذا القرن أيضًا ، وهو" بابور نامه".

ويطالعنا فى القرن السابع عشر العديد من المؤلفات فى هذا المجال ، ومن أهمها ما كتبه كاتب جلبى (١٠٠٠هـ = ١٠٦٧ م) "تحفة الكبار فى أسفار البحار" ، وهناك أيضًا كتاب "سياحتنامه أوليا جلبى " وتعد رحلته إلى مصر فى العصر العثمانى من أهم الرحلات التركية إلى مصر ؛ فقد تناول فيه تاريخ الحياة الاجتماعية فى مصر فى تلك الفترة من جميع نواحيها .

٢- الفترة الثانية

وفيها اتجهت الرحلة غالبا صوب أوروبا ، وذلك فى الفترة من القرن الثامن عشر ، وحتى القرن التاسع عشر ، وكثرت خلالها الرحلات عند الأتراك ، وتنوعت بتنوع أسبابها ودوافعها السياسية ، والدينية ، والسياحية ؛ فقد كثر عدد السفراء الذين أرسلوا إلى خارج الإمبراطورية العثمانية بوظائف السفارة الرسمية خلال القرن الثامن عشر ؛ إذ أرسل ما يقرب من أربعمائة سفير سياسى إلى بلاد إيران ، والنمسا ، وروسيا ، وبولندا ، وفرنسا ، وإنجلترا ، وإيطاليا ، وإسبانيا ، والسويد ، وبروسيا ، والمغرب ، وأوزبكستان ، والهند ، وكان هؤلاء يقدمون تقاريرهم للدولة عن الوقائع الجديرة بالذكر ، وقد لجأ بعضهم إلى تأليف هذا النوع نظمًا ، ومهما يكن من أمر الصعوبات التى كان يواجهها أولئك السفراء فى التعريف بالبلاد التى يذهبون إليها ، والتعرف على نواحيها الاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية ، فإن هذه الرسائل تعد أول النماذج المهمة بعد «أوليا جلبى» فى أدب الرحلات التركى ؛ حيث توضح كيفية رؤية التركى لهذه البلاد ، ومدى تقبله لحضارة الغرب ، ودقة ملاحظاته عنها .

ومن ناحية أخرى ، ازداد شغف تدوين مذكرات الرحلة بين الكتاب الذين تجولوا فى أوروبا وغيرها من البلاد ، من أمثال " نامق كمال " (١٨٤٠ - ١٨٨٨م) الذى ألف " رسالة لندن " التى توضح مدى ثروة لندن وعظمتها ، وضياء باشا (١٨٨٠- ١٨٢٩م) ، وسامى باشا

سزائى (١٨٥٨- ١٩٦٣م)، وعبدالحق حامد (١٨٥٢ - ١٩٤٧ م) ، ومعلم ناجى (١٨٥٩ - ١٩١٨م) ، وأحمد مدحت (١٨٤٤-١٩١٢م) الذى ألف كتابا اسمه "جولة فى أوروبا"(أوروبا ده بر جولان) سنة ١٨٨٩م ، كما ألف رواية أخرى بعنوان " تركى فى باريس " (باريس ده بر تورك) ويعد سعدالله باشا (١٣٠٩هـ) من بين أدباء عصر التنظيمات ، وقد ألف أول النماذج الأدبية لفن الرحلة ؛ حيث ألف كتابين ، وصف فى أحدهما قصر شارلوتنبرج ، والآخر معرض باريس سنة ١٨٧٨، وكانت الأغراض الدينية من الدوافع للرحلة فى هذا العصر أيضاً ؛ حيث ألف بعض رجال الدين الإسلامى كتبا فى هذا المجال ، ومن أبرزها " رحلة من إستانبول إلى آسيا الوسطى " (إستانبولدن آسيا بيوسطايه سياحت) والذى نشر مسلسلا سنة ١٨٧٨م فى " ترجمان حقيقت " للرحالة محمد أمين أفندى (١٨٩٨م) ، وتحدث فيه عن آسيا الوسطى فقط ، وأيضاً ألف " أحمد حمدى أفندى" (١٨٨٦م) كتابه "رحلة الهند وأفغانستان"(هندستان وأفغانستان سياحتنامه سى) .

وأيضاً كتاب " رحلة إلى البرازيل " (برازيليا سياحتنامه سى) للسيد بكر أفندى (١٨٩٥م) وهى من الرحلات التى نفذت لأغراض دينية .

مصر ... وأهم الرحلات التركية إلى مصر
فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر

ليس بغريب أن تكون مصر - وسوف تظل دائمًا - موضع اهتمام الرحالة بصفة عامة والأتراك بصفة خاصة ؛ وذلك لجاذبيتها كمهد للحضارة القديمة، ولموقعها الجغرافي الفريد ، ومن ثمّ فقد زخر القرن التاسع عشر - وخاصة فى النصف الثانى - بالعديد من المؤلفات التى تصف مصر ، وإن كانت الرحلة تسفر عادة عن تحقيق أهداف متعددة ، فإن كتابات الرحالة الأتراك الذين زاروا مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى ، اتسمت بتعدد المجالات التى تطرق إليها مؤلفوها من خلال رحلاتهم ، ومن أهم هذه الرحلات :

محمد محسن :

الذى استفاد من فترة إقامته بمصر - بحكم عمله كقنصل فوق العادة - ونشر بها مؤلفه " أفريقا دليلى" " دليل أفريقيا " (١٣١٢م) ، وقد خصص جزءًا كبيرًا من كتابه للحديث عن مصر جاوز فيه خمسمائة صفحة ، وقد تحدث عن الأقاليم المصرية من النواحى الجغرافية والاقتصادية لمديريات الوجه القبلى والبحرى ، سواء من الناحية الزراعية أو الصناعية أو التجارية .

محمد عزت :

الذى كان يشغل وظيفة رئيس كتاب الباب العالى ، ثم عين مترجماً بعد ذلك ، وقد تناول فى مؤلفه " يكى أفريقا " ١٣٠٨م (أفريقيا الجديدة) قارة أفريقيا من النواحى الطبيعية والسياسية والتاريخية ، وقدم فى كتابه معلومات خاصة بالأحوال الجغرافية لخديوية مصر وأصول الحكم فيها ، وكذلك أوجز القول فى وصف أوضاعها الاقتصادية من الناحية الزراعية ، والصناعية ، والتجارية .

عبد الغنى سنى بك :

الذى كلف من قبل حسين حلمى باشا وزير الداخلية ، بإدارة الشئون التحريرية فى ولاية اليمن ، فى ٦ ديسمبر سنة ١٢٨٩هـ حوالى ١٨٧٠م ، ومن ثم ؛ فقد رآها عبد الغنى سنى بك فرصة لتحقيق أمله فى وضع مؤلف فى أدب الرحلات ، ونشر كتابه (يمن يولنده) (فى طريق اليمن) اهتم فيه بوصف كل ما يصادفه خلال رحلة ذهابه إلى اليمن ، وخلال فترة مكوثه بمصر ، استطاع أن يصفها من الناحية السياسية والاجتماعية .

خالد ضياء الدين :

الذى قصد مصر مكلفًا بمأمورية لم يصرح بها ، وقدم فى مؤلفه " مصور مصر خاطراتى " (ذكريات مصورة عن مصر) معلومات دقيقة

عن كل ما شاهده فى مصر ، وشملت موضوعاته النواحى الاجتماعية والدينية .

وغير هذه المؤلفات ، يوجد العديد من كتب الرحلات التركية التى تهتم بوصف مصر ، والتى تنوعت اهتمامات مؤلفيها بتنوع ما يبدو لهم من مشاهدات وغرائب .

جناب شهاب الدين ... وكتابه حج يولنده :

كان جناب قد أرسل إلى جدة عام ١٨٩٦م بعد أن رقى إلى درجة مفتش صحى ، وذلك فى الوقت نفسه الذى انضم فيه إلى مجلة "ثروت فنون" ، فنشر فيها هذه السياحة الطويلة ، على شكل رسائل متفرقة ، كما أنها نشرت مسلسلة فى "تصوير أفكار" (وهى مجلة دورية تهتم بالأدب والفن والسياسة وجميع فروع المعرفة) ، ثم جمعها فى كتاب أسماه "حج يولنده" عام ١٩٠٩م ، وطبع للمرة الثانية فى سنة ١٩٢٥م .

كان جناب قد دون فى مؤلفه هذا مشاهداته وملاحظاته وهو فى طريقه إلى الحج ، وهو مكتوب على شكل رسائل ، سرد فى كل رسالة الأحداث اليومية وانطباعاته بأسلوب يغلب عليه السرد القصصى ، وقد قسمها إلى سبع عشرة رسالة ، حرص فى كل رسالة على أن يصدرها بتحديده للمكان الذى يكتب عنه .

وتتلخص أحداث الرحلة فيما يلى :

الرسالة الأولى

تبدأ الرحلة يوم الأربعاء ، حيث ركب جناب باخرة "القاهرة" من إستانبول ، حيث سارت عبر بحر مرمرة من حى إسكدار حتى عبرت

أياستقانوس ، ثم توقفت نصف ساعة أمام " جناق قلعة " ، واستمرت حتى وصلت البحر المتوسط فى اليوم الأول من الرحلة .

الرسالة الثانية

اتجهت الباخرة فى اليوم الثانى إلى الجنوب الغربى من أجل الوصول إلى جزر اليونان عبر البحر المتوسط .

الرسالة الثالثة

وصلت الباخرة إلى "بيرهن" حيث توقفت فى أثينا لمدة ثلاث ساعات قرر فيها جناب التجول خلالها .

الرسالة الرابعة

استقل جناب شهاب الدين القطار إلى أثينا ، وشاهد جميع مبانيها المشهورة ، وتجول فى شوارعها الكبيرة ، ثم عاد إلى الباخرة مرة أخرى ، حيث واصلت مسيرتها فى يومها الثالث " يوم الجمعة " .

الرسالة الخامسة

وبداية من هذه الرسالة يبدأ جناب فى وصف مصر ، ويستمر فى تسجيل انطباعاته عنها حتى آخر رسائله ، وفى هذه الرسالة تصل

السفينة إلى الإسكندرية فى اليوم الرابع واستقل جناب عربة أوصلته إلى فندق " بونار " ؛ حيث استقر فى المدينة ثلاثة أيام قرر التجول خلالها .

الرسالة السادسة

طاف جناب فى اليوم الأول من إقامته فى الإسكندرية ، شوارع المدينة ، واتجه ناحية قناة المحمودية ، وركب عربة تتبعت يمين ساحل القناة ، وشاهد بحيرة مريوط والميناء القديم ومعبد سرانبيس ، ثم عاد إلى الفندق .

الرسالة السابعة

فى اليوم الثانى قرر جناب القيام بجولة بسيطة للتنزه ، فسار فى شارع برباروس ، ثم ركب العربة ليتجول بين مصايف الرمل ، ورأى حدائق المصايف ، وبعد ذلك توجه إلى سان استيفانو ثم عاد فى المساء ، وقضى ليلته مع رفيق طريقه " حسين بك " لمشاهدة راقصات مصر .

الرسالة الثامنة

استراح جناب فى اليوم الثالث من إقامته بالمدينة ، ثم ركب القطار متوجهاً إلى القاهرة .

الرسالة التاسعة

تجول فى شوارع القاهرة وأسواقها ووصف المقاهى ، وفى المساء زار حديقة الأزبكية وأقام فى فندق "شبرد " ، وقد كانت مدة إقامته بالقاهرة خمسة أيام .

الرسالة العاشرة

زار جامع محمد على ، ومتحف بولاق ، ثم أنهى التجول فى حديقة شبرا ، وبعد ذلك عاد إلى الفندق .

الرسالة الحادية عشرة

سار إلى الأهرامات وحاول تسلقها .

الرسالة الثانية عشرة

خصص جناب اليوم الثالث هذا ، منذ وصوله إلى القاهرة ، لزيارة مراقد الملوك ، والجوامع الشريفة ، واكتفى برؤية أربعة منها ، هى :

جامع عمرو ، وأحمد بن طولون ، وجامع الحسن ، والجامع الأزهر .

الرسالة الثالثة عشرة

قرر جناب قضاء اليوم الأخير من إقامته فى القاهرة ، فى مشاهدة القاهرة القديمة والمطرية .

الرسالة الرابعة عشرة

تجول جناب فى اليوم نفسه ، فى شوارع القاهرة القديمة ، ثم سار تجاه ميدان الأوبرا ، وجلس فى مقهى أمام فندق " شبرد " ، وبعد ذلك قام بجولة أخيرة فى حديقة الأزبكية ، وعاد قبل الغروب لتجهيز حقيبة السفر .

الرسالة الخامسة عشرة

استقل القطار متوجهًا إلى السويس من محطة القاهرة . التى وصل إليها بعد غروب الشمس ، واستقر بفندق "بلير " .

الرسالة السادسة عشرة

قام بتجول بسيط داخل المدينة ، ثم عاد إلى الفندق ، وبعد ذلك اتجه إلى البحر ليركب الباخرة .

الرسالة السابعة عشرة

بعد أن ركب الباخرة فى المساء ، استيقظ فى اليوم التالى مع وقفة الباخرة ، حيث صادفت السفينة كتلة حمراء من الشعاب المرجانية تسببت فى وقوفها ، حتى انتهت الرحلة بوصولها إلى جبل الطور .

يعد "حج يولنده" من المؤلفات التى تنتمى إلى فن الرحلات ؛ حيث تكاد تتفق معظم آراء مؤرخى الأدب التركى على أن جناب قد ارتفع بأسلوبه إلى عالم الأدب ، وارتقى به إلى مستوى الخيال الفنى ، وقد ساعده على ذلك رغبته القوية فى الكتابة الفنية والأسلوب الجميل .

والواقع أن أدباء " ثروت فنون " قد تنافسوا فيما بينهم من أجل استعمال الجمل المنمقة ، وإيجاد التراكيب والكلمات المتناغمة والرقيقة فى كتاباتهم ، ولذلك أحدثوا لغة خاصة بهم ، سميت بلغة " ثروت فنون " ، وهى لغة معتمدة مستخرجة من الكلمات والتراكيب العربية والفارسية المتنوعة ، وعلى هذا الأساس استعمل جناب الكثير من الكلمات الجديدة التى أخذها من اللغة القديمة ، واستخدم بعضًا منها بمعانٍ جديدة ، والبعض الآخر اخترع مثل (تقلص ، عقده ، فوران ، كسلان ، خشيت ، محقريت ، عفونت ، عطالت ، شوشيت) وغيرها من الكلمات التى اهتم جناب بإقحامها فى كتابه "حج يولنده" .

وكذلك استخدم الكثير من الأفعال المركبة المتغيرة كنتيجة طبيعية لقبوله الكلمات الجديدة فى لغته ، مثل (مزهر ايتمك) – (محموم اولمق) – (دوام ايتمك) وغيرها ، وأيضاً أكثر من استخدام تراكيب متغيرة سواء

كانت إضافية عربية أو فارسية مثل "عرش إلهى" ، "رحمت ربانية" ، والملاحظ أيضًا أنه أفرط فى استعمال أداة " كه " التى كانت نادرة الاستعمال فى اللغة القديمة .

هذا بالإضافة إلى أنه توسع فى صياغة الكثير من الصفات الجديدة ، ولصعوبة حصر تلك التراكيب التى أبدعها جناب ، فإننى أدعو القارئ إلى إلقاء نظرة واحدة إلى تعبيراته التى يصوغها فى وصفه للطبيعة – على سبيل المثال – وهى التى كان يعشقها (بسبب اعتناقه للمذهب البرناسى الذى ينادى معتنقوه بأن غاية الفن مقتصرة على ذاته ، وأنه بداية نفسه ونهايتها، ويعتبرون الطبيعة انعكاسًا لوجدانهم) ، ليتضح له مدى افتتان الكاتب بإيراد الجديد من هذه الصفات . علاوة على ذلك ، فقد حرص جناب على أن تتعاقب الجمل الاستفهامية بعضها مع بعض ؛ وذلك إما بهدف تأكيد المعنى المراد تأكيده ، أو الاستنكار والتعجب .

والواقع أن جناب كان قد تمكن من لغة النثر بالأدب التقليدى القديم ، وهو الذى يطلق عليه اسم (أدب الديوان) الذى يزخر بالأسلوب المنمق والمرصع ، هذا بالإضافة إلى أن جناب لم يكن يكتب بلغة الشعب ؛ فهو يكتب لطبقة المثقفين أو الصفوة المختارة كما يطلق عليها فى كتب الأدب التركى ... وهو لم يستطع أن يتخلى عن اللغة العثمانية الغنية بقواميس اللغات الثلاث العربية والفارسية والتركية ، خاصة وهو الذى أعطى قيمة لجمال الأسلوب ، ووفرة متنوعة للكلمات ، وأولى أهمية للفروق الدقيقة بينها ، حتى إنه كان يقرأ كثيراً فى كتب لا علاقة لها بالأدب مثل الكتب التى تتناول مواضيع الزراعة والفن وغيرها ، من أجل إثراء خزائن اللغة

لديه ، وطبقًا لرأيه هو : يعد الأسلوب أكثر أهمية من الفكر ، فهو يقول " في الواقع ، أعتقد أن الفكر لن يعيش ، ولن يكون مستحسنًا على الإطلاق إن لم يُصغ بأسلوب جيد " ، ويقول في موضع آخر " إنني أتألم لصياغة الفكر الجميل بتعبير عادى أكثر من شعورى بالألم تجاه التعبير الجميل الذى يعبر عن الفكر العادى ؛ فإنه يعيش من يكتب جميلاً ، وليس من يكتب كثيرًا ، يمكن أن نقول عن الأسلوب الجميل بأنه زجاجة بللورية مغلقة كل جوانبها ، أما الفكر الجميل فهو عطر ، حتى إنه عندما يعبر عن المفاهيم الأكثر تألقًا بتعبير عاجز ، فإنه ما يلبث أن يتطاير مثل زيوت الورود الموضوعة فى إناء مكشوف " . ومن ناحية أخرى ، يبرر "جناب" فى مقالة له بعنوان " الأدب " قيامه هو وزملاؤه باستخدام هذه اللغة ، وهذا الأسلوب ؛ نتيجةً للظروف السياسية التى مرت بها الدولة العثمانية فى تلك الفترة الحرجة من تاريخها ، فهو يقول :

" لقد تقهقرت قلوبنا باستكراه مما كان يحيط بنا فى بلادنا ، بينما قامت أقلامنا بتجربة ألحان المدنية الأخيرة ، فعشنا جميعًا فى اعتكاف داخل معبد موهوم للأخوة ، كما وقفنا جنبًا إلى جنب مع الآلام العامة بين الصياد والفريسة. لأننا كنا نشعر حيال الوطن الذى نعيش فيه بنوع من إحساس الهجران وبعذاب الوصال والفراق ، من المحال أن يتيسر لى وصفه . لقد علقنا سلاسل حداد الشعب الأسير على أقلامنا ، وأطلقنا الأنين بأساليبنا ؛ فكانت الآثار التى ألفناها طوال ثلاثين سنة ما هى إلا تجاوب صميم لصدى أنين الأمة ، إن الصدور التى اكتوت بحمى الشوق الخفى ، أضفت على الكلمات والجمل كل ما كان لها من نار ، وفرشت على رذائل العصر صيف بيان متألق ... ثم قامت من

الصدور الشابة صرخات كانت تهتز بها الآفاق التى بها صمم ، وتنطق بها السموات التى بها بكم ، ورفع الأدب صوته بكل ما أوتى من قوة فوق الجمود العام ، والوعى الحساس الذى تدفق من الأقلام الشابة نقد انتشرت اهتزازاته فى الأرواح جميعها ، لقد جمعنا شتات يأسنا فى رءوسنا ، وبحثنا عن أسلوب مر يليق بفلسفة زماننا المضطرب ..." .

ومما يلفت النظر فى "حج يولنده " أن الجانب الاجتماعى قد استأثر بالجزء الأكبر من اهتمام "جناب" ، غير أنه يؤخذ عليه آراؤه الانطباعية ، وملاحظاته العابرة عن المجتمع المصرى ، حيث لم تتوفر له القدرة على معايشته بالقدر الذى يسمح له بتقديم صورة شاملة عنه ، وعلى الرغم من أنه لم يستطع أن يتفاعل معه ، إلا أنه كان يصدر حكمًا عامًا على الشعب المصرى فى بعض المواقف التى تعرض لها ، هذا بالإضافة إلى أن "جناب" كان ذا قدرة على النقد الاجتماعى الساخر ؛ فقد كتب عن كل موقف اجتماعى يتعرض له يقابله رد فعل سواء بالاستنكار أو السخرية ، بل إنه كان يطيل الوقوف عند هذه المواقف ، مستغرقًا فى وصفها (فقد تعمق فى وصف مشاهد التسول والفقر وتجارة الرق الأبيض) ولعله فى ذلك كان متأثرًا بما قرأه عن مصر من خلال المؤلفات الفرنسية ، والتى حظيت بجل اهتمام "جناب" ؛ فقد اتاحت له فترة وجوده فى فرنسا قبيل تأليفه "حج يولنده " فرصة الاطلاع على الأدب الفرنسى فانجذب إليه وترسم اتجاهاته الحديثة ومذاهبه حتى إنه لم يتردد فى أن يصرح فى الرسالة الخامسة من كتابه بأنه قد قرأ لبعض المؤلفات الفرنسية – فى أدب الرحلات – وهى لأدباء زاروا مصر إبان القرن التاسع عشر وقاموا بتصوير انطباعاتهم ومشاهداتهم المختلفة وخاصة "جيرار دو نرفال"

(١٨٥٨م) الذى ألف "رحلة إلى الشرق " ، و"تيوفيل غوتييه " (١٨١١م)
ومؤلفه " الشرق "، و " أدمون أبو " (١٨٢٨م صاحب كتاب" الفلاح ")
و" بيير لوتيه "(١٨٥٠م) . ومن يطالع مؤلفات هؤلاء الأدباء ، يلمس
مدى تأثر "جناب" بهم سواء من ناحية الأسلوب أو المضمون ، ويشعر
بأنه قد تطبع بآرائهم التى أدلوا بها فى كتبهم ، فكأنه لم يكن يشاهد
مصر بعينيه هو ، ولكن من خلال أعينهم (وخاصة فى انطباعه عن
الشعب المصرى) .

سامية محمد جلال

الرسالة الأولى

فى الباخرة " القاهرة "

أخيراً ، انطلقت الصفارة تشق غبار الهواء ، ترغب النظرات الأخيرة للقادمين فى قبلة وداع من عيون المسافرين لتوديعهم ... يضج السلم بالهابطين المضطربين أكثر من الصاعدين المهرولين ... يخلو ظهر الباخرة تدريجيا ... دموع فى عيون البعض وبسمة حزينة فى عيون بعضهم الآخر ، وفتور وذهول عميق فى البعض الآخر ، حينذاك تبلورت كل اللغات وأصبحت فى شكل لغة عالمية يسهل فهمها ؛ فالجميع يتحدث عن الأشواق والأمانى ، وتمنى السلامة واللقاء ، والجميع هنا سواء الأتراك أو العرب أو الروم أو الفرنسيون أو الإيطاليون يتحدثون نفس الأشياء بلغاتهم .

فى الخارج أصوات دعوات النوتى ، وعلى مسافة بعيدة عنه غمغمات ضجيج النهار للمدينة العظيمة .

قبضت امرأة على يدى ، توصى بصوت باكٍ :

إياك أن تهمل إرسال جواباتك ، أريد رسالة من كل ميناء ، أريد خبراً مع كل ساعى بريد ، حسبى سطرين ، أو سطر ، أو أى شىء ...

نعم ، سيدة ، إنها والدتي : مسكينة والدتي ، جاءت في إثري إلى الباخرة متذرعة ببضع أشياء غفلت عنها ، وجمعتها في رزمة مغلفة من الورق ، وهي تحاول جاهدة ألاَّ تبكي لكي تشجعني ، وهي تضغط على مقبض روح صبرها لكي تحبس دموعها التي تسببت في انتفاخ طرفي عينيها باحمرار حزين ، كانت تنظر إليَّ وكأنها قد حُكم عليها بالإعدام ، وكنت أدير رأسي إلى الجهات الأخرى بأعذار عادية جداً . كنت أحاول تخفيف الحزن العميق الذي رأيته في عيني هذه المرأة الحنون ، قلت فجأة :

هيا ، أسرعي ، اخرجي الآن ، وإلاّ ستبقين في الباخرة !!

انقطع الآن الضجيج الذي استمر منذ ساعتين داخل الباخرة ، كان رئيس قباطنة السفينة إيطاليًا ، ذا وجه وردي ، متوسط القامة ، وممتلئ الجسم إلى حد ما ، وذا لحية كثيفة كستنائية اللون طويلة ، وهو يعطي أوامره الأولى لأفراد الحرس في السفينة .

وكان أحيانًا يقوم بتنظيم طاقم السفينة ، وكان يسمع أصوات جلبة متقطعة بسبب رفع أحبال طاقم السفينة المفكوكة .... وبدأت أصوات حركة الماكينة ، وسكن ضجيج هزات الونش الحديدي .

جاء بالقرب مني شخصية كنت قد تشرفت بمقابلتها منذ ليلة ، وفي يده كارت ، مد الكارت .

قال خالد ضيا(*) : لو كنت واثقًا من سفرك اليوم ، لكنت بلا شك سأصل إلى الباخرة ... " ، قرأت ذلك الاسم العظيم على الكارت الصغير المتواضع "خالد ضيا " ! أشكرك يا عزيزى ، إنك واثق بأننى سوف أحافظ باهتمام شديد على رسالة الوداع القيمة هذه ...

كانت تنتشر فوق إستانبول أدخنة حلزونية غليظة ترتفع من المدخنة إلاَّ أن المسافرين ظلوا على ظهر المَركب ، ودعنا برقة بضع أخلاء جاءوا إلى الباخرة ، الآن توجه حسان العيون هؤلاء إلى السلم – أقول حسان العيون " لأن بها دموعًا رقيقة ..." .

صفارة مرة أخرى ... ثم تحركت الباخرة ، أخرج كل شخص منديله من جيبه فبعضهم مسح به عينيه ، وبعضهم أخرجه من أجل أن يشير به إشارة الوداع الأخيرة .

خلال هذه الفترة ، أسرع كل شخص ناحية مرفأ الباخرة ، إلاَّ أن أحد طلبة العلم استطاع أن يجد وقتًا ليتعلق على درجة السلم الأخيرة ،

(*) ولد خالد ضيا عام ١٨٦٦م ، كان والده يحترف التجارة ويهوى الأدب ، وبعد أن أفلست تجارته فى إستانبول عاد إلى أزمير موطنه الأصلى عام ١٨٧٩م ، بدأ خالد ضيا حياته الدراسية فى إستانبول ، وأظهر اهتمامًا خاصًا بالرواية وهو فى سن مبكرة ، غير أنه هجر المدرسة دون أن يتم دراسته بها ، حتى يتسنى له مساعدة أبيه .

وهو تقريبًا منتصب وقد قصَّر المسكين ساقيه حتى لا يبلل ثوبه الفضفاض المتدلى كالكيس ... وظل معلقًا على السلم ... بقى هكذا دقيقة أو دقيقتين ، كان يحتاج المزيد من الوقت ليصل إلى البحر ويدمر ماكينة الباخرة ، إلا أن جهوداً حثيثة لاثنين من ملاحى السفينة الجسورين قد أبطلا ذلك الاحتمال الخطير .

تهتز المناديل من كل جهة ، وفى النهاية كانت هذه المراسم الوداعية تقوم بتوديع هذه التموجات .. اجتزنا خارج السراى ، بدا جزء من محيط القلعة وكأنه حزام فضى منقوش ... تظهر فى ناحية ... النوافذ اللانهائية التى تشرف بشكل مستتر على كل واجهة من واجهات طبقات مبانى " بك أوغلى الحجرية " .

وفى ناحية ... أحياء " إسكدار " التى غلفت بظلال ذات لون بنفسجى قاتم ، وفى ناحية ... سطح بحر مرمرة السماوى المتموج ... تبرز شمس الأصيل آلاف الملاعب المضيئة ، وآلافًا من حزم الأنوار والألوان فوق السحب والتلال والأشجار .

السماء صافية ، والبحر راكد مثل سماء منبسطة مستوية ، تنزلق الباخرة " القاهرة " وتتحرك فوق تلك السماء الراكدة مثل كتلة من السحاب ، تجاوزنا " أيا ستفانوس " ، الآن تبدو إستانبول فى هيئة منحنى مخروطى الشكل ، يُرى فناران فى نهايتى هذا الشكل المنحنى ، أولهما فنار " باغجة " ، والآخر " أيا ستفانوس " ... فى المنتصف ؛ الجزر الموجودة خارج هذا الخط ، والتى تبدو كل جزيرة منها مثل بستان أسود فوق صدر البحر السماوى .

هدير ناتج عن انشقاق المياه ، جؤار الماكينة الموزون ، اهتزاز منتظم ، السواحل خالية شواطئها ... رياح رقيقة لكنها باردة ، تسير السفينة ، تُشايع بضعًا من طيور النورس فوق سمت رءوسنا ، وهى تفتح أجنحتها ، وعلى البعد عدد من أشرعة السفن ذات الأجنحة البيضاء المفتوحة .

فى الشمال " بوز بورون " حيث يظهر مدخل خليج " كمليك " طرق " مدانيه وبروسه " حيث يسكن المسافرون بالداخل ... ويدخل شاربو التبغ خاصة فى قاعة صغيرة . ولا يدخنون سوى سيجارة واحدة .

كان يوجد فى القاعة الصغيرة أجنبى وحيد ، حييته بانحناءة رأس خفيفة رقيقة ، وأشعلت سيجارتى ، الآن تتموج أفكارى مثل الدخان الأزرق المنبعث من سيجارتى ، كنت أتخيل الفراغ الذى تركته لدى أحبائى هناك ، وإلى أى حد سوف يضايقهم هذا الفراغ فى أوقات تناول الطعام ، وكم سيطول عليهم هذا الفراق الذى سيستمر بضعة شهور ، ثم بأى لغة سيذكرنى - جميع أصدقائى المحترمين - كلما اقتضى هذا ... هكذا كنت أفكر فيما سوف يتحدثون به عنى فى تلك اللحظة قطعًا - آه - ، هذه التخيلات العنيدة ... !!

وأحيانًا ، يتجه فكرى وخيالى إلى الأمام ، حيث كنت أرى مكان نهاية رحلتى ، الإسكندرية وطنطا والقاهرة والسويس وينبع وجدة بين نقطة وصولنا إلى تلك الأراضى المقدسة ، وموضع مبارك متدثر بالسواد ، وأحاول جمع ذكرياتى الخاصة بمعلوماتى حول هذه الأماكن ، ومن

ناحية أخرى كنت أجتهد فى إرسال خيالى هناك مع تنظيم ما سمعته بشأنها ، ثم يعود الخيال ويهتز فوقها جميعًا مثل فانوس مضىء ، كان قلبى يخفق باضطراب ، كنت أريد أن يسرع دوران العجلة ، وحركة الباخرة ، فقد كانت ديدان متطفلة داخل قبضة مشتتة تخنق روحى ، وتقرض كل تحملى الصامد .

صعدت فوق ظهر الباخرة ضاغطًا على سيجارتى المشتعلة حتى لصقتها بين شفتى : الآن غربت الشمس ، وحلت ظلال سوداء على الآفاق ، كانت إستانبول تتهادى مثل خط متلألئ على حافة الأفق ... تتموج طبقات الليل المظلمة على سطح البحر المنبسط المتدفق ، مثل ضباب كثيف ، يرى على البعد أضواء قرية باهتة على الشاطئ ؛ تشبه خيال برج مقلوب مرتعش ، كل ناحية ساكنة وهادئة ، صمت فى كل جانب ... يقطع هذا الصمت العام صفير الباخرة " القاهرة " المنتظم فحسب ، وكانت تشق طريقًا محدداً على شكل زبد أبيض على جانبيها .

دعت دقات الجرس المسافرين المضطربين المسرعين إلى تناول الطعام ، دخلت القاعة الكبيرة ، حيث كانت مصابيحها الكهربائية على شكل برتقال مضىء نصف شفاف ، وأسفل ضيائها الأبيض زجاجات شفافة من باقات الزهور الكبيرة ؛ والكئوس البلورية والأطباق البيضاء والشوك والملاعق والسكاكين ، وقد صُفَّت حول المائدة الكراسى التى تدور حول محور ثابت ، وكأنها تدعو المسافرين .

الآن استطعت أن أرى فى صورة واحدة مرتبة جامعة لرفقاء الرحلة ، أومأت بعينى لاثنين منهم ، أما الآخرون فجميعهم أجانب ،

خمسة أو ستة أشخاص ... هناك أيضاً امرأتان ، جلستا جنباً إلى جنب ، إحداهما عجوز والأخرى شابة .

الآن ، توضع أطباق الطعام ، وتملأ بسبعة أو ثمانية أنواع عقب الشوربة . وجاء دور الفاكهة ... هناك نوع واحد بينها مألوف كثيراً لدينا ، وهو الموز ، وبالطبع لا تسألوا عن طعمه ، لأنكم تعلمون أن طعمه (مذاقه) تابع لنية آكله .

فى أثناء الطعام ، تلاقت إيماءات أعيننا باثنين من إستانبول كوسيلة للتعارف والألفة . كان هذان السيدان – رمزى وحسين – يذهبان إلى مكة المكرمة ، وبدا هذا نعمة غير متوقعة بالنسبة لى ، لأننى شعرت بمزايا كثيرة فى هذين الشخصين ، هكذا ... فإن سهولة وجود رفيق فى الطريق فى كل رحلة ليس من الأشياء الميسرة .

بعد الطعام انتقلنا إلى زاوية فى القاعة ، وكنا نتبادل ملاحظاتنا عن بعض المسافرين ، وبخاصة أنه قد انفتحت أعيننا جميعاً باستغراب لتجرع أجنبى ذى شارب أصفر طويل ثلاث زجاجات كاملة من الخمر ، وفجأة ، انصرفت أبصارنا تجاه ثلاثة أشخاص كانوا يجلسون تجاهنا هناك ، كانت المرأة الشابة على هيئة لوحة نفيسة ممتزجة بثرى إعصار ، وهى بين قطعتى أثاث مكسور ، وقد سقطت من بروازها الذهبى الثمين ، بين زوج قبيح أحول ووالدته التى تشبه المومياء .

كانت المرأة الشابة تشعر بحالها هذا ، فكانت تريد التخلص من تحت أنقاض ذلك الثرى الذى أحال حسن العالم وبهائه إلى ظلال خرابة ،

كانت تبدو وكأنها تخجل من المكان الذى وُجدت فيه فهى تتمنى أن تكشف اللثام عن جمالها ، وتسمو إلى المكان اللائق بها ، ولكن وأسفاه !! سلمت يديها الجميلتين ليد الزوج السقيم ، وتلك المرأة العجوز ، متذرعة بلا شك بالفقر والحاجة والقضاء والقدر والنصيب ، وفى طريق الحياة اضطرت إلى السير بينهما ولو لفترة مؤقتة .

كانت تفهم جيداً هذا الأمر من كل شخص : تحدج ببصرها إلى الأمام بقلب ممزق متوكل ، وكان ملحوظًا ما يملأ صدرها من تنهدات عميقة حزينة آنذاك ، ترفع رأسها دائمًا ، فيشعر الحاضرون أنفسهم بدوار ، إذ إن كل من فى القاعة كان يركز النظر على هذه المخلوقة الجميلة ، فتجيب هى برد مبهم بعينيها الثملتين .

كانت تظهر على حاجبيها الغليظين بلونهما الكستنائى ، حركة يائسة تجاه السماء – ومن ناحية أخرى - والدة الزوج وقد بلغت الثمانين من عمرها ، تجعدت بشرتها ، وبرزت عضلاتها على شكل خرقة بالية ، وتجعد وجهها بابتسامة غضنة مثل تفاحة يابسة ، فكانت تحجب عينيها تمامًا بين تجعدات جفونها التى لا نهاية لها ، والصغيرة جدا التى تظل وكأنها مغلقة دائمًا ، أحيانًا تهز رأسها بغرور ، وأحيانًا تدمدم بأشياء ، محركة شفتيها مع بعضها البعض ، وأحيانًا تنظم شعرها المستعار رافعة يداها التى تنفذ إلى رأسها ، على شكل قطعة جلد مدبوغة فاسدة .

أما الزوج المذكور آنفًا ، فقد تدثر صدره المحدب بمعطف ذى فراء ، وأخفى عينيه خلف نظارة قاتمة اللون ، وقد أفسدت طفيليات المرض

– التى ظلت تنخر شجرة حياته – وجنتى هذا الشاب الحزين ، وغيرت لون شفاهه ، وجعلت رقبته هزيلة نحيفة ، وأحالت يديه إلى هيكل عظمى ، واتحفت الحلقوم سعالاً سريع التكرار . فكثيراً ما يسعل ، وفى كل مرة أثناء السعال يرفع منديله مرة واحدة إلى فمه ، وكان يعاين فى كل مرة منديله بنظرة خفية ، وفى هذه اللحظة كان يدير عينيه الحولاءين هذه إلى زوجته ، كان يبدو على عينيه الحولاءين هاتين ، والمتداخلتين ، أنهما ترتعشان برعشة وداع خفية ، وكان يمد عنقه فترة من الوقت ، ويروى شيئاً أراد أن يقوله ، فتقبض على حنجرته مخالب سعال ممزق ، كانت تجعل الشاب يسعل ويسعل .

فى هذه الفترة ، كانت السيدة توجه عينيها الزرقاوين الداكنتين ولكنهما تبدوان وكأنهما سوداوين والمنعطفتين أمامها عادة ، تجاه زوجها بشكل يدل على الاشمئزاز أكثر من الشفقة والرأفة .

وعندما تنتهى نوبة السعال ، تنهال على المريض هذه النظرة المشمئزة ؛ ثم تنظر مرة أخرى إلى أظافرها الوردية اللون ، أو إلى غطاء المنضدة القرمزى اللون الذى أمامها ، أو إلى الأرض .

وجهت نظرى لهذه المرأة الشابة لمدة دقيقة ملاحظاً إياها ومعايناً لها، وجهها مستدير ممتلئ ، ولكنه شاحب ، عيناها الزرقاوان الداكنتان المتألقتان حائرتان كعينىَ طفل جميل جديرتان بتقبيلهما ، الحاجبان ذوا لون كستنائى ، والقوسان الكثيفان فوق العيون يعطيان شرحاً بليغاً لذهول الأنظار وتعجبها ، ثم جبهة سمينة . وفى النهاية كانت تظهر

صرة من شعر كثيفة عبارة عن عقصات مجنونة ، وحلقات ذهبية وتموجات كثيرة شاردة هائلة ، كانت تطوق الوجه كله ، أو أغلبه بإطار سموري اللون (أسود اللون) وكان أحيانًا يمثل حجابًا واقيًا للنظر تجاه كل من زوجها أو والدة زوجها ، وهي تمسك رأسها الذي ظل شاحبًا مثل الشمعة بينهما ، حينئذ كانت تظهر دماء واهنة ، وقد رسمت خطوطًا زرقاء رقيقة تحت جلد يديها الشفاف الرقيق .

هل كان من الممكن أن تنقذ رفقة هذه المرأة الفاترة الشاب من دردور الفناء والموت الذي يعاني منه ؟ أم أن الرجل الشاب سوف يدفعها ويحملها معه ؟ ألم يكن الحب الذي يعلنه الزوج الشاب مع كل حركة مثل ضربة مروعة لحياته المرتجفة أصلاً ؟ !!

يا ترى هذا الزوج العاشق ، ألم يكن يدري أنه حينما يعانق زوجته فإنها تفقد قدراً من عمرها ؟!! كيف كانت تتحمل المرأة قُبلات زوجها القاتلة ؟!!

هذه هي سلسلة من الأسئلة يستطيع أن يجيب عليها فقط " بول بورج " ، أحيانًا يدنو الشاب من أذن السيدة الشابة بتوسل ، ولأجل أن يعرف مدى تأثير كلماته على زوجته ، فهو يحدج ببصره على عيني المرأة من خلف عدستي نظارته الزرقاء ، هكذا كان يبدأ حواره الهامس وكان يقطع هذا الهمس نوبات من السعال ، عمّ كان يتحدث ؟!! لا شك أنه يبحث عن ألواح حياة المستقبل الوردية .

كان الرجل الشاذ يعترف بتلك القرارات :

ألسنا يا عزيزتي ، قد استأجرنا قصراً مشيداً بصور الوهم المتقدة ، والصغير في مكان قريب جدا للكازينو أو بحر الرملة ، على شط النيل

هناك حدائق كبيرة لكل قصر من هذه القصور التى يكثر فيها أشجار الموز والتمر ، والأشجار الرائعة التى تسلب النظر ولم تشاهديها أو تعرفيها على الإطلاق ؛ وهى تهز بأوراقها العريضة قلوبنا بلين ورفق فى ظل تلك المروج الخضراء ، ونحن ننتظر قدوم الربيع داخل أرجوحة السعادة الخيالية ، حينئذ يزول هذا السعال ، ألا يعد هذا شيئًا هينًا جدًا وضئيلاً ؟!! ...

بلا شك أننا لن نستطيع مقاومة تأثير الربيع هنالك ، حيث ينتقص جزءًا من هذا السعال فى كل دقيقة ويزيله ، وتنفذ إلى صدرى كل النسمات مثل شذى عطر طيب ، آه ... إنك لا تدرين هواء ذلك المكان اللطيف المنقطع النظير الذى لا يضارع ، لماذا لا تنتهى حياة البشر هناك ؟ أسأل نفسى دائمًا هذا السؤال حينما أذهب إلى الإسكندرية ... آه لو تدركين يا عزيزتى ... ماذا ينتظرنا فى بيت صغير هناك ، يالها من سعادة كبيرة فى انتظارنا !!

كانت نظرة المرأة الفاترة ترد هكذا :

وآسفاه ، يا عزيزى سوف ينقلك هذا السعال الضئيل جدا ، والعادى جدا إلى موقع غير ذلك المنزل الصغير ، إلى .. محل لعله أصغر مما تظن وتعتقد . وغالبًا ستهيئ لك الأشجار الجميلة التى لم أعلم بها ملجأ أبديا ... فأنا ألاحظ أنك تذوب وتذوى كل يوم مثل شمعة محترقة .

كانت المرأة العجوز تنصت فقط ، وكان هؤلاء الأشخاص الثلاثة ثلاثيا مضحكًا غريبًا ، فهناك والدة الزوج وهى خليط من القبح والهرم

من ناحية ، وهناك العروس التى تجمع بين الجمال والشباب فى ناحية أخرى ، وهناك الشاب الذى يتميز بالقبح لأمه ، وبالشباب للعروس فى وسطيهما .

ولكن هؤلاء الرفقاء الثلاثة كانت روحهم متجانسة فى نقطة واحدة ، فالثلاثة مهمومون أيضًا ، والثلاثة شاردو الذهن ، إلا أن أحد صديقىَّ الجالسين بجوارى قال :

هل سيذهب هؤلاء إلى موكب الدفن ؟

فأجبت :

نعم ، سيدفنون أنفسهم ... ثم شرحت قائلاً :

هذا الشاب مصاب بداء السل ، وحتى إن لم تكن المرأة هكذا فلديها استعداد قوى لهذا المرض ، وستدعم رفقة الشاب هذا الاستعداد وستلقن هذه الحماة المرأة .

بالنسبة لثالثهم - وهى الحماة – فهى أصلاً مشرفة على الانهيار .

قاطع صديقنا الثالث كلامى – وقال :

كان هؤلاء فى شهر العسل ... وبسبب الظروف الصحية للزوج كانوا سيقضون هذا الوقت الجميل فى الإسكندرية .

صمتنا نحن الثلاثة أيضًا برهة ثم سأل أحدهم : أى من هؤلاء الثلاثة السيئى الحظ يستحق الشفقة أكثر ؟

قلت بلا تردد :

تلك المرأة الشابة ... هل تفهم تلك المرأة الشابة اللغة التركية ؟ لا أدرى ، ولكنى رأيت أنها ألقت نظرة ثملة علىَّ وكأنها قد فهمت ما قلته ، وعلى الأرجح أنها كانت تُغلف نظرتها تلك بعرفان بالجميل .

اقترب الوقت لمنتصف الليل ، وكان لابد من الدخول إلى سرائر القمرة الصيفية ، وهنا رغبت فى الصعود إلى ظهر الباخرة مرة أخرى ورؤية المناطق المحيطة ، والدخان المتصاعد من المدخنة وهو يرتفع تجاه السماء داخل ظلام الليل على شكل عمود أسود مرصع بشرر نارى وكأنه متصل بسحاب الليل ... كان هناك سكون عميق وظلام داكن وأمواج مضطربة على أطراف الباخرة ... رياح ساكنة ، بحر أسود ، أفق ضيق ، سماء منخفضة ومستترة ، ها هى ذا ترى فقط علامات تظل عقب الباخرة ، فهى تتمدد وتتضاءل مثل ذيل - تنورة - بيضاء طويلة ، وناسورة امرأة ليلية .

تركت روحى لدقيقة واحدة داخل هذه الروح اللانهائية وهذا الليل ، وظلت روحى مغمورة لدقيقة واحدة داخل هذه الطبيعة المتدثرة بالسواد ... هكذا وجدت فى هذا الاستغراق تأثيراً لذيذاً ، فها هو يثير القلوب الباردة ، ويَشْحِن الخيالات الراكدة جدا .

ثم قلت لرفيقىَّ :

استودعكم الله حتى الصباح .

الرسالة الثانية

في الباخرة " القاهرة "

هل كان قد انقضت ساعتان من منتصف الليل ؟ إلا أن الباخرة قد غيرت السرعة أولاً ، ثم توقفت ، واستيقظت ، عادة ما تظهر علامات في النوم كثيرة جدا : فأي حركة خفيفة في حجرة ساكنة توقظ النائمين كما توقظهم كل وقفة داخل شيء متحرك ، فكل سكنة تعترضها حركة تبطل النوم . ولا يمكن أن يكون قعقعة العجل المعدني عائقًا دون نوم المسافرين الذين يقضون الليل في القطار ، فالذي يوقظهم هو التوقف ، فهم يستطيعون أن يناموا أثناء تشغيل الماكينة المتقدة ، لكن تتفتح أعينهم عند انقطاع تلك الضوضاء المنتظمة ... ياله من خطأ كبير أن نعتبر نوم الأطفال على الاهتزازات الدائمة للمهد أو الأرجوحة هو علامة على الذكاء ! فإن هذا طبيعي جدا .

ولا شك أننا أمام " جناق قلعة " فارتديت البنطلون وتدثرت بالمعطف ، وصعدت إلى ظهر الباخرة ... لم تتوقف هنا زمنًا كبيراً جداً .. مجرد نصف ساعة فقط حتى تستطيع أن تنجز الإجراءات الرسمية .

كان الأفق ضيقًا جداً وكأننا كنا داخل حوض ... كانت الحدود المحيطة بنا على شكل حجرة نوم مضيئة بقنديل ليل خافت ، تتلألأ شعلة خافتة هنا وهناك فى بعض الأماكن ، يبرز ضياء أصفر خافت خلف ستائر النافذة الحريرية ، وكانت المناطق التى ظلت بين هذه الأماكن المضيئة تبدو مليئة بالأوراق السوداء والأشجار السوداء والأشكال السوداء مثل الحدائق المظلمة ، وكانت السماء تقف فوقها شامخة مثل قنطرة مرصعة بالنجوم المتألقة المتلألئة البراقة ، وعلى مقربة شديدة منا فنارات البواخر التى تنتظر انبلاج الصباح ، وكان ضياؤها أخضر وقرمزيا .

تبدو مناظر بعض المدن فى الليل على هيئة مملة ، فقد كانت "جناق قلعة ، واسكى هه لسبون" تظهر فى هذه الليلة وقد تدثرت بسبات كئيب قاتم من الظلام تحت سماء براقة متلألئة ، لكنها بلا قمر ، بدت وكأنها تتأوه بين أبخرة الظلام وقد استغرقت فى حلم طويل لليلة طويلة داخل صمت التقوى الشعائرى ، كان كل شىء داخل سكون عميق ، إلاَّ أن مجدافى زورق يدنو من باخرتنا كان يدغدغ روح الليل بخشخشة منتظمة متوازنة ، من يستطيع أن ينكر تأثير نفوذ الديكور فى المسارح ؟

تخيلوا إنسانًا قد ضل الطريق فى ليلة مظلمة ليكن ... إلاَّ أن هذا ليس بقدر هول الكارثة عندما يجد هذا الإنسان نفسه داخل مدينة ما أو فى ضواحيها ، ثم زجوا بهذا الإنسان فى إحدى المنخفضات اللانهائية التى لم تمسها قدم البشر حتى الآن ، أو فى إحدى غابات أفريقيا ... فى الحال تُغير الحادثة المظهر الخارجى حيث تبدو الأخطار القاتلة كما لو كانت سهماً من كل ناحية .

ويصيب هذا التصورُ القلبَ برجفة باردة ، حيث تظهر أمام عينيه السباع الثائرة العطشى للدم والحياة ، ويصل إلى مسامعه فحيح الأفاعى الكريه الممزق لشغاف القلوب والذى يقشعر منه البدن كله ، إننى اعترف هاهنا أثناء التوقف لبضع دقائق أن الليل مظلم ، كل ناحية بكماء ... إلا أن الماء يهمس بخرير خفيف بدرجة يمكن سماعه فقط .

وهنا حطمت صفارة الباخرة الحلم المفعم بالسكون الذى استغرقت فيه ، وبعد توقف استغرقَ نصف ساعة شرعنا فى الرحلة من جديد ، هنالك أماكن متناثرة يتلألأ نورها فوق التلال أحياناً ، وبعد ذلك بقليل سوف ننطلق نحو البحر الأبيض ، وينبغى علينا أن ندخل حجرات النوم الضيقة من جديد .

اليوم الثانى

استيقظت على صوت الصفارة حيث دقت الساعة الثانية عشر ظهراً طبقاً للتوقيت الأوروبى ، وكان هذا الصوت يدعو المسافرين لتناول قهوة الصباح ، وإن لم يُفضلوا القهوة فهناك الشاى والشيكولاتة المفتونين بها، وهنا يستفسر الجرسون عن طلباتكم ، ويُعد فى الإفطار " الزبد والمربى والبسكويت ، وقد صُفَّ الخبز الشهى على مائدة الطعام " وتستطيعون أن تتناولوا كل ما تشتهيه أنفسكم .

لم ينهض أحد حتى الآن على الإطلاق ، تناولت وجبة الإفطار بنفسى ، وأشعلت سيجارتى فى القاعة الصغيرة لأن لوحة " ممنوع التدخين " التى فى القاعة الكبرى فرضت هذه المشكلة .

أردت هذا الصباح التجول فى جميع أنحاء الباخرة مرة واحدة ، وأتفحص الركاب الذين على ظهر الباخرة من زبائن الدرجة الثانية ، دائمًا تُصنع حجرات الدرجة الأولى على الطراز القديم فى نهاية دفة الباخرة ، والذين فى الدرجة الثانية فى القسم الأمامى ، أما حجرات الدرجة الأولى المصنوعة على الطراز الحديث فتقع فى وسط الباخرة ، وتقع حجرات الدرجة الثانية جهة الدفة ، وتقدم الدرجة الثانية بعض المزايا من حيث الأسلوب والطريقة ، ونظراً لأن منتصف الباخرة هو أقل الأماكن تمايلاً فهو المكان الملائم جداً لركاب الدرجة الأولى ، ويقيم المسافرون على ظهر الباخرة فى مسافة تقع بين المقدمة وقاعات الدرجة الأولى ، والباخرة القاهرة مصنوعة على هذا النمط .

اتجهت نحو الدفة لرؤية الدرجة الثانية ، وهنا تذكرت ما قاله لى أحد الألمان الذى قام بالعديد من الرحلات السياحية بينما كنت قادماً من فيينا إلى المجر عن طريق القطار :

أبحث دائماً فى الباخرة عن الدرجة الأولى ، أما فى القطار فدائماً عن الدرجة الثانية .

وقد تذكرت هذه الكلمات فى كل رحلاتى السياحية وأجدها على حق فى كل سياحاتى ، فقد أصبحت سياحتى مرة ثانية فرصة للتصديق ، فهناك فى الصالون البهو الضيق والمظلم حيث تشبه حجرة طعام مدرسة عادية ، فقد كان مسافرو الدرجة الثانية يجلسون كلهم – الكبير والصغير ، المرأة والرجل – يحتسون اللبن المقدم لهم ، والقهوة كانت تشبه الماء بدرجة ملحوظة ، أما البسكويت فهو بخس الثمن جدا ومن النوع العادى ،

والجدير بالذكر أن المسافرين كانوا يغطسون هذا البسكويت الرخيص فى تلك القهوة المائية بنظرة نهمة

إلا أن هؤلاء المسافرين الذين كانوا ينظرون إلى بعضهم البعض منذ مساء أمس يتجاذبون أطراف الحديث بلا مبالاة إلى حد ما ، وكانت ضحكاتهم تنطلق بوقاحة إلى حد أنه لا يمكن أن يندهش المرء تجاه هذه الدرجة من عدم مراعاة مشاعر الآخرين .

وقد اتخذ بعض المسافرين - وخاصة المغادرون إلى أثينا - مظهراً ظريفًا حيث كانوا يلوون بألسنتهم الكنايات الساذجة هكذا ؛ والجناس الفَظّ بلغة فرنسية يأسف فولتير عند سماعها ويندم على أنه فرنسى ، وعلى الرغم من أننى مستمع محايد ، فإننى عندما فكرت فى أنه ربما تكون هناك سيدة تعرف الفرنسية كان وجهى يتورد احمراراً ، إذ كانت هناك سيدات من بين السامعين بل وفتاة شابة وكان بجوار سيدتين من الموجودات رجل بجوار كل منهما ، ولم يستوعب عقلى كيف أذنا باستمرار هذه المداعبات السمجة .

قلت فى نفسى " الدرجة الثانية ! ... " لم أستطع أن أجد وسيلة إيضاح أخرى لهذه اللامعقولية ، فقد كانت سرائر حجرات هذه الدرجة من ألواح الخشب فقط إلا أن هناك اثنين من المصابيح الكهربائية . وكان هناك فى وسط الصالون منضدة طويلة مغطاة بجوخ قرمزى اللون ، ومقعد طويل لكل ناحية وهو مثبت على جانبى المنضدة .. وكان قد انتظم المسافرون فوق هذين المقعدين ، وكان أحدهم يضع فوق رأسه طربوشاً ليليًا ، وشعر الآخر ملوث أشعث ، بينما يرتدى آخر معطفًا طويلاً فوق

ثيابه وقد قذف بنفسه من حجرته وآخر لم يكن قد غسل وجهه بعد وإحدى عينيه مغطاة بالقذر إلا أن عيناً واحدة لم تستطع أن تحجب وجهه بعد ، وآخر كان قد بدت أسنانه البغيضة - السوداء بشكل لا يقبل إلاً في الصين فقط - وهو يضحك صاخبًا وكأن إحدى المداخن سوف تنهار ، وكان هذا الفم يشبه حقًا طاحونة قهوة مائية ، كلا ... لم يكن من السهل التضحية والجلوس بجوار هؤلاء البشر وتناول شيء من الطعام .

اتجهت الآن مباشرة جهة مقدمة الباخرة ، وألقيت نظرة واحدة إلى المسافرين الذين على ظهر الباخرة ، العون يا ربى ، ما هذا المشهد المفزع ؟ والفقر المدقع ؟ وما هذه القذارة ، سيثير هذا المنظر المشمئز عقلى لمدة طويلة مثل كابوس مؤثر ، ففى ناحية كان أربعون أو خمسون من " بخارى " يجلسون وجهًا لوجه ، ومنكبًا لمنكب ، وظهراً لظهر ، أو كانوا ينامون رأسًا على رأس ، وساقًا على ساق ، أحدهم ارتدى خرقة بالية قذرة والآخر يتخذ من خشب الأرضية المبلل سريراً، وكان أوسعهم ثراءً يحتفظ تحت إبطه بصرة تتسع بالكاد لثوبين مطويين فقط ، وقد تدثروا جميعًا وعلى حد سواء بخرق بالية ، سميكة وقذرة ، وعريضة وطويلة ، ومهلهلة ومخاطة ، ولكنها ملوثة بالشحم وقذرة ، إلاَّ أن فوق الرءوس كان يضع كل واحد منهم طاقية تُبرز أطرافها بريقًا شديد السواد من الشحوم ، وكان البعض الآخر يرتدى مع هذه الطاقية قلنسوة ذات وبر مصنوعة من جلد الغنم الخام ، وكانت خرقهم ذات أكمام طولها ذراعان ... وقد أخفوا أياديهم الباردة تحت هذه الأكمام . كانت هذه الخرق تُستخدم بدلاً من البنطلون والبالطو والقفاز ، فقد كانت

تؤدى جميع هذه الوظائف ، وهذا غالبًا هو سبب كونها طويلة إلى هذا الحد ...

كان هؤلاء المسافرون ذوو الخرق الطويلة قد اجتمعوا أخماسًا وأسداسًا هنا وهناك ، كان أحدهم يتحدث والآخر يصغى بابتسامة سعيدة ، بينما رص شخص آخر ثلاث أو أربع قطع من الفحم فوق بعضها البعض منشغلاً بإعداد نار الصباح لثلاثة ... وكان أحدهم يطهو الفاصوليا الجافة فوق مجمرة من صاج خردة ، والآخر كان يقذف شيئًا بملء يديه إلى فمه – من المحتمل أن يكون لبًا – وأخذ يلوكه لمدة خمس أو عشر دقائق ... وكان بعضهم لا يزال نائمًا ، وكان لون جلد الجميع يتراوح بين الأصفر والأسمر ... وكان الشعر متناثرًا والشوارب متدلية، وقد أحاطت لحاهم بأذقانهم ... وكانت عظام وجناتهم بارزة ، وعيونهم تتشابه مع عيون اليابانيين ، وخدودهم نحيلة ويبدون وكأنهم بلا حواجب وإن كان يظهر مكان بعضها إلى حد ما ، ونظراتهم ثابتة وبلا هدف .

وكانت تنتشر رائحة عفنة من هيئة تلك المجموعات ، وعندما امتزجت تلك الرائحة مع البخار الكثيف الناتج عن طهى الفاصوليا انبعثت رائحة عفونة أكثر إلى حد أن المعدة تتقلص سواء أكانت خاوية أو ممتلئة ، وعندما يشاهد إنسان ما ذلك الوضع لفترة ، وبعدما يستنشق لبضع دقائق تلك الروائح يضطر إلى القول بأن قذارة هؤلاء الأشخاص جديرة بالشفقة أكثر من فقرهم وعوزهم .

أما الجهة الأخرى لظهر السفينة فكأنه برج بابل يصور التاريخ القديم ، هناك بشر من كل جنس يتحدثون شتى اللغات ، " نساء ،

ورجال ، وأطفال ، وعجائز ، ... " وقد ازدحم جميعهم في فوضى عارمة ، لم أر مطلقًا مثل هذا التزاحم في مكان واحد ، فليس هناك متسع من الأماكن لكي يتحرك فيه هؤلاء المساكين من مكان لآخر ، فهم يضطرون لتناول الطعام في أماكن جلوسهم ، وإلى النوم فوق ركبتيهم ولا سيما أن بعض الأطفال لم يجدوا لأنفسهم مكانًا آخر سوى أحضان أمهاتهم .

كان منظر هذه الجهة حزينًا ؛ حيث كان يبدو العجز والحرمان ومكان الإكراه مؤلمًا ،-فهناك يسحق بعضهم بعضًا بسبب عدم وجود بضع قروش يفتدى بها المرؤ نفسه ، وكانوا يرتجفون أمام رياح ذلك الصباح ، وكان هناك شيء آخر يظهر وضاعتهم ويضاعف من حقارتهم ووهنهم وفقرهم ، ويمسك مرآة عاكسة لمذلتهم ؛ فلقد كان عدد من نوافذ صالون الدرجة الأولى تُفتح خلفهم مباشرة ... وإذا أدار أي واحد من هؤلاء الأشخاص رأسه التي تداخلت مع بعضها البعض مثل كعكة لا فائدة منها . يَرى شخصًا يهجم بشوكته على إناء الطعام الثامن على طرف مائدة كبيرة معطرة بباقات الزهور وربما لا يستطيعون أن يدركوا كيف لا يسأم هذا المسافر الذي انحشر في هذا الصالون الفخيم ، هنا تظهر حدة الحرمان وفي الجهة الأخرى من النافذة يظهر الثراء والغنى ، والمرح والسعادة كلها وجهًا لوجه .

أدرت رأسي بينما كان قلبي يضج بتأثير تلاطم هذا التضاد المذهل ... ها هو ذا البحر ، هنا أيضًا سعة الطبيعة ... كانت رياح شديدة تبدو وقد طوت سطح البحر اللازوردي الأزرق ... أطرافه ملاءة ... ولكنها ملاءة قد غطتها الكرمشة .. الآفاق مزينة بسحب زرقاء .. وحمراء .. وخضراء .. وفوقها خط في لون البنفسج القاتم ... وقبة

السماء زرقاء تبدو كنصف كرة زجاجية شفافة ... الآفاق تبدو وكأنها سلَّة مشحونة بالأزهار المختلفة الألوان ... والسماء فوقها تشبه التُل المنشور فوق هذه السلَّة .

وتتراكم الأمواج الصغيرة بعضها فوق بعض على الطرف الأسود للباخرة مع رذاذ منعش للروح ، كروية النسيم تظهر الفراغ اللانهائى فلا طائر ، ولا صوت هناك ، وعلى البعد وفى زاوية الأفق نشاهد ساحل جزيرة أزرق مثل موجة كبيرة ، ونحن نتقدم تجاه الجنوب الغربى للوصول إلى بحر اليونان .

قفلت عائداً إلى الصالون الكبير ، ونهض رمزى وحسين بك وقد انتهوا من تناول وجبة الإفطار منذ لحظات قليلة ، ودعونى لتبادل الحديث معهما ، ولا أدرى كيف جرى مجرى الكلام على الساحة الأدبية ، وقد استمرت المناقشة حتى وقت متأخر . فقد كانت الساعة قد بلغت الخامسة عندما وصلت إلى قمرتى " حجرتى " .

الرسالة الثالثة

فى الباخرة " القاهرة "

كنا نعبر أمام جزر اليونان عن طريق البحر الأبيض المتوسط فى اليوم الثانى لرحلتنا ، وكانت هناك حركة مطردة ، وغمغمة ذات تآلف واحد ، وسماء ذات قطعة واحدة مع بحر ذى لون واحد ، كان هذا ما سوف يرهقنا هنا حتى المساء ، لكن على وعد بأن يكون هناك وسيلة لتعويض هذا التعب فى المساء :

سوف نمضى إلى بيرة ، كان من الممكن لنا الهبوط إلى أثينا من هناك ، وكان يكفى لقضاء الوقت حتى المساء أن تعيش فى خيال التجول والتطواف هنالك ، فضلاً عن ذلك فهى ليست متعبة ، أو مزعجة بالقدر الذى يخيفنا من رؤية مناظر الأطراف الأخرى .

كانت ألواح الضياء المتناثرة من دائرة الشمس المتلألئة تداعب مياه البحر الكثيفة والواسعة الرحبة مثل قطعة مرآة ذهبية فوق قطيفة تتماوج مع الريح ، وكانت تتماوج بحركات تشبه تزلقات راقصة توقظ رياحًا شرقية لطيفة لنغمة مرتعشة فى أحبال الباخرة كلها .

تستريح العين داخل زرقة سماوية لا نهائية ، ويمتلئ الصدر بنسمات هواء نقى رقيق لا نهاية لها فينعم بالحيوية ، من المحتمل أن تكون كل هذه الأشياء بمثابة ممر لا حدود له لروح مستغرقة دلالاً ونقاءً ومفعمة بالخيال ، وبسبب عدم وصول الشمس فوق رءوسنا فقد ظهرت مقدمات جزر اليونان فى الأفق غير واضحة وكأن كل واحدة منها على شكل أمواج ربيع رمادية .

ها هو ذا صوت الجرس الصغير ... فقد حان وقت طعام الظهر ، أثناء الطعام دارت أحاديث بين المسافرين الذين تعرفوا على بعضهم البعض داخل هذا الفندق العائم منذ بضع ساعات ، فإن لم تكن هناك عاصفة ، فإن الحديث سيدور حول نقطة الوصول والمشاهدات المتوقعة ، والاستعلامات المتعلقة بنقطة الوصول .

تتهامس أصوات هؤلاء المتعارفين بصفة مؤقتة ، وهم يجهلون هوية بعضهم البعض ، فتتداول المشاهدات والمسموعات ببرودة ناعمة أثناء هذا الطعام ، فاليوم ، أثناء الطعام اشتعلت مناقشة مهمة بين اثنين من المسافرين الفرنسيين حول اليونانيين ، وكان أحدهما لصالح اليونانيين ، والآخر ضدهم ، وكنا نحن نصغى بصمت محايد ، إلاَّ أن المناقشة لم تكن عبارة عن منافسة كلامية فقط ... ولهذا أقدمت على كتابة تقرير ذهنى وفكرى لما حدث ، فقد قال أحدهم :

كان اليونانيون هم أول من قدَّم للإنسانية فكر التجارة ، وتذوق الفنون والآداب ، وحتى فى أوقات حروبهم العصيبة جدا ، كان الشعر والتجارة وسيلتين لضمان السلام ، ولم تكن أرواحهم قد سقطت بين

طيات النسيان ، وحتى فى الأوقات الاستثنائية فقد ظهرت السفن الباحثة عن المراسى التجارية فى مياه اليونان .

كان مخاطبه ظريفًا للغاية ، وساخراً إلى حد ما ، فابتسم قائلاً :

إننى أشاهد فيكم عاطفة مؤرخ مبالغ .

استمر فى كلامه :

إنكم تبحثون عن عصور أرسطو ، وآلسيبياد ، أما اليوم ، فإن ما يتبادر إلى الذهن عندما يذكر اليونانى ، فليس هو أحد عقلاء اليونان السبعة القدماء المشهورين ، وليس أحد الأبطال الثلاثمائة فى " ممر ترموبيل " ، وليس أحد القدماء ممن ينتمون إلى أريستوفان ، والأوربيدو ، والاسكل ، أما اليونانى اليوم إن كان يونانيا حضريا فهو أحد الأشخاص الذين تراهم بين أبطال روايات برزوبيه ، وبول دوقوق ، وهو يتنقل بين المرأة والخمر والميسر ، وإن كان قرويا فهو فظ يجعل زوجته تشد حبل المطية التى يركبها ، فهو مخلوق أنانى وجاهل لآداب النظافة . وإن كنت قد تواجدت فى إحدى مدن اليونان الكبيرة لكنت قد انتبهت بالتأكيد إلى أن الشباب تواق إلى تأبط المعشوقة أكثر من أن يحمل كتاباً بين ذراعيه .

وإذا كنت قد مررت بقرى اليونان الآن فبدون شك سوف تشاهد قرويا ثملاً يسحق تحت قبضتيه السوداوين زوجته التى تعمل فى الحقول حتى المساء . فإن كنت موجوداً فى مدينة ما من مدن اليونان ، فإنك سترى فى جميع الاتجاهات الحضارة الأوروبية بكل وجوهها العابسة ، فعلى وجه الحصر :

فقد كثر عدد السيدات اللاتى يتسكعن هنا وهناك وفى كل اتجاه بصورة ذات مغزى للمارين والقادمين فى المقاهى ، والشوارع لدرجة تستحق الدهشة ، وفى معظم المنازل تتفوه الفتيات بالكلمات الوقحة بين الكمثرى والجبن أمام مائدة الطعام فى ليالى الإغراء ، وتبتسم الأمهات لكلمات الفتيات هذه بغرور ، ولا سيما وأن حال الشباب مثير للضحك جداً فى الصالونات ، فأكثرهم تميزاً يتحدث بلغة فرنسية لا تحتمل ، وبأسلوب فظ غير مقبول ، أما معظمهم فمدار الحديث بالعامية هو المفضل .

وتتعاقب رزم أوراق اللعب وأطباق الفاكهة على موائد الطعام واحداً تلو الآخر، والذين ينفقون ثلثى الثروة الموجودة لديهم أثناء هضم الطعام ليس بنادر ، فالخداع فى الميسر قاعدة عامة وهى علامة على الذكاء ، واللائى لا يسلمن ثروة العفاف لحكم الصدفة هم الحمقى فى صالونات أثينا ...

ولا تظنوا أن ضرب المثل المعتاد بين مقامرى فرنسا – فهو مخادع مثل اليونانى – تشبيهاً تافهاً ، وعلى ما أعتقد فإنه يجب علينا أن نضيف للغتنا تعبيرات ثمل مثل اليونانى ... وهوائى مثل اليونانى ...

كانت كل هذه الكلمات المثيرة للدهشة تنطق بسهولة وطلاقة ، وكانت آذان المسافرين تستمع لهذه الحقائق الهجائية بين الأصوات الناجمة عن تلامس الشوك بالأطباق . وقد رد المناقش الأول بفم ممتلئ وهو يزدرد قطعة "بفتيك" كان يلوكها بين أسنانه قائلاً :

ومع ذلك فإن هذه الأحوال لم تمنع فتح المدارس فى كل جهة .

ضحك الآخر مرة أخرى وقال :

أوه .. المدارس ! أرجو ألاَّ تتحدثوا لى عنها ... ! فالمحامون لا ينفعون لعمل ما سوى أعمال "دون كيشوت" المكايدة فى قاعات المحكمة ، والضباط لا يعرفون سوى سحب سيوفهم ضد كل من يرونهم على أرصفة بيرة بنظرات كلها احتقار ، ولا يجرءون على تعقب أى شخص سوى النساء ذوات الشعر المبعثر .

والأطباء ليس لديهم معرفة سوى ما يساعد المشعوذين الجائلين بالأسواق فحسب ، أليست كل هذه الثقافات من الأعاجيب التى ابتدعها هناك مفتقرو المدنية ؟ .. إننى شاهدت طلاب دار الفنون هكذا فى أثينا حيث يجهلون أوليات المسائل الهندسية ، ومع ذلك فإنهم يصبحون هم أنفسهم أول من يحل مسائل المقامرة التى تقدمها بعض الرسائل الموقوتة .

ويوجد صندوق "الروليت" فى كل مكان بدلاً من خزانة الكتب فى غرف غالبيتهم ، وهم من أرباب العلم والدراسة ، ويعرف جميعهم قواعد الشطرنج تقريباً أكثر من قوانين روما .

هل تستطيعون أن تنكروا أيضاً موهبتهم فى الفنون الجميلة ؟

أنا لا أدرى شيئاً عن موهبتهم وقدراتهم تلك ، لكن لنبحث عن آثارهم ... ولنبدأ بالأدب ، فاليوم لا يوجد أدب يونانى ، فالأشعار اليونانية المعاصرة ليس بها أشياء غير أغانى رعاة الغنم التى تعكس للآخرين أحد جبال أوروبا والقوافى الباحثة عن سكاكين المنزل ، والسلاح الثارى ، والمعشوقة ، والخمر .

فليس فى اليونان فكر أدبى أيضًا ، كما أنه لم يصبح أدبًا حتى الآن ، التفت إلى خزانة العرض أمام محلات بائعى الكتب فجميعها عبارة عن آثار محررى " فن دوسيه " الوقحة ، كما أن أدباءنا العظام مجهولون عندهم ، ومع ذلك فإن اللغة اليونانية غير منسجمة النغمات ، والشعب اليونانى غير محروم من الخيال ، لكن الجهل والحماقة قد استوليا على هذه البلدة حتى إنها لا تفكر فى الاستفادة من قدرات أى شخص على الإطلاق .

تكفى حضور نصف ساعة فى إحدى المقاهى الغنائية التى فى اليونان للإقرار بعدم تذوقهم للموسيقى ، فليس لليونانيين معرفة بهذا الفن النفيس ، ولا حس لهم به ، حيث تُقدم مجموعة منهم بأصوات حادة غير منتظمة موسيقى مكونة من ربع تون مقطعة غير متجانسة مع نغمات السلم الموسيقى إلى درجة أن أذن أى أوروبى لا تستطيع أن تشعر بأى أثر على الإطلاق لتناغم اللحن فيها .

فالألحان الهادئة والعنيفة ، والقصائد والألحان الدينية ، تؤلف جميعها بشكل واحد ، فجميعها تغنى بأصوات كريهة ، وصادرة من الأنف ، علاوة على ذلك فقد أضافوا لهذا الصدى الكريه ، ارتجاجات واهتزازات الجيتار ذى الأوتار الثلاثة للأذن ، هذه هى الموسيقى اليونانية ، موسيقى تجعلك تندم لعدم كونك لست من الصم .

اليوم ليس هناك أثر جدير لما يسمى بتمثال فى اليونان ، لهذا الغرض فإننى لن أستطيع أن أضع فى عين الاعتبار مهارات أحفاد "فيدياس " فى فن النحت . وفيما يتعلق بالرسم ، فتتضح من الأنوار

الكثيفة ، والصور الفجة التى تلون جدران الكنائس الجديدة كلها ، وتوضح قدرة رسامى اليونان بشكل أفصح منى ، ويمكن أن يستدل من تلك الكنائس أيضًا على ذوقهم وقدراتهم ، فتشرح تلك الأبنية المصممة بأشكال معمارية متنوعة عدم مهارة الشعب اليونانى حتى فى الفنون المعمارية هذه ، وذلك لأنهم مزجوا بلا ذوق أو مهارة ، بين أصول الطراز العربى والرومانى والقوطى فى فن العمارة .

ها هو الوضع الحالى للبلد الذى فاز دائمًا بالمرتبة الأولى فى كل شعبة من شُعب الفنون النفيسة فى زمن ما ...

واستحسن الموجودون على المائدة بصمت مشوب بالحيرة فأتاحت هذه العلامة المستحسنة الجرأة للمتكلم الفرنسى فبدأ بالكلام مرة أخرى قائلاً :

ما رأيته لدى اليونانيين المعاصرين من انعدام الفنون الجميلة هو أخف العيوب . ادخلوا مرة واحدة إلى عالمهم الخاص ، ستعرفون آنذاك إلى أى درجة يتعامل هؤلاء الأشخاص الذين يتحدثون لبعضهم البعض قائلين " يا أخى" بغرور تجاه أى أجنبى .

فى نظرهم أن عدم كون الإنسان يونانيا يُعد خطأ يمكن أن يُعفى عنه بالمال فقط ويفدية النجاة فحسب ، ادخلوا إلى قرية ما قطعًا ستهرب منك السيدات ، والرجال سوف يفحصونك بعينين نصف مغلقة من الرأس إلى القدم بنظرة مليئة بالريبة ، وكأن الأفكار التى يتخذونها فى حقكم ستتناسب مع طول قامتك ، وسوف تشعرون بالضجر من هذه

النظرات ، وتحزن بسبب عدم كونك باتاغونياليا ، وتكون ممنونًا بسبب عدم كونك لابونياليا ... فسعادتهم تنبع من ثقل حافظتك بلا شك .

وهم لا يتعاملون بهذا الشكل مع الأجانب فقط وإنما فيما بينهم أيضًا ، فهكذا يحدث فيما بين الآدلفوسيين أيضًا ، وفضلاً عن ذلك فيجب النظر إلى معاملاتهم لزوجاتهم ، فالمرأة تعمل كل يوم حتى المساء ، وتدبر المصاريف لزوجها الذى يشرب الخمر فى حانة القرية ، وتعمل جميع النساء فى الحقول ، وفى السواحل ، وفى الوديان ، وفى الشوارع ، وفى المنازل ... إلخ .

أما الرجال الكسالى فاسدو الأخلاق فتستطيعون أن تشاهدوهم فقط فى الكازينوهات وفى حانات القرية ويمكن للمرأة أن تتحدث مع رجل ما فقط داخل حياة مظلمة ورتيبة ، فالابتسامة ممنوعة ولها خطوة رقصية تلامس وتر الجيتار .

ولا ينقطع قسيس القرية لحظة واحدة عن تلقين الاعتقادات الباطلة للسيدات فتنتقل هذه التلقينات من السيدات إلى الأطفال ... ولهذا السبب تزداد الأباطيل فى تلك البلاد عن أى مكان آخر .

فى إحدى جزر البحر الأبيض الآيايانى يثير الكتاب الذى يروى التهيئات البصرية التى تثير خيال اليونانيين الجهلاء إلى حد أنهم يظنون أن جميع الأحداث التى تعود للواقع والمستقبل مدونة ضمن هذا الكتاب ، ونتيجة لهذه الرغبة المبجلة للظنون فهم متعصبون وسفاكون للدماء وبلا تمييز ... وعلى أثر تشجيع القساوسة الجهلاء قاموا بأعمال

القرصنة ضد تجارة أوروبا لفترة ما ، وتنافسوا فى هذه القرصنة ، وكان وجود قسيس يونانى فى سفن القراصنة شرطًا فى ذلك الزمان ، فبينما يغرق القراصنة ملاحى سفن التجار ويذبحونهم ويقتلونهم يركع القسيس أمام (بانا) " وهو إله الغابات والمراعى والرعاة عند الإغريق " متمنيًا أن يتغلب القتلة ، أليس هذا ما يحدث فى ميدان تاريخ اليونان الأخير ؟ تتحدث الآثار أصدق من أى شخص فأهم صحائف ذلك التاريخ محشوة بأعمال النهب والقتل .

انتهى الطعام منذ قليل ، وكانوا يشربون القهوة ، وقد صمت المتحدثون ، وهنا قال رمزى بك فى أذنى بينما يخرج من الصالون :

ـ ياله من إنسان ودود إلى أى درجة يتحدث الحقيقة ، وأنا أصدقه .

كنا قد وصلنا الآن أمام جزر اليونان ، فقد عبرنا مقدار مسافة صغيرة أثناء الطعام . اجتمع معظم المسافرين الآن جهة الساحل يشاهدون ساحلاً يابسًا مكونًا من صخور سوداء صاعدة ناحية السماء ، ويمكث البحر متماوجًا أمام تلك الصخور الجرداء فتبدو مظلمة وسوداء ، هناك معنى واحد يبدو فى عيون بعضهم تروى أنها انخدعت فى خيالها حيث تقول ... هل هذه هى جزر اليونان ؟!

من على البعد يذكر أحد اليونانيين أسماء هذه الجزر لمن يتعرف عليها ولمن لم يتعرف عليها ، ويبين محاصيلها ، وكان ينظم القصائد الهابطة لهذه الأشياء الطبيعية التى تقف أمام عينيه بحقائق كئيبة . ليس من الممكن أن تظل أسماء هذه الجزر فى الذاكرة لأنها كثيرة إلى حد ما ،

وغريبة ومتعددة الأشكال إلى ذلك الحد يظهر " آرامنون " كم هو ساحل واسع وغريب للعيون التى لم تعتد البحار العارية مهما يكن المنظر الواحد .

فيبرز وجه الثَّرى للمسافر الذى ينفذ داخل أفق أزرق دائرى بضع ساعات يبدو رقيقًا جذابًا مثل صاحب منزل كريم وودود ، تمتزج تلك الأشياء المتراكمة على قلب السائح ببطء وبمرارة وبألم ، وتبدو الصور المنعكسة على صفحة البحر اللانهائى بأمل عاطفى فجأة أمام ساحل ما، وتبرز تلك الأمنية على روح السائح تجاه الثرى ، لو توقفت الباخرة هناك لنصف ساعة لأرحت قدماى بنزهة لمدة نصف ساعة على ذلك الساحل حيث كنت أتذوق الآن كل هذه المشاعر ، وجميع هذه الرغبات تجاه ذلك الثَّرى العارى .

تمر من أمام عينى الجزر حيث كانت تمضى وتتهمر عليها باستمرار مثل شريط كبير مصور ، وكانت هذه السواحل اللانهائية تترك أثر عزلة تثير الفكر والصمت حيث تتغير تلك الجزر ، لكن تظل المناظر واحدة تقريبًا ، حيث تبدو فى كل مكان هنا أو هناك دغل أيكة مقطوعة بين صخرتين سنجابيتى اللون ، ونادراً ما تظهر شجرة زيتون تهتز باهتزاز خفيف ، يلفها ضباب خفيف حزين، وفى معظم الأحيان يُشاهد صخرة بيضاء مثل نقطة نور القمر داخل هذا العالم الأسود . ينحدر تيار ماء رقيق فى جزيرة نحو البحر على شكل حبل شفاف إلا أنه لم تستطع إحداها أن تغير منظر الساحل المجرد على الإطلاق .

تعقبنا هذه السواحل الجرداء فترة تتبعنا عدداً من طيور النورس الأبيض ، أحيانًا يكون البحر خطًا منحنيًا ومعوجًا ومنكسراً بين هذه الجزر التى تقف كل واحدة منها على هيئة هوة حادة ، وأحيانًا تأخذ حجم حوض كبير راكد .

ثم يتغير المشهد فتتوارى خرابة مدينة قديمة مهجورة فوق الجزيرة التى مررنا جوارها بصمت عميق ، وتحجب ذكريات بشرية مثقلة بدوامة قوية ، وعلى البعد تقف جزيرة بشواهقها الثلجية مثل موجة مزبدة . وكأن صوت خرير المياه الجارى مريع خفى ، ينحت الخرابة القريبة منا ، حيث كنا نستطيع أن نسمعه .

كنا قد اقتربنا من الساحل إلى حد ما ، وعلى مقربة منى شاب إنجليزى كان يرسم رسمًا تخطيطيا للخرابة على ورق ألبومه صغير ، ويحاول أن يأخذ رسمًا تذكاريا كتذكار من أنقاض بلدة بائدة وغبارها ، من يدرى ؟ ربما ستظهر هنا أيضًا لوحة أسطورية تلحق بالبرانس التى يغسلها الأطفال العراة على شاطئ البحر ، وفى ظل الظروف الجمالية يضطرب الرسام لإظهار الحوائط المهدمة بخطوط سريعة .

انتهينا الآن إلى السواحل التى تظهر عزلة مرعبة داخل تلك الطبيعة الجامدة ، وتلك الهوة ، وتلك الصخور ، وتلك الفوضى الهائلة ، الآن تتثبت كل بركة محاطة بالأشجار عالمًا متحركًا مليئًا بالسفن التى تتمايل قلاعها المنتفخة والبيضاء فوق صفحة المياه ، وعلى البعد توجد علامة للحياة التى تستهل بالرياض .

وهى تذكر الآن الطبيعة روحى بتلك الأرملة الحزينة التى خلعت ثيابها ذى اللون الواحد الملازم لها دائمًا ، من أجل الولوج مجدداً إلى دار ضيافة الحياة ، وقد أضفى قميص وردى اللون على كياتها نضارة حلم ربيعى فى ليلة العيد ، تتراجع الأشكال البخارية للجبال تدريجيا نحو الخلف ، ويظهر تدريجيا على الساحل المبلل بالأمواج الخفيفة آثار للحياة .

الآن مررنا أمام قرية تنتشر منازلها البيضاء ذات الأسقف القرمزية داخل الأشجار الضخمة ، ثم نشاهد الفلاحين سائقى المحراث ، وزوجين من الثيران بين الحقول ، وعلى مسافة أبعد تتلألأ أحجار مدفن أبيض بين ثلاثة من أشجار السرو المعمرة . وأحيانًا تدور طاحونة هواء فى مكان مرتفع ببطء ، كل هذه الأشياء المنظورة تستطيع أن تجذب خيال هوميروس أمام مدارات الذكريات الأسطورية المهجورة والمنبوذة ليعد عناصر حياة نشيد طنان . هيهات ، فإننى كنت أقرأ لهوميروس فقط .

مرة أخرى صوت جرس صغير ، يدعو لتناول الطعام للمرة الثانية ... بلغت الساعة الثالثة عصراً ... كان هذا الطعام الثالث هو طعام وقت العصر ، وهو مكون من حساء اللحم واللحم المسلوق بقليل من التوابل والفواكه ، وقد استجاب عدد قليل جداً من المسافرين لهذه الدعوة ، وذلك لأنه فى خلال ساعتين فقط لابد أن ينتهى طعام الظهر ، وعلاوة على ذلك سوف يُعد طعام العشاء أيضًا بعد ساعتين أو ثلاث ساعات . حيث يبلغ عدد الوجبات فى اليوم أربع وجبات كاملة ! ... ولا يستطيع أن يتحملها إلا معدة الشيطان فقط ، وكان هناك دفتر فى الباخرة يقيد فيه المشرفون ملاحظاتهم هناك بصورة غير معقولة عن الأمور والمعاملات

داخل الباخرة ، وقد أراد حسين بك أن يدون فى ذلك الدفتر تلك الملاحظات قائلاً :

" كل شيء منظم ، كل شيء جميل ، لكن نوبات تناول الطعام متقاربة جداً ، أليس من الممكن أن توزع أوقات الطعام توزيعًا حسنًا ، وهنا من الممكن تحمل هذا الإفراط فى الطعام بامتلاك معدة " بانتاغروئل" فحسب .

وحينما تتعقب الباخرة الساحل ، لا يفضل المسافرون أن يقضوا أوقاتهم على مائدة الطعام . وانتهى الطعام بضربات شوكتى الطعام ، وهرع كل شخص تجاه سطح الباخرة ليشاهد منظر الشاطئ بصورة شاملة ، وقلما يتحدث شخص على سطح الباخرة فى ذلك الوقت ، وتظل فقط أمنية كل شخص تشتاق روحه لمشاهدته خلال تلك الساعات ، ويعيش منزوياً إلى حد ما داخل عالم من الأحلام وذلك طبقًا للرغبات الخيالية ... حتى يكاد ينسى أن معه مسافرين على الجانبين .

ولا يستطيع أن يوافق على أدب الصحبة ، أو أن يصغى لحديث مسافر فى أوقات مثل هذه ، فقد استغرقنا فى مشاهدة مناظر السواحل مرة أخرى بسكون عميق ، تقف الأشرعة فى اتجاهات مختلفة فى البحر . أحيانًا ترسم أشكال الإنسان فى الكرة الأرضية ، وهناك على الساحل تجويفات للمياه وآثار أسنان أمواج البحر الأبيض ، وترى فى الأمام قطعة أرض ممتدة تجاه البحر ، و كان هذا النتوء يخفى طرف ذلك المنظر البعيد ، فقال واحد من الذين كانوا بالقرب منى باللغة الفرنسية :

الآن عندما نبتعد عن ذلك النتوء سوف تبدو أثينا .

وحينئذ ظللت أنتظر بفارغ الصبر ذلك الزمان ، وبعد ساعة واحدة ابتعدنا عن ذلك النتوء حيث بدت أكوام المنازل المنخفضة ، والمنتشرة فى جمال جزيرة مالطة ، والممتدة تجاه الأرض فى قاع خليج صغير مهجور ومجوف وواسع ، وأخفى عدد من الجبال على ارتفاعات مختلفة حدود هذا المنظر الجديد ، وبعد أن قضينا حوالى ساعة في هذا الخليج الصغير الخالى ، دخلنا إلى مرفأ بيرة من مدخل ضيق - ضيق فى إمكانياته - فمن الممكن أن يسع اثنين من البواخر فقط . شاهدنا هناك أبنية مدينة بيرة ذات الألوان البيضاء والزرقاء " المائية " والوردية اللون بين السوارى والجبال ، والأشرعة والمداخن ، دخلنا حتى وسط الميناء بحركة بطيئة للغاية . هناك انفصلت سلسلة الباخرة المتوقفة بين زورق تجديف سريع .

الآن يتسلق النوتيون ، والحمالون ، والمترجمون ، وأصحاب الفنادق داخل الباخرة بجلبة هائلة .

كنت أنا ورمزى وحسين بك نمعن النظر مبهورين إلى هؤلاء الجياع الواثبين إلى الباخرة بالحبال والصنانير . فى هذه الأثناء دنا بالقرب منا مترجم وقال : ليمنح لنا كل واحد مجيديه لنتجول بكم فى جميع أماكن أثينا المشهورة خلال ساعتين ... شاملة كل المصاريف . ولم يكن هناك وسيلة لإبداء رفض هذا الاقتراح فالمترجم يتحدث متواصلاً وباستمرار ، أحياناً بلغة فرنسية بذيئة ، وأحياناً أخرى بلغة تركية بغيضة . وكان يتحدث فى هاتين الساعتين عن فوائد السياحة ونوادرها قائلاً :

سوف نغادر بالزورق ، وسوف نصل إلى أثينا بالقطار ، وسوف نتجول فى المدينة بعربة اللاندوية ، وسوف نعود مرة أخرى بالقطار ، وبالزورق مرة ثانية ..... وسوف نرى جميع أبنية أثينا المشهورة . ثم أخذ يعدد الأبنية المشهورة مثل :

بارته نون ، زابيون ، بوليتكنيون ..... وبعد مناقشة قصيرة ، قررنا التجول مرة واحدة داخل أثينا .

وكانت الباخرة ستقف هنا حوالى ثلاث ساعات فقط ، واتجهنا ناحية السلم بشرط العودة بعد ساعتين . وكان المترجم سعيداً إلى حد أنه كان أحيانًا يعبر إلى الأمام ، وأحيانـًا يظل فى الخلف ، فكان لا يستطيع أن يعرف ماذا عليه أن يفعل ....

نستودعكم الله لساعتين

الرسالة الرابعة

فى الباخرة " القاهرة "

عدنا الآن من الجولة فى أثينا وبيرة التى استمرت ساعتين ونصف ، وحينما اقتربنا من رصيف بيرة ببطء مضينا داخل زورق واسع الحجم وخفيف الوزن ، كانت الشمس تقابل الأفق وظلت السحب الخفيفة والمنتشرة على تلك الناحية غارقة بين آثار الإحمرار .

وبينما اقتربنا نحن من الساحل الشرقى للميناء كانت الرءوس السوداء أو الكستنائية المطلة من شيش النوافذ على الأرض بواسطة التلسكوبات تتجول بين البواخر بنظراتهم التجسسية .

كان طفل قصير ، ممتلئ الجسم أبيض يصفق بذراعيه مثل زوج من الحمام الطاهر بمنديل أبيض معاً قابضاً عليه من طرفه ، ليستطيع أن يستقبل الباخرة القادمة الجديدة من داخل إطار نافذة ... ربما كانت هذه الرفرفة بشارة اللقاء وخلجات الوداع ، وربما هى صدقة تعارف مرسلة إلى مسافر لا مسكن له ووحيد ، فمن الممكن أن تكون هذه الرفرفة مداعبة منه أو خدشاً .

وعندما وصلنا فوق رصيف واسع ، وبرزت الكازينوهات المنزوية تجاه الخلف، والمحلات ، والمنازل ذات النوافذ المختلفة الألوان ، والرقشاء ، كان هناك شعور سعيد ، فى أقدامنا المبتهجة وخز خفيف شوقًا للثرى منذ يومين ، ولكى نصدق أننا فوق الثرى وليست سعادة خيالية كنا نضرب بأرجلنا بشدة على الأرض ... كانت الوجوه المغبرة الناظرة إلى الخلف تدور وتدور بين القبعات المشحونة المخترقة إلى الحانات ، والأنوف المسدودة بالمناديل الحمراء والبناطيل القطيفة الغليظة .

وكانت الوجوه كثيرة بحيث يمكن أن تخفى عابرى الرصيف السائرين عن النظر ، وكانت الأشجار الصغيرة التى تغطى قسمًا من الرصيف للكازينوهات الصغيرة تبدو مليئة بنظرة إغراء رقيقة وقت الغروب المتلألئ ، لكن مرشدنا كان يتحدث قائلاً :

" هناك عشر دقائق متبقية ثم بعد ذلك سوف يهرب القطار ! " كنا نتعقبه ... غادرنا الرصيف وتعقبنا طريقًا واسعًا مرصوفًا بالحصى .

ويجانب سلم حجرى ذى بضع درجات ... كان هناك باب متصل بصف من النوافذ العالية ، طرفاها طويلا حيث توجد محطة القطار ، وقد أخذنا تذاكرنا من نافذة منفصلة مهدمة ذات زاوية فناؤها نصف مضىء .

ثم خرجنا إلى ممر طويل حيث يوجد صالون للانتظار ، وكان عدد من المسافرين ينتظرون بقلق فوق مقاعد خشبية منتشرة هنا وهناك ، وقد احتشد الجزء الأكبر من المسافرين أمام مقعد واحد حيث كانوا يسترقون السمع إلى حديث الجالسين هناك فاقتربنا نحن بدافع

التجسس ، حينئذ رأينا أن هناك قيوداً حديدية فى أيدى رجل وبجانبه البوليس ، فشرح لنا مرشدنا بلغة نصفها باللغة التركية والنصف الآخر باللغة الفرنسية قائلاً :

لا تتعجبوا فهذا مجرم ، إنه قاتل إيطالى ، قتل مرة ربان سفينة روسى الجنسية ، وكان يحكى سبب القتل وكيفية وقوعها . كان يبدو فى عينى المجرم الدموية معانى تهور مشمئزة ، ووحشية طاغية على وجهه كله . وقد أرجفنا وجود قاتل على مقربة منا إلى هذا الحد ، لاسيما وأنه كلما تخيلنا أننا سنذهب إلى أثينا فى قطار واحد معه يجعلنا نشعر بالقشعريرة ، فقلت :

التقاء قاتل مع المسافرين مثل التقاء صديقين بريئين طاهرين ... عُرف ، قضائى غريب .

وكانت صفارة القطار مسموعة . والآن عدنا مباشرة تجاه الشرق داخل قطار صغير .

كانت رياح المساء الخفيفة التى تخترق نوافذ القطار تمنح حرارة معتدلة ، وهنا قال رمزى بك :

لقد اختلف المناخ ، هنا درجة الحرارة عشرة على الأقل أو اثنى عشر درجة .

أحياناً كان القطار يحاذى البحر ، وأحياناً كان يندفع بين المصايف ذات الزخرفة الطبيعية فيخفيها . كان هناك صمت عميق داخل حافلة القطار التى تشبه عربات الترمواى المتضخمة ، وكان لا يسمع شىء سوى جلبة القطار المعدنى مع أزيز عدد من الجرائد .

وبعد ثلاث محطات وصلنا إلى أثينا وكان يوجد هنا فى فجوة على شكل غار بالمعنى العربى لكلمة غار ، ومن أجل الخروج نحو محاذاة المدينة لابد من تسلق السلالم " نحو خمسة وعشرين أو ثلاثين درجة " ركض مرشدنا إلى الأمام وأعد عربتنا اللاندوية .

تجولنا فى مدينة أثينا داخل آثارها ، كان المساء رقيقًا ومتألقًا ، ورأينا أكاديميا ودار الفنون ، وزابيون ، والقصر الملكى ، وسفارة السلطنة السنية ، والشوارع الكبيرة، عابرين من طرق منحدرة ومتموجة . والخلاصة أننا رأينا جميع الأماكن التى وعدنا بها مرشدنا إلاً أن الشوارع قد ازدحمت واحترقت الغازات ، وأردنا رؤية أطلال " رته نون " القابعة خلف المدينة مرة واحدة :

شاهدنا شيئًا مبهمًا بين المبانى الأثرية فيما بين مقدم الليل والتى تظهر منها الأعمدة القديمة فوق المسارح القديمة ، ومسارح الأنفيت القديمة ، فقد كان هناك داخل الخرابة من هو على شكل إنسان يتجول بخطوات ثقيلة ، فقال حسين بك :

هو ذا واحد من محبى البحث والتحقيق فى الآثار القديمة ، ومن المحتمل أن يكون قد قضى هنا حوالى شهر ليلاً ونهارًا ، أنا لا أستطيع أن أفهم بطريقة أو بأخرى ما الذى يتذوقه هؤلاء من رائحة الصدأ ، خرجنا من الأماكن التى هبطنا إليها ، ونزلنا من الخدور الصاعدة التى تسلقناها، وحينما عدنا إلى الباخرة ، حل الظلام على جميع العالم الخارجى بأسره . وقد أخذت الباخرة " القاهرة " شكل حزمة متألقة بجميع فنارات الكهرباء .

وقد جلسنا لتناول ما تم توزيعه علينا من طعام المساء ، لأن موعد العشاء كان قد انقضى ، وكانت الباخرة قد استعدت للتحرك ، وانتشرت بيننا مقولة " لقد وصلنا في الوقت المناسب " جلست برهة في قاعة التدخين ، فقد أردت العون من أصدقائي لكي أدون تلك المناظر ، وبينما كنت أكتب كان كل شخص يرجع واحداً وراء الآخر إلى حجرته .. وبعدها بقليل شعرت بأثر تعب في عينيَّ أيضاً .

الصباح التالي

اليوم هو يوم الجمعة ، وهو اليوم الثالث لركوبنا للباخرة . تهتز الباخرة ، هناك عاصفة هادئة ، فحينما استيقظت ليلاً أحسست بهذه الموجة الطويلة مرة أخرى . لم ينهض أحد بعد على الإطلاق ، وكان كل شخص نائماً . سوف نصل إلى الإسكندرية بعد أربع وعشرين ساعة .

تُذكِّر المدينة التى سوف نصل إليها بعد أربع وعشرين ساعة ، الذهن بالإسكندر الأكبر الذى قلب أبهة السلطنة رأساً على عقب ، كما يذكر عمود " فاندوم " " بنابليون بونابرت " ، واسم " فرساى " " بلويس الرابع عشر " ومن أجل أن ينشئ هذا العسكرى العظيم مرساة وسطا بين الهند واليونان فى الزمان القديم ، بنى مدينة الإسكندرية فى ذلك المكان الممتاز على ساحل أفريقيا .

ولقد حافظت هذه البلدة العتيقة التى تعاقب عليها من اليونانيين إلى الرومانيين ، ومن الرومانيين إلى العرب ، وفى النهاية انتقلت إلى اليد العثمانية العادلة . حافظت على الرغم من الأزمنة على وجود

حضارتها نظراً لأهمية موقعها الجغرافى لها ، وقد أنقذت نفسها من الوقوع فى الخراب كما حدث لمدن مثل قرطاج ، وهاليقارناس ، وترووا ، وكلما اقتربنا إلى هناك تستيقظ فى الروح مجموعة من الذكريات التاريخية ؛ وهاهى ذى حادثة ، على الرغم من أنه مضى على وقوعها ثلاثة عشر قرنًا ، إلا أنها لم تفقد شيئًا من حيويتها وقوتها الأصلية على الإطلاق :

نعم ، العام العشرون للهجرة النبوية ، شهر محرم الحرام لهذه السنة المباركة . كانت أول جمعة لهذا الشهر الذى رفع فيه هناك حضرة عمرو بن العاص لواء الإسلام ؛ وفتح لقلوب المصريين سماء الهداية بأسرها ، ولا تستطيع الذاكرة أن تكتفى بذكرى هذه الحادثة الجليلة فحسب فتتذكر الخلفاء العباسيين الذين حكموا هنا .

وفى النهاية تتذكر سطوة القبضة الحديدية التى استولت عليها حملة السلطان سليم الأول وهو شجاع مقدام ، ثم تمر وتسلك من دهليز الذاكرة باضطراب سريع الذكريات الواحدة تلو الأخرى ، جميع الفلاسفة القدماء : أرسطو ، وبطليموس ، والمعابد القديمة ، والمكتبات القديمة ، والفنون القديمة ، والشعوب القديمة .

بعد ذلك يظهر قلبان يتعانقان مع بعضهما البعض على شاطئ الخيال : أنطونيو مع كيلو باترا ، اجتمع هنا هذان العاشقان المشهوران ، وكانت هذه الذكريات تزيل من أمام عين الخيال الستارة الكثيفة لتاريخ مأساة حسن وعشق كلها ، تشاهدون استغراق أنظار روحين عاشقين يحتضن أحدهما الآخر ويحيط بهما نور وضياء . الآن لا أحد فى

الصالون . تستمر الباخرة فى طريقها تشق أمواجًا طويلة تشتد تدريجيا .

تناولت الإفطار بنفسى ، ثم صعدت إلى سطح الباخرة لإلقاء نظرة على الأماكن المحيطة . ليس هناك أثر للأرض فى الجوانب ، ولا استواء البحر الأفقى ، بقينا بين زرقة البحر المزبد ذى الرغوة البيضاء وزرقة السماء المشبعة بالسحب البيضاء ، وكانت ريح غريبة شديدة تجعل أحبال الباخرة كلها تطلق صوتًا يطن بصفير مقلق وتهز قلوب جميع المقيمين بخفقان مروع . وكانت الأسطوانة الدخانية الصاعدة من المدخنة تميل تجاه الجهة المعكوسة . وكانت السفينة كلها تلوى عنق حركات الأمواج ، فتتمايل أحيانًا من المقدمة ، وأحيانًا من الجنب ، ليس هناك أى شخص مطلقًا على سطح السفينة سوى اثنين من المسافرين الأقوياء .

كنت مختليًا بنفسى مستغرقًا داخل هذه الطبيعة العنيفة واهتياج ذلك البحر ... أفزعتنى هذه العزلة . فليست هناك وسيلة طوق مادية سوى سفينة صغيرة جدا تتحرك محدثة قعقعة تنذر بدمار سريع تحت أقدامى ، وهى تواجه تلك القوى غير المحدودة وتلك العناصر البشرية .

أردت أن أظل جاهلاً عن هذا القصور والإهمال غير مدرك لها ، ومع ذلك فقد نظرت فجأة إلى مسافرى الدرجة الثالثة من مدخل الصالون ، فكانوا هم أكثر إهمالاً وعزلة ، وسيئو الحظ وهم كثيرو العدد فلا يظهر وجه أحد منهم على الإطلاق فكان كل واحد منهم مستلقيًا وملفوفًا داخل خرقة بالية مشحمة ، ولا يمكن التمييز بينهم وبين صررهم ورزمهم ، إلى ذلك الحد كانوا مهانين ، إلى ذلك الحد كانوا متدثرين ، وكان البحر فى معظم الأوقات يبلل هذه الركامات برشات منذرة ، كيف

يستطيع هؤلاء الأشخاص أن يناموا وسط ذلك الضجيج وذلك الارتعاش ؟ كيف يستطيعون أن يتنفسوا داخل ذلك القماط وتلك الرزم من الخرق البالية التى ليس بها متنفس ؟ .. لا أحد يعلم !؟!

وحينما دخلت الصالون رأيت وجهى رمزى وحسين بك الودودين وجهًا لوجه عند مقدمة منضدة ... كان يبدو على وجهيهما شحوب خفيف ومعنى حزين مبهم .

سألا : كيف ؟ -

فقد كانا يريدان أن يحصلا على معلومات حول الهواء والبحر .

قلت : لا هو جيد جداً ، ولا هو سيئ جدا . ثم حكى بعضنا البعض كيف قضينا ليالينا .

وحين جاء وقت طعام الظهر بلغ عدد المسافرين الذين صعدوا إلى الصالون أربعة أو خمسة أشخاص ، ولم يخرج الآخرون من حجراتهم ، فجميعهم مصابون بدوار البحر ، دوار البحر : نعم ، وهذه الحالة تعد حالة مرضية مؤقتة ويسميها الفرنسيون داء البحر ، وتكفى رؤية لون الوجوه وأحوالها لكى نعرف درجة اضطراب المصابين بدوار البحر : فجميع تلك الوجوه تصفر بلون شاحب مائل إلى اللون الأسود ، وترسم خطوطًا من الآلام على جميع ملامح الوجه ، ويبدو الجسد البدنى كله وكأنه مسحوقًا تحت حمل لا يقدر على حمله ، وقد أوصى المرضى باستعمال أدوية كثيرة جدا فى هذه الحالة ؛ ولكن أى من هذه الأدوية لم تستطع أن تقدم النتيجة المطلوبة على الإطلاق فيقال إن الصعود إلى سطح السفينة علاج جميل جداً ، والجلوس تجاه الهواء الطلق ، ولكن

لابد لهذا من قوة تحمل متينة للغاية . ولا يمكن أن يكون فى مقدرة الأطفال والسيدات والرجال العصبيين .

هناك أنواع لدوار البحر ، فكل شخص يصاب بدوار البحر بشكل خاص به . فأحدهم يريد أن يستلقى ويستلقى دائمًا ولا يتحرك ولا يخرج من حجرته ، والآخر لا يجلس ويتجول دائمًا ، ويجرى بسرعة بخطوات عصبية على سطح السفينة وفى الصالون باستمرار .

والثالث يكبح المرض اشتهاء المعدة فيعتاد هكذا أن تكون معدته خالية دائمًا ، وبعضهم يشعر أن هذا الاشتهاء يقتصر فقط على بعض المأكولات : فلا يستطيع مسافر أن يصفى ليمونة على شفتيه كطفل صفيق الوجه على هذا النحو ، وآخر قد أمسك ببسكويت وهو يقرض فيه باستمرار مثل الفأر ، وهناك أيضًا المصابون بدوار صداع فظيع وهو علامة من علامات دوار البحر . ويتوفر لدىّ ميل للمقاومة ضد مضايقات البحر هذه فلم أشعر فى جسمى حتى الآن بهذه الأحوال الغريبة ، ولن أتحدث كثيرًا عن شىء لم أشعر به .

وأثناء طعام الغذاء كانت منضدة الطعام خالية ، إلا أنه كان يجلس أحيانًا خمسة أو ستة أشخاص . وخلال حديثه عن العاصفة تحدث عن المخاطر المحتملة الوقوع ، قال ربان القباطنة بلغة فرنسية رنانة :

الهواء طلق ، ومن الممكن أن يشتد فى كل وقت . اللوك والميقت والبوصلة منتظمة ، ونحن واثقون من مقاومة الماكينة ... تشق الباخرة طريقها فى البحر الواسع ، ولن يكون هناك أية مخاطرة مطلقًا حينما نضل طريقنا ؛ وعلى أية حال عندما تكتمل آلاتنا ، فيمكننا أن نثق من أننا لن نضل طريقنا .

ثم حكى أحد المسافرين :

أُحضر عدد كبير من العمال المالطيين من أجل استخدامهم في عمليات حفر قناة السويس ، وكان من بنود المقاولة أيضًا إرسال هؤلاء بعد الانتهاء من العمل حتى جزيرة مالطة ؛ وفتحت القنال ، واستؤجرت باخرة من أجل إرسال العمال إلى مالطة ، وركب العمال هذه الباخرة من الإسكندرية ، كانت السماء صافية ، والهواء ساكن والبحر راكد ، وسوف تصل الباخرة إلى مالطة في ثلاثة أيام ، وسوف يُنقل العمال ويرجعون في نفس اليوم ، وفي نهاية اليوم السادس سيصلون إلى الإسكندرية مر منها أسبوع ، ولم يظهر أثر للباخرة التي ذهبت إلى مالطة .

طلبت الوكالة معلومات من مالطة تلغرافيا فحصلت على الرد التالي : " لا توجد هنا أية معلومات عن باخرة مثل هذه " مرت خمسة عشر يومًا ، ولا يوجد أثر عن الباخرة ولا عن أخبارها حتى الآن ، ولا عن معلومات حولها ، وتم الإبراق إلى جميع موانئ البحر الأبيض تلغرافيا ، وسُئلت مارسيليا والجزائر وأزمير وإستانبول وبيروت عن أخبار حول السفينة ، فكانت الأجوبة التي ترد من كل جهة واحدة : "مجهول " ، حينئذ حكم كل شخص أن الباخرة قد اختفت وغرقت في الإسكندرية ، ويئس من العثور عليها إلاَّ أنه لم يستطع أي شخص أن يوضح طريقة وقوع الحادثة ، وتمر الأيام فتؤكد ظن كل شخص وتخمينه وتكسبه قوة ويزداد اليأس والفتور .

وبعد ثلاثة وثلاثين يومًا ظهرت ذات صباح حادثة محيرة في مرفأ الإسكندرية ، فقد عادت السفينة التي تقل عمال مالطة . هل تدرون بأية

صورة تم إحضار العمال المحمولين جميعًا إلى الخلف ! أسرع كل شخص إلى الباخرة ، وكان هناك حب فضول يخفق فى كل القلوب ، واستوضحوا القبطان ، فكان رده بسيطًا جداً ، حيث قال : " لا توجد مالطة ... " فضحك كل الموجودين على السفرة ... وشرح القبطان :

ممكن ... محتمل ، فهم قد شوشوا ملاحظاتهم وتخميناتهم ، فعندما يبدأ الخطأ فجأة حينئذ يصير التصحيح والإصلاح مشكلة قوية . ولا يُعرف أين هى السفينة ، فهم قد ذهبوا إلى النقطة التى اعتبروا أنها جزيرة مالطة طبقًا لحساباتهم أنفسهم . ويسبب خطأ حساباتهم ، وعندما لم يستطيعوا أن يجدوا الجزيرة فى النقطة التى بحثوا فيها ، قالوا " لا وجود لمالطة ، لا وجود لمالطة" ، ويحثوا ونقبوا وعادوا .. من يدرى ؟ ربما كانت بوصلتهم ، وربما كانت لوكهم مشوشًا وربما انضم إلى هذا أيضًا تغيم الهواء .

ثم سكت ، وبعد ذلك دارت حكايات عن العاصفة مرة أخرى أكثر رعبًا وإثارة . وعندما تركنا مائدة الطعام كان " لوكهم " مشحونة بخوف مثير .

تذمر رمزى بك :

أوف ، لهذه الحكايات المخيفة . ثم قال :

ومن أجل الدعوة إلى النسيان فلأنقل لكم مغامرة مثيرة مضحكة . فرجوناه نحن وشكرناه ، وبدأ هو يسرد تلك الحكاية المغامرة :

يدرك من يعرفنى إلى أى حد أنا محب للبحث والتقصى فى المؤلفات الأدبية وبينما كان يُثنى على مقدرة تلك المرأة الأدبية لدرجة

أننى تمنيت أن أرى أثراً أدبيا لها ، أو سطراً واحداً صغيراً مكتوبًا منها ، كنت أقيم فى ذلك الوقت فى مصيف ، وسببت تلك الإقامة المؤقتة علاقة جوار بينى وبين تلك المرأة ... ومع ذلك فإننى أستطيع أن أقسم أننى لم أرها مطلقًا ، فلم أكن قد تعرفت عليها على الإطلاق ، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت أمنية قراءة لهذه المجهولة تزداد باستمرار ، وفى النهاية هل تعلمون ماذا حدث ، ذات يوم كتبت شيئًا متضمنًا إظهار العشق ، ولكنها رسالة صادقة تقليدية مكونة من كلمات نارية . كتبت شيئًا مثيراً للضحك كثيراً إن عُرف ماهيته ، وأرسلته إليها ، ولم أستطع أن أتصور وسيلة غير هذه ، وكنت أقول لنفسى : " سترسل بلا شك رداً على هذا ... ولابد من أن يكون عنيفًا ، ولكنه على أية حال جواب ، أليس هذا هو ما يلزمنى ؟ " وكانت تكفى هذه المحاكمة ؛ كنت مبتهجًا أكثر من الآن وكنت أدلك يدىّ ، أخيراً سوف أرى أثرها وأدبها الممدوح لدرجة كبيرة . وكان هذا بالنسبة لى نجاحًا كافيًا . وكنت ألظ لسانى بقبل التذوق اللذيذة .

مر يوم واحد ولا رد ، ومر يومان ولا رد أيضًا ، وكان اليوم الثالث. العون يا ربى ! لا أحتمل أن أنسى ذلك اليوم ، وتلك الدقيقة ... فعندما ظهرت تجاهى خادمتها برسالة فى يدها – يالها – لكننى كنت مبتهجًا إلى حد كبير . يسبب حب الاستطلاع أحيانًا نسبة من الانفعال النفسى ، وكان حب استطلاعى وقلقى قد وصل إلى هذا الحد . أصدقكم القول بأن اليد التى مددتها من أجل أخذ الرسالة كانت ترتعش مثل ورقة خريف . ثم فتحتها بعين مرتعشة وعين متوترة ، ما الذى سوف أراه ؟ إما أن يكون رداً مليئًا برقة متدفقة بالعواطف ، أو ... أوه .

لا أريد حتى تخيل الافتراض الثانى ، فليس هو المقصود فى الأصل ، ثم بدأت القراءة ، وكانت الدهشة ! ماذا أرى ؟ ماذا أقرأ ؟ ينبغى أن تفتح عيناى ، كنت أضغط على شفتى كاتماً قهقهة عالية وأعض بهما وأحاول أن أخفيها ، آخ ، ينبغى أن تقرأوا معى حينئذ ذلك الخطاب لفهم ذلك التأثير ، ثم صمت لكى يزيد من حب استطلاعنا وقلقنا ، ثم استمر يحكى هذه الهزلية قائلاً :

انظروا ، يا أعزائى ، كان الخطاب عبارة عن ألقاب فى ثناياه مثل : روحى المضحية ، فمى البرعمى ، شجيرتى الطازجة الخضراء اليانعة ، حاجباى المقوسان ، لسانى المغرد ، زهرة حبى الزاهرة ، أرضى وسمائى ، حديقتى وبستانى ، شمعتى وشمعدانى ، فراشى ولحافى ، معزفتى ومرجلى ، حائطى وسقفى ... لا أدرى أكثر من ذلك ... يا له من هذيان .

وفى النهاية : مزيد من المحبة لسيدى ... هذه الألقاب عادية فضلاً عن كونها هزلية ، لكنها رسالة غرامية تافهة بدرجة يقشعر منها الشعور ، حيرتنى هذه القراءة ، رفعت بصرى ، شعرت بضرورة كتابة رد عندما نظرت إلى الخادمة التى أمامى وهى لم تزل تنتظر ، ماذا أستطيع أن أكتب لها تجاه هذه الرداءة المدهشة . ثم جاء لخاطرى فكتبت :

" كان كل هدفى منحصراً فى رؤية أسلوبكم المشهور ، أستميحكم عذراً لهذه الجرأة التى جعلتنى أختار حباً للأدب ، ورأيت من المناسب للعفة إعادة جوابكم مغلقاً . أرجو قبول معذرتى " .

لا أدرى كيف مررت منها . صادفت ذات يوم خادمتها وإحضارها ذلك الخطاب ، اقتحمت إلى جانبى ضاحكة بفتور ضحكة شبه وقحة وقالت :

" سيدى ، لقد أثر علينا عشقكم " ثم قصت بأسلوب قروى أناضولى كيف أن الخادمة فقدت الخطاب الذى سلمته إياها ، ولكى تؤكد على هذا الإهمال تعرفت على واحد من كتاب " يكى جامع " لأنها كانت قد خمنت أنها ستبحث عن أسباب الخطاب ، فالأعجوبة الأدبية الأخرى التى كانت تحضرها لى ليست لأدب تلك المرأة وإنما كانت أثر أحد أدباء ساحة " يكى جامع " .

ضحكنا وأضاف رمزى بك : ـ أليس غريبًا ؟ فاليوم ليست لى أية رغبة مطلقًا تجاه الأسلوب الأدبى لتلك المرأة . أعتقد أن التعبيرات الموجودة فى تلك الورقة عبارة عن مضحكات إنشائية . حدث هذا الاعتقاد مرة واحدة ، ولا أستطيع أن أغيره حينئذ . اعتقاد !

طن قوى غريب . تتدحرج الباخرة بين الأمواج ، تطن الحبال . كانت الرياح أحيانًا تعوى وأحيانًا تصرخ . صباح غد ، نعم ! سنكون فى الإسكندرية ، صباح غد .

الرسالة الخامسة

من الإسكندرية

كنا قد اقتربنا من ساحل أفريقيا حينما صعدت إلى سطح الباخرة " القاهرة " صباح اليوم الرابع من تحركنا من إستانبول . وفي الأصل المنطقة التي وصلنا إليها لم تكن مجهولة كلية بالنسبة لي ، فأنا لا أذهب إلى هناك مثلما ذهب "كرستوفر كولومبس" إلى أمريكا ، فلقد قرأت كتب الرحلات حولها ، ورأيت صورها الفوتوغرافية ، وسمعت الحكايات عنها ... كل هذه المسموعات والمشاهدات قد أعطتني فكرة عنها . ومع ذلك ليس الخبر كالعيان أو ليس من سمع كمن رأى ... وكنت أريد رؤيتها بعيني ذات مرة .

وقد هدأ البحر الذي يهزنا في حضنه منذ ثلاثين ساعة ، وقد سمح حينئذ للمسافرين الذين كانوا قد انكمشوا مضطربين في حجراتهم منذ يوم ونصف يوم بالحركة . وكان سطح الباخرة قد ضج بالوجوه التي قضت الساعات في قلق .

كان كل شخص يتوق موجهاً بصره إلى الساحل وهو نافذ الصبر ، تهب ريح جنوبية دافئة ملطفة الساحل . وكانت تداعب جميع الرءوس

المرهقة على سطح الباخرة ، وكانت الشمس تشرق مثل جذوة من النار مدورة داخل ضياء الأفق الذهبية ! ها هو الصباح ، صباح أفريقيا الصافي والربيعي .

اندفعت الباخرة تجاه الجنوب عمودية متعقبة دائرة عرضية ، وكانت كل الأنظار تحاول أن تستكشف أثراً للحياة على الساحل ، ثم تصايح الجميع بسرور مضطرب : ها هي ، كانت الأبدان تميل وتلتوى ، وتنام الرءوس على ناحية من أجل التخلص من متاعب الأشياء . كانت الأصابع تشير إلى البعد إلى نقطة ما : وقد تراءى فنار الإسكندرية على شكل شجيرة رقيقة باسقة .

كان الرومانيون القدماء يطلقون اسم " الساحل الأبيض " على الإسكندرية ، وفي الواقع كانت المدينة تبدو من البعد مثل خط أفقي منتظم في لون الرمل الأبيض ، وبعد قليل بدأت بعض الأشكال تتماوج داخل انعدام لون مبهم ، فقد بدت بعض أشجار النخيل تحت سماء باهتة اللون ، ولكنها رقيقة ولطيفة ، وعدد من طواحين الهواء غير واضحة وكأنها خيال .

كنت أقول لنفسي : هنا بحر المياه ، وهناك بحر الرمال ... والإسكندرية بين هذين البحرين جسر ذو حياة ... ثم تحمل خيالات التجوال روحي كلها فوق أجنحتها الذهبية ، وتجعلها تتجول وسط رحابة مليئة بالسراب بصمت متألق ، وتمر بين المياه المضيئة البراقة المرتعشة أمام الشمس داخل الصحراوات اللانهائية ؛ والسراب المهتز بتأثير الحرارة ، وأشجار الصفصاف التي تحرك جدائلها المبعثرة ، والبحيرات وأشجار الصنوبر .

فكنت أقوم برحلة خيالية بين حقيقة بخارية مضيئة ثم يمتلئ هذا العالم الصامت والمنير بالحوريات اللائى يظهرن فجأة فى حكايات ألف ليلة ، وكنت أعيش بضع دقائق داخل عالم السحر والذهب .

وقد أربكت نوبة رياح شديدة ، وهطول حبات مطر ثقيلة جميع المسافرين وقد تبللنا لمدة دقيقتين ، ثم دخلنا تحت سماء اليابسة مرة أخرى ، واقتربنا أكثر إلى المرفأ تماماً ، كانت الباخرة أمام جزيرة الفنار ، كانت هذه الجزيرة ترسم القوس الخارجى لدائرة المرسى ، والتى ربطت إلى الأرض لمدة ما بأطلال حجرية يطلق عليها (ايتا - ستاد) .

الآن ... هنا فى مدخل ميناء الإسكندرية أحاول أن أسترجع وأستعيد عقليا معلوماتى عن القطر المصرى فقد اهتم الكثيرون جداً من أدباء الشرق والغرب بتصوير هذا الإقليم المزدهر وبخاصة الفرنسيون منهم .

فقد ألف جرار دونرفال ، وتيوفيل جوتييه ، وأدمون آبو ، وبيير لوتى وهم من مشاهير أرباب المؤلفين الفرنسيين عنها كتباً لا تنسى ، ومع ذلك ، لم تستطع أى من هذه المؤلفات المعاصرة أن ترقى إلى مرتبة تلك الرسالة النادرة والتى لا مثال لها والتى خطها ببراعة حضرة عمرو بن العاص قبل ثلاثة عشر قرناً . وتنسب أيضاً إلى أدباء العرب ، وسوف نعود مرة أخرى لهذا البحث ، وتلك الرسالة النادرة التى لا مثيل لها .

على اليمين أطلال القصر الساحلى المحشور بين مجموعة من التباب الرملية وأشجار النخيل المنسوب إلى المرحوم سعيد باشا ، ويبدو

على اليسار شاطئ الرمل ، وهو المتنزه الصيفى للإسكندريين ، ويظهر بينهما أصل مدينة الإسكندرية ، ثم بعد ذلك بقليل دخلنا الميناء من بين الساحل وجزيرة الفنار وقد رسمتا قوس دائرة واسعة . توجد هنا عدة سفن شراعية واقفة ، وكأنما قد استندت على بعضها البعض ، وعدة أطقم من البواخر البريدية ، وسفينتان حربيتان ، إلاَّ أنه يمكن أن يكون مدخل هذا الميناء الصغير والجميل مستحقًا للانتقاد ، لأنه يقع جهة الساحل ومن الضرورى دخول السفن لهذا الموقع بصعوبة أثناء العاصفة .

وفى ناحية من الميناء توجد أبنية ضخمة وقيمة وبسيطة تُذكِر بمخازن الذخيرة للفراعنة القدماء ، ويوجد فى ناحية أخرى منه قسم من ساحل المدينة . حيث تتصارخ جلبة المطارق وأصوات المناشير وصرير البكر داخل امتزاج مبهم من السواد فينشأ عن الجميع أنين الحياة وغمغمات المعيشة .

فجأة سقط الهلب الحديدى لباخرتنا إلى قاع البحر محدثًا ضجة رعدية . وصارت جميع الأصداء الأخرى غير مسموعة لعدة ثوانٍ .

وفى النهاية وصلنا إلى الإسكندرية ، وسَبَّبَ هذا التوفيق ابتسامة ممنونة ظاهرة فى عيون جميع الأشخاص . لكن أليست هناك وسيلة تصل بواسطتها القوارب وزوارق التجديف إلى البر. اصبروا قليلاً ، الآن هم يعدون لكم مشهداً عجيبًا ولطيفًا ، ويعدون مسرحًا يشبه المشهد الثالث لأوبرا آفريكن .

نعم ، سوف تتدهشون فجأة ، ولقد أصبحنا نحن هكذا ، فجأة انطلقت من الساحل مئات الزوارق ، وجميعها مترع بالحمالين ،

والمترجمين ، والمرشدين ، وأصحاب الخان والمطاعم ، وأصحاب الفنادق ، ومجدفى الزوارق .. جميعهم داخل تلك الزوارق يتصارخون ويتصايحون بنداءات مدهشة مستحثة ، وجمع المجدفون كل طاقة أجسامهم القوية مع عضلاتهم ، وهم يسحبون زوارقهم تجاه باخرتنا وهم متوترون ومرتعشون فى مسابقة حميمة لنيل لقمة العيش ، اندهشنا حينذاك حيث كان سماع هذه الضجة الطبيعية لمعركة الحياة تسعد أعصابنا التى تكيفت مع حياة هادئة استمرت ثلاثة أيام . شوهد منظر هؤلاء الجياع الأرقاط – لأنهم كانوا يشكلون بألبستهم الملونة بكل الألوان التى تظهر حادة جداً للبصر - وهم يبذلون كل جهدهم العضلى ، ويصرخون ويهرعون من أجل التسابق فى اختطاف لقمة خبز شاهدوها فى جانب السفينة ، كنا نشاهد هذا التنوع فى الألوان بتعبير حزين .

وفى خلال دقيقة أو دقيقتين وصلت الزوارق إلى جانب الباخرة ، وهجم جميع من فى تلك الزوارق على الباخرة .

العون يا إلهى ! ياله من هجوم ! يا ترى هل كانوا نوعًا آخر غير القراصنة المتوحشين الذين تعرضوا لفاسكو دا جاما ؟ ! الآن تتسلق كثرة من البشر رشيقو الحركة والمهرة مثل القطط جدران الباخرة من كل جانب ، كانوا يثبون فوق بعضهم البعض ويصرخون ويتساقط بعضهم على بعض ، يعانق كل واحد منهم الشىء الذى تتناوله يداه ، كانوا يتماسكون بالسلالم وجوانب السفينة فوق سطحها العلوى والحبال الضخمة ، وحينما دخل هؤلاء الأشخاص وهم فى ألوان الزعفران والبرونز وبلون القهوة باللبن والشيكولاتة والكستنائى ، وحتى بلون المداد

الأسود إلى الباخرة ، وكانت جباههم مبللة وأنفاسهم منقطعة ، وكانوا مرهقين وضعافًا ، لكنه ليس لديهم وقت ليستريحوا فيه وليلتقطوا أنفاسهم ، فكانوا يدخلون حجرات السفينة ويخرجون ، يجذبون المسافرين من ملابسهم ، ويدفعونهم ويتشبثون بهم ، فيمسك أحدهم بشمسية السياح ، والثانى بالعصا ، والآخر بقبعته ، يلوكون بشفاههم اللغات الإيطالية ، والرومانية ، والفرنسية ، والإنجليزية ، والتركية ، والعربية ، يمدح أحدهم فنادقه ، والآخر زوارقه ، والثالث مطعمه ، وترجمته ، وكان أحدهم يتحدث كأنه يعرف أكثر من أى شخص المناطق المصرية ، ولأن أجداده مصريون ، فهو يقول أن نسبه يصل إلى الفراعنة القدماء . وكان الآخر يشرح أنه تعرف على جميع آثار مصر العتيقة مثل جيب معطفه ، بداية من اطلاعه على التاريخ القديم لها .

وبينما هم يتجولون بيننا كانت رائحة عرقهم العفنة تنتشر فيما بيننا ، كان الرجال المسافرون يحافظون على حقائبهم ، وتجمع السيدات تنوراتهن ، ثم يبدأ متاع المسافرين يتدحرج من السلالم . وذلك لأن الحمالين كانوا يرجون ويتوسلون إلى مسافرى الدرجة الأولى والثانية ، ويجبرون ويأمرون راغبى سطح السفينة ، وكانوا يسارعون بحمل فراشهم وصررهم ويسرعون الخطى وبدون أن يستمعوا إلى رأيهم ورغبتهم ، فيجبرون المسافرين على تتبعهم .

فقال واحد من الذين كانوا بالقرب منا : فى كل مكان يكون المسافرون فى الأمام والحمالون فى الخلف ، ولكن هنا يحدث عكس ذلك .

وسط هذا التشتت اخترنا مرشدنا المرفوض .. فهو مصرى أسمر ، طويل القامة ، متدثر ببرنس أبيض من أوله إلى آخره ، يبدو وقوراً إلى حد كبير ، وحاد النظر جداً ، وهو على هيئة أحد أعيان أباطرة روما القدماء . نزلنا من السلالم متعقبين مرشدنا الرزين ، ووصلنا إلى الشاطئ داخل زورق كبير لمراكبى ذى سترة زرقاء فضفاضة وعمامة بيضاء ، وصدرية صفراء ، وحذاء أصفر ، حيث فحصت دائرتى البوليس والجمرك هنا تذاكر المرور ، وفتشت الأمتعة ، حينئذ انتهت كل الإجراءات الرسمية .

قلنا لعربجى ذى أرجل طويلة سمراء عارية يصلصل بسوطه على ظهر زوجين ضعيفين من الخيول :

فندق بونار . وكانوا يوصوننا به لأنه مناسب لنا من جميع الوجوه . وفى الطريق كنت أعاين طبيعة المبانى المعمارية ، وأجناس الناس الذين يملأون الشوارع وأشكالهم . وإن دقق النظر فليس هناك ميزة طبيعية لهذه المدينة ، فيصادف فى نفس الشارع جامع شريف وكنيسة ومعبد قبطى ومعبد يهودى وأربع أو خمس زوايا للعبادة ، ويعقب ذلك منزل كبير قديم ذو مشربيات ونوافذ فى شارع كبير ، ومبان فى شارع حديث ، وشارع واسع ونظيف بجانب شارع ضيق وقذر ومظلم ، وهناك فى الشارع الواسع المجهز بمصابيح هواء الغاز النظيف يبيع مصرى الخضروات ، وعلى مقربة منه يمتهن آخر الخياطة على الطراز الأوروبى .

وعلى البعد يبيع هندى آثاراً نادرة ، وبالقرب منه فتح إنجليزى خمارة ، وبالقرب منه كوخ لكاتب عربى ، وفى المحل نفسه تباع الأحذية

والشباشب وكذلك المجوهرات ، إن بُحث عن سولفاتو فهو موجود ، وإن سئل عن قصة إميل زولا فإنها موجودة أيضاً .

الآن تصادفون امرأة ذات ملاءة سوداء ، وقد أمسكت بذراعيها السمراوين المحلاتين بالأساور الفضية بقُلّة خزفية كبيرة للماء ، وكانت تحملها فوق رأسها ، ثم تشاهدون ثلاثة مغاربة دراويش يسبحون تحت حائط ، ثم بعد ذلك تلتقون ببدويين يسيران بخطوات سريعة؛ وكان غطاء بدنهما كله عبارة عن جلباب أزرق فضفاض . كما يوجد بين هؤلاء سيدات أوروبيات متزينات ، وتوجد أيضاً الطرابيش العثمانية والعمامات والجاكتات والسترات الطويلة والقبعات على كل نوع وشكل ، وسوف يتحير الأفرنجي هنا وهو يظن أنه يصادف كرنفالاً عندما يعبر كوبري " قرة كوى " إلى حد أنه لن يظل هناك مجال للتخمين على الإطلاق .

أطلقت ذلك الحكم بمجرد أول ملاحظة : هنا لا هو غربي ولا شرقي ، ولا هو أوروبي كلية ، ولا أفريقي كلية ، هنا خليط ، وهو شيء وسط حيث يسترعي النظر إنسان يرتدي قبعة أسطوانية فوق جلباب فضفاض متسخ مقدمته ؛ أو شخص يثبت ثياب النوم البيضاء على البنطلون الأسود والقميص الأسود .

هناك عدم تناسق مضحك ، ولكنها ألوان وأشكال تستحق المشاهدة ، ولا تمل العين النظر إلى هذه المشاهدات على الإطلاق ، لأن المنظر يتغير باستمرار حيث يظن الإنسان عندما يتجول هنا أنه يلاعب نفسه أمام صبية ، لأنه في كل خطوة يجد حالاً أخرى ، وحياة متغيرة ، وعالم آخر متعدد .

وفى النهاية عبرنا من شارع وكأنه من شوارع مدن أوروبا الكبيرة ، حيث يشكل الأشخاص ذوى القمصان الطويلة البيضاء أو السترة الطويلة الزرقاء خاصية مميزة لهذا الشارع الكبير. انفتح على هذا الشارع الكبير ميدان كبير ، هنا المنشية ، وبعد خطوتين توقفت عربتنا أمام مبنى كبير معلق عليه لوحة أمام الباب " جراند أوتيل بونار " أى " فندق بونار الكبير " .

حينما دخلت الفندق ووُجدت داخل غرفة ثابتة ، أحسست بدوار خفيف فى رأسى وكأن هناك بحر هائج تحت الأرض التى أقف عليها ، وكان استمرار تأثير اهتزازات الباخرة الطويلة التى استمرت ما يقرب من ثلاثين ساعة يعرضنى إلى هذا الإحساس الكاذب .

الآن أحاول تذكر كل مشاهداتى ، مسوداً كل هذه الملاحظات السياحية وأنا فى غرفة تطل على البحر الأبيض ، تذكر ذلك الخلق ذوو المائة لون الذى يغلى تحت أشعة شمس الصباح القوية والمنعشة . أصوات ذلك العالم وألوانه .. تمر عبر ذاكرتى كل المشاهد الجديدة ، أبناء العرب الذين على هيئة مضحكة ، أعينهم مكتحلة بالسواد وطرابيشهم عجيبة وهى فى كبرها تشبه نصف جوزة الهند ، والعربجية ذوو الألبسة الطويلة الفضفاضة كل هذه المناظر الجديدة تمر من ذاكرتى .

ها قد حان وقت طعام الظهر ، وبعد الطعام نظمت برنامجى ، فسوف أتجول فى المدينة وأشاهدها طبقًا له ، وبسبب أن مدة إقامتى هنا يمكن أن تستمر ثلاثة أيام فقط ، فليس هناك متسع من الوقت لأضيعه على الإطلاق .

الرسالة السادسة

من الإسكندرية

تجولت اليوم فى المدينة حتى المساء ، وسوف أدون ما شاهدته وأنا فى إنهاك عضلى كبير ، فقد كانت كل مشاهداتى تستحق الكتابة طبقًا لتموجات الحياة المحيطة بها .

فجميع الخلق يتدفقون فى الشوارع ، ويسيرون مثل قافلة تجمع بين الشعوب ، حيث يتجول الأشخاص فى آلاف من الألوان والأشكال فى الأسواق التى تعج بأزيز الهوام الطائرة ، ويتقابلون وجهًا لوجه ، ومن أجل أن ثلاثة أرباعهم مصابون بأمراض فى عيونهم فهم يتصادمون ويتصارخون .... فى ناحية توجد الزخرفة والاستمتاع والانغماس فى الملذات بلمعان يخاتل الروح كثيراً ، وفى ناحية أخرى منظر الفقر والعوز يمزق القلوب كثيراً ، ها أنتم تشاهدون الآن متسولاً عارياً فتطلبون الشفقة له ، وهو يظهر لكم وقاراً هكذا فى أوضاعه وحركاته إلى الحد الذى يجعلكم تعتقدون أنه قد تزيا بهذا الزى من أجل التسول فقط ، هناك طبيعة محبة ودودة للأشياء التى تعبر عن شاعرية ظاهرية ، وكذلك للون خلق الإسكندرية وأشكالهم ، ومن يعيش تحت

سماء زرقاء اللون وتجاه أفق نارى ؛ ومن يتجول على ثرى متجانسة تعكس جميع ألوان الضياء ، إنسان يشاهد تفاصيل كل الأشكال داخل ضياء براق وعطاء هذا المحيط الرائع بلون ثياب متناسق ، ألا يحب أن يكون فنانًا ممثلاً يتلاءم مع هذا المسرح المتألق ؟ ولهذا السبب فإن الإسكندريين يعملون على إضفاء المزيد من الجمال والملاحة ، ومعروفون باستعمالها مهما يكن ؛ ففى منازل هذه البلدة ، وفى المحلات وفى الأسواق وفى الميادين تعد جميعها زينة شعرية ولكن لا يزال هذا التزين ظاهريًا جداً ، وشيئًا مصطنعًا ففقدت لذلك خصوصيتها المصرية تقريبًا ؛ فجميعها لم تستطع أن تبرز على الطراز الأوروبى ، فهى بذلك مثل النعامة لا هى أصبحت تشبه الجمل ، ولا هى ظلت كالطائر .

تقدمت تجاه قناة المحمودية وخطوت نحوها وشاهدتها ، فالهواء جميل جداً والسماء كلها براقة ! ها هو صبى عربى يستر جزءاً صغيراً من بدنه الصغير بسترة داخلية زرقاء واسعة متموجة ، وها هن الصبايا اللاتى أحطن معصمهن بأساور من الفضة المدورة ، والمثقوبة آذانهن والمزدانة بحلقات واسعة ، والمكتحلة أعينهن ، وها هو معمر مصرى ذو عمامة كبيرة وهو يسير متبختراً وقد جلس على مكان قريب من ذيل حمار صغير جداً يسير بخطوات ضيقة وقصيرة ، وها هم أصحاب الكيف وهم يقرقرون النارجيلة وقد وضعوا أرجلهم الواحدة على الأخرى أمام القهوة .

كل هذه الأشياء تختنق وسط الغبار المتصاعد من أرضية الشارع الترابى الضيق ، وفيه تقترب الأحذية الصفراء من البياض ، والعمامات البيضاء من السواد .

ثم تتداخل الذكريات التاريخية نتيجة لانطلاق الفكر الجبرى لهذه المشاهدات ، ألم تكن هذه البلدة المختلفة الحقائق التى تشكل اليوم مجمعًا متسعًا للمتناقضات أمام عينى ، هى أجمل مدينة فى الزمن القديم ؟

ألم تكن جميع الأمصار الموجودة فى ذلك الزمن تنظر إلى الإسكندرية بغبطة المنافسة ؟ ولم تكن تستطيع أرواح أعاظم أصحاب الفن والأدب أن تقاوم فى العصور المنسية ، على أمل تحريكها فى جو معتدل ، فصارت الإسكندرية دار قرار للفحول هؤلاء . أحضروا ذلك الماضى أمام أعينكم : ستجدون فى هذه المدينة فيضًا من المعارف . وعلاوة على ذلك تأملوا كيلو باترا فسوف ترون كل تلك الميادين قد انغمرت في ظلال عذبة تحت أجنحة خياليه لامرأة جميلة ، واستغرقت فى ذوق مكتوم وخفى ، وستجدونها تتميز بوقار يسلب القلب متولداً عن الحسن والجاذبية ، استمروا فى التذكر . يا للأسف ، تأتى فترة تسقط فيها ليلة من النسيان فوق هذه المدينة الرقيقة والمفيدة ، فجميع مكتباتها تغادر ساحة الحضارة ، وهى كتلة من رماد نار الجهل وتعصب اليسوعيين ، فالحمد لله أن هذا التشتت استمر فترة مؤقتة .

ويساعدها على ذلك أهمية موقعها الجغرافى ، وتتحرر الإسكندرية من ظلام النسيان مكافأة لعروس البحر الأبيض . حيث تبدأ هناك الجهود مرة أخرى والتجارة مرة ثانية ، والحياة من جديد .

وبدأت العربة التى ركبتها تتبع يمين ساحل قناة المحمودية وكما يُفهم من اسمها ، فقد افتتحت هذه القناة فى عهد حضرة السلطان

المغفور له المرحوم السلطان محمود خان ؛ جرى البحث فى ذلك الزمان عن معبر طبيعى للمحاصيل الداخلية لمصر ، وقد أُريد به ربط القاهرة بالإسكندرية ، وكانت قد افتتحت هذه القناة فى ظرف سنة بإنفاق ربع مليون قرش ، واليوم يعد ساحل القناة واحداً من أجمل متنزهات الإسكندريين .

تمر العربة وهى تسير تحت ظلال أشجار الأقاسيا " السنط " المعطرة اللطيفة على طول الساحل بأكمله ، تمر من أمام أشجار لا مثيل لها . ومصايف منقطعة النظير . فالحدائق مليئة بالأشجار التى تسلب العيون والتى قلما نراها مثل أشجار النخيل والموز والبرتقال والليمون والتين الشوكى ، وهناك أيضًا الأشجار التى تتدلى أغصانها إلى الارض وتطمر فى الأرض على شكل الصفصاف المستحى ، وتتجذر وتتخذ شكل شجرة من جديد ، وفى بعض الحدائق تتكاثف الأشجار إلى حد أنه لا تستطيع العين أن تنفذ إلى الجوانب الأخرى لها . هذا المكان هو عالم من الظل والخيال .

علاوة على ذلك ، انظروا إلى الساحل الآخر للناحية المقابلة ، ها هو قد ظهر فى مواجهتكم التناقض من جديد : هذا الساحل المفعم بالجمال والبهاء والثروة ، والساحل المقابل هو البداية الحقيقية لمصر . الخراب والهزال ... فقرى العرب الفقيرة فى تلك الناحية عبارة عن أكواخ طينية اصطفت بجوار بعضها البعض فوق أكوام السباخ .

وكذلك توجد أعشاب جافة متراكمة فوق مكعب ترابى ، " الغوث يا ربى " كيف يمكن المعيشة فى هذه المساكن البدائية ، بينما يغلى هذا

الإقليم بجميع العناصر الحارة الموجودة في شهرى يوليو وأغسطس . أمام تلك المساكن الحقيرة تنزل النساء أحياناً إلى شاطئ القناة وهن مصابات العيون ، وقد ارتدين جلاليب زرقاء طويلة ، ويملأن أباريقهن الخزفية بماء النيل ، وأحياناً أخرى يرحن أجسامهن تجاه حرارة شمس أفريقيا ، وبين تلك النساء يتسابق الأطفال العراة السمر سويا ، يحفر كلب - مريض متناثر وبر شعره - بأظافره الرمال تحته وهو يبحث في دفينة قمامة .

ثم أرسلوا أنظاركم التى أرهقتها لوحة الفقر هذه إلى الأمام أكثر ، حيث تخترق أعينكم صحراء زمردية تمتد حتى بحيرة ماره ئوتيس "مريوط" وسوف تسرى عن أرواحكم زرقة شفافة للقطعة السماوية التى توجد خلفها انظروا مرة واحدة إلى الطريق المتدفق بالتجارة ، بين هذين الشاطئين المتباينين ؛ توجد هناك روافع أثقال متعددة فوق القناة تتبع الإبل المقيدة بمساعدة الحبال الضخمة الغليظة ، حيث تطأ ذات الأقدام الأربعة هذه الساحل المقابل مع اهتزاز رءوس السياس المتوكلين .

في معظم الأوقات تتماوج هنا حداءات أصحاب الإبل المستحثة في هواء متناغم ، ثم صمت من جديد ، ويعود صمت عميق .

الآن ، أطلقوا طابوراً من الطيور أحياناً لتمر فوق كل هذا العالم الجديد ، هكذا تمت قناة المحمودية . هل تريدون المرور على الساحل المقوس قليلاً والتجوال هناك قليلاً ؟ ألستم تريدون رؤية تلك التلال الحلدية ؟

إلاَّ أن النظر من خلال باب كوخ ما كافٍ لشعوركم بالندم ، إذ إنه سرعان ما تستقبلكم رائحة كريهة تشتد مع تأثير الحرارة الملتهبة ،

سوف ترون بعد ذلك العُرى والفقر والجوع والمرض والعمى وداء الفيل . والجذام ، وسوف ترون جميع أسباب هذه الكوارث والمصائب .

حينئذ أديروا رءوسكم ، وقولوا للعربجى ' عد بنا ' ، وسوف يصادفكم هذه المرة فى الطريق شارع واسع مرصوف بأحجار كبيرة مربعة ، وجميع المبانى على جانبيه مبنية على أسس أوروبية وهى عالية وقوية وفخمة .

هذا الطريق ينقلكم إلى ميدان المنشية داخل حى أوروبى ، ومن السهل جداً مشاهدة الميناء القديم ، وهو على شكل قطع زائد ، وكذلك النزول إلى الشاطئ من هناك .

اليوم لن تستطيعوا أن تشاهدوا أحداً على شاطئ هذه المرسة المهجورة سوى بضع أطفال يلعبون بالقشريات المحارية . ومجموعة أو اثنتين من فرق الأمن تؤدى نوبة المساء ، وبضع سيدات عجائز خرجن للمشاهدة وهن يؤدين تعليمات السير . لكن فى مقابل هذه العزلة والصمت فإن البحر تجاهكم ، هناك البحر الذى يتأرجح بغرور دائماً وبعذوبة مستمرة .

يصمت كل شىء فيما عدا موجاته ، انصتوا هنا دقيقة واحدة لاستبيان نغمة الموجات ثم فكروا فى أن أحد عجائب الدنيا السبع - فنار الإسكندرية - يشكل حداً لهذا الخليج الصغير الجميل الذى تواجهتم تجاهه ، إلا أنه لم يبق تذكار الآن من تلك التحفة النادرة سوى مكان حجرى يزبد فيه نوبات من أمواج البحر الأبيض

كنت أبحث هناك فوق ذلك الشاطئ المنعزل عن الحال الماضى للإسكندرية من خلال رسالة تاريخية صغيرة : كانت هناك منطقتان

كبيرتان فى شرق تلك المدينة الشابة النابضة بالحياة ، وغربها ، وهما اليوم مطموريتان ومدفونتان تحت ركام الرمال . وكان يطلق اسم "راخوتيس " على الحى الواقع جهة الغرب ، وكان هذا الحى يمتد حتى البحيرة من شاطئ مرفأ " أونوست " وبداخل " راخوتيس " يوجد المعبد المشهور " سرابيس " الذى خرب بأمر من الإمبراطور " تيودور " ، وبجانب هذا المعبد المشهور كانت توجد المكتبة المعروفة التى أهداها "مارك أنطوان " لكليو باترا .

وكان اسم الحى ناحية الشرق " ويهبون " ولم يبق من هذا الحى تذكار اليوم سوى عمودين حجريين فى فرنسا وإنجلترا . ماذا كانت هذه الأعمدة ؟ هى أعمدة الفخر التى يطلق عليها " مسلات كليو باترا " الجزء الذى رسمه الإسكندر الأكبر شخصيا .

بقى اليوم فى الإسكندرية أشياء قليلة جدا من الزمان القديم ، وأهمها عمود " بومبه " الذى نقله الرومانيون داخل مصر . وقد انتهيت إلى رأى منفرد ومستقل من أجل رؤية هذا العمود الشهير : وهو أنه من الضرورى إيجاد عربة مرة أخرى ، لأننى لا أعرف المدينة ولا لهجتها .. هكذا لا يستطيع المرشد الحقيقى أن يجد فى الطريق أى عربجى ، وبعد عدة دقائق من صلصلة سوط هذا المرشد الذى كان رحيماً جدا بالفرس ، وصلت أمام عمود " بومبه " ، لماذا سمى بهذا الاسم ؟

غير معروف ، العون ياربى ، لقد صار هذا الموقع الذى كان مدرسة للفلاسفة فى وقت ما ، صار اليوم وقفًا على خدمة كريهة ومشمئزة جدا ومنحطة إلى حد كبير ، ليس هنا مكان لعمود منتصب يمكن أن يشاهد ، حزنت لتعبى .

عدت إلى فندق بونار آسفًا ، كانت روحي مشحونة بإحساس من الغثيان ، فقد كان منظر عمود بومبة الكريه قد أحزنني كثيراً ، ولم أستطع أن أفسر لنفسي أيضًا كيف تم دفن الهالكين في مصر من جيش نابليون هنا على وجه الخصوص ؟ في الواقع يمكن أن يكون هذا العامود جديراً بالزيارة بالنسبة لمحبي الآثار العتيقة ، لأن ذلك الإنسان يمكن أن يتلذذ من تعلم ودراسة أن هذا العامود ارتفاعه بشكل عام مائة وأربعة عشر قدماً ، وأن أصله يشكل قطعة حجرية واحدة طولها تسعون قدماً ، وقطرها تسعة أقدام ، ومن المحتمل جدا أنه صار من أنقاض معبد سرابس ، ويمكن أن يتعلم مثل هذا الكثير من التفاصيل التاريخية والهندسية . لكن الذين يرغبون في القيام بجولة للتنزه في البلاد المشهورة التي يصادفونها أثناء الطريق ، يفرحون إلى حد ما ، أما أنا فلم أكن سعيدا على الإطلاق .

حينما عدت كانت الساعة قد بلغت منتصف ما بعد الغروب وكان مقياس درجة حرارة الفندق يبلغ " ١٧° " ، ويهب الهواء لطيفًا جدا في النصف الأخير من يناير وتبلغ درجة الحرارة " ١٧° " ، تناولنا طعام عشاء جميل جدا سويا مع عشرة أو اثنى عشر شخصاً في الفندق .

الآن أدون تلك الذكريات أمام نافذة مفتوحة للغرفة التي تطل على البحر ، وأمامي ليلة أفريقية جميلة .

الرسالة السابعة

من الإسكندرية

اليوم الثانى

كان مقرراً القيام بجولة بين مصايف الرمل اليوم بعد الظهر . لكننى كنت أريد أن أحسن التصرف فى تقسيم أوقاتى حتى الظهر .

سألت المدام صاحبة الفندق :

يا مدام ، أين الأماكن التى يمكن أن يتم اختيارها كأماكن بها آثار عتيقة وتستحق المشاهدة هنا ؟

رسمت شفتى المرأة العليطة ابتسامة وقالت باستخفاف

سؤال سمعته ربما للمرة المائة ألف ... لكننى دائماً أجيب الإجابة نفسها ، هنا ليست مدينة خربة ، بل مدينة معمورة نوية ، ينبغى ألاّ يبحث هنا عن الأنقاض المعمارية ، والمهجورات الحجرية ، وإن كان ضروريا إخفاء ذكرى الماضى لبلدة ما تماماً ، فإن تاريخ الإسكندرية هو تاريخ مشرق حقا ، ومبانيها فى الشوارع والميادين وليست فى صفحات

الكتاب ، هل كانت سيرة حياة بطليموس لا قيمة لها بدون الأحجار المحفورة ؟

مدام بونار من تلك السيدات اللائى يجبن على ألف سؤال ببيان سهل يستحق الدهشة. ركزت المدام ببصرها على عينى ، كانت تستشف تأثير كلامها ثم بدأت الكلام مرة أخرى : " هنا يجب أن تتجول فى الشوارع المنتظمة والميادين الجميلة ، وينبغى أن تنزل إلى الشاطئ ، وعدم المكوث تحت تأثير هواء البحر الأبيض المنعش ، وعندما تشعر أن ساقيك المتعبتين بلذة قد انثنتا، ينبغى أن تدخل غرفتك ، ومن الضرورى أن تقرأ التاريخ المفيد لهذه البلدة القديمة . انظر يا سيدى كان التاريخ علمًا لم أكن أحبه كثيرًا ، فلقد قرأت تاريخ مصر وأنا مجبرة النفس بسبب نصيحة صديقة عزيزة علىّ ، وصرت الآن لا أستطيع أن أترك من يدى كتب التاريخ ، لدرجة أن ينفذ إلى أحلامى آمونيوس ، وبلون . آه يا سيدى ! فالتاريخ علم ساحر وجذاب جداً .

قررت القيام بجولة صغيرة للتنزه حتى يحين وقت طعام الغذاء .

فندق بونار جدير بالتزكية من كل الوجوه ، إلاَّ أنه توجد مشكلة : وهى أن الشارع الذى صار مدار كلام ، هناك على طرفى هذا الطريق الواسع تمامًا خمارة ، وتدعو السيدات الشابات اللائى يخدمن فى هذه الخمارة الغادى والرائح كل واحد بلغته ، وليس بقليل من يستجيب لهن من الرجال السذج ، وهؤلاء السيدات الوقحات لم تقتنعن بدعواتهن الشفهية فقط ، وإنما يمسكن أذرعكم فى وقاحة ، ويجذبونكم إلى الداخل ، ويوصلونكم إلى درجاتهن .

وإذا ذهبت إلى الإسكندرية ونزلت فى فندق بونار ، فإنى أنصحك ألا تتجه للخروج من باب الفندق ، وألاً تميل لليمين أو الشمال ، بل اخرج من وسط الطريق ، وإن وصلت إلى ميدان المنشية سوف تسمع من كل لسان : " تعال هنا " .

ويوجد فى ميدان المنشية المقاهى ، والحديقة ، والمعبد ، والمبانى الضخمة ، والمحلات الكبيرة .. هناك فى شارع بربارس كل شىء يُرى ، إلاَّ أن ما يفرق هنا عن أوروبا أناس مختلفو الألوان ، وكثيرو الضوضاء جدا .

اشغلوا أحد الكراسى الموجودة على أرصفة المشاة لمقهى ما هنا، فيضان متدفق من الألوان والأصوات ، وسوف يعجبكم قوة الحياة إلى هذا الحد داخل مدينة من الدرجة الثانية . وسوف تحيركم العربات المارة مثل الرياح ، والسياط التى تتلوى مثل البرق .

لكن اعلموا أن الإسكندرية سياسيا تعد بالنسبة للقاهرة مركز الإقليم المصرى بكل الاعتبارات السائدة الأخرى ، إلا أنه توجد حركة ونشاط لثلاثة ملايين شخص فى هذه المدينة التى يبلغ عدد سكانها ثلاثمائة ألف نسمة فحسب .

ويسبب هذه التجارة تزدحم الشوارع هنا يوميا ، وهى تمتد وتطول على خط مستقيم وتتفرع وتمتلئ المحلات التى تزين الشوارع بحياة البيع والشراء " والأخذ والعطاء " دائمًا ، وجميع حركات الاستيراد والتصدير للإقليم المصرى دائمًا تنبع من هذا الطريق ،

فرعوس الحلق الذى تتدفق من جميع هذه الشوارع مليئة بحساب الربح والخسارة وبالذكاء التجارى ، ويستقضى هنا فى هذه المدينة حركة تسويق جميع بضائع العالم ، وتسبب أقل حركة فى البورصة رد فعل فى قلوب الناس بهم جميعًا رفيعو المقام ، إلا أن هناك نقطة سيئة ألا وهى أن جميع أصحاب هذه التجارة من الأجانب بنسبة تصل إلى ٩٩ ٪ ، فجميع المحلات التى تجذب الابصار مليئة بالأجانب القادمين من أوروبا وآسيا وأمريكا .

والواقع أن الوظائف الدونية التسيسة ظلت مقصورة على السواد الأعظم من شعب مصر أمثال العربجية والعتالة .

قال ذكى مصرى ، ملمحاً لهذا الوضع بلا شك :

كلما تصاب مدينتنا بالداء نفتقر نحن ، ممدينتنا تخدعنا غالبًا ، ومهما يكن ، فإن منظر هؤلاء الناس ، المتعددى الألوان والذين يفورون تحت أشعة الشمس المعتدلة يسلى الروح . هناك كل الألوان بل وتوجد كل الألوان أحيانًا فى شخص واحد . وهناك شىء غريب وهو أنه يغلب اللون الأصفر بعد الأبيض والأزرق : فلم يمل هذا الخلق بعد من الخريف الباهت الذى يغطى النقار وتلك الصحارى اللانهائية .

أنتم تتعرفون على الهنيات القبطيات اللاتى يمررن أحيانًا ، من أساورهن الغليظة والثقيلة التى يتزين بها فى معاصمهن وسيقانهن ، ومن براقعهن السوداء المتدنية فوق أنوفهن ببكرة صفراء ، ومن ثيابهن الزرقاء الخارجية ، ثم إن الشىء الجميل الذى يلى ذلك هو أن نساء الإسكندرية الحسناوات ينقشن الصورة ويطلينها .

يمر الوقت سريعاً جدا خلال هذه الجولة العابرة ، فلقد حان موعد العودة إلى الفندق لتناول طعام الغذاء .

تقطع العربة الشوارع بسرعة جنونية ، فيتفرق الناس ، ويسيرون وهم يتصادمون بكتف أحدهم وبشمسية الآخر ، وصوت السياط تصلصل دائماً فتركض الخيول المتحررة من العقال . وكنت أترقب النتيجة مرتبكًا داخل هذه العربة المتهورة . كان اسم هذا الطائر المجنون " الذهاب إلى المنتزه " ، وكانت المبانى التى نمر من أمامها غالبًا ما تدور . وكنت أقول لنفسى :

" ما الذى نحن فيه ؟ " ولم أستطع أن أفهم سبب هذه السرعة . بينما لم يكن هناك شىء فى النية سوى التجول بين مصايف الرمل .

الآن ، تصهل الخيول ، وقد أصابها بلل العرق ، وكانت قد انتهت حدة سوط العربجى ، غادرنا المدينة ، ودخلنا طريقا طويلاً ومستقيماً ذا أشجار على جانبيه ، كان الطريق طويلاً ومعزلاً ولكن يبدو مغرياً لمغرمى ركوب الدراجات من الأجانب ، كان هناك بدوى يتعقب حماراً محملاً بقصب السكر ومدام مغرور ترجع بعربتها ابطيئة ، ولم تكن تستطيع أن ترضى عيوناً متطفلة لشاب ذى طربوش يبدو من قبضته على اللجام أنه لم يكن فارساً متمكنًا .

كنت أستشعر فى قلبى شعوراً يستعجل مرور ذلك الطريق اللانهائى لرؤية حدائق المصايف التى سمعت عن ثناء حسنها الكثير ، ولكن الخيول أصابها التعب حينذاك وعرقت ، وضعفت تماماً وكانت

السماء صافية ، وكأنها مجلاة بزجاجة براقة . وكأن أوراق نخيل البلح العريضة تزيل جميع السحب .

امتد الطريق مرة أخرى ، وامتد ، واستطاع أن ينفذ فى النهاية بين المصايف ، لماذا انفصلت عن الإحساس بأى شخص هنا ؟ لماذا لم أستطع أن أجد الجمال الذى يجده أى شخص فى ذلك المنظر المزين لتلك الحدائق الواسعة ؟ هناك كثرة من الأشجار المنتصبة والمغروسة بدقة هندسية ، والمتناظرة والمتقابلة ، وأحياناً المتوازية ، وأحياناً دائرية ؛ وبين هذه الأكوام توجد الأزهار الجميلة النادرة الوردية والصفراء والزرقاء والحمراء والمنتشرة بحساب فنى معتمد على دراسة علم الضوء ، وهناك التعريشات المعطرة والمظلات المنسقة بأغصان الورد الأصفر والأحمر .. أما الطرق فهى هادئة ومحددة بنخيل البلح والباؤياب والأقاسيا .

وتترقرق الأحواض المرمرية والنافورات البهيجة مع نفسها مثلما يتناغى طفل بنغمات مداعبة للروح ، وأيضاً الأغصان الخضراء والمزهرة .. ثم الطيور التى تدغدغ كل هذا بنغمة الحياة ، والطيور المتألقة الملونة والخالبة للنظر ؛ وطيور الأقاليم الحارة ... أشياء لطيفة جدا ... هناك أشياء لطيفة جدا جدا .

كل هذا كان يظلل مبنى مشرشر ومدور ومزين وكأنه دمية أطفال ، ونقوش فى قاع هذه الأشياء المزينة للنظر . كان هناك ذوق وفن متكامل ، ولم تكن أبداً هى الطبيعة وحدها . والحقيقة أنهم قد قطعوا الأشجار لتسويتها ، وكسروها وصغروها وشذبوها ومزجوا ألوانها كما شاءوا ، وأضافوا شكلاً هندسيا للأغصان . زرعوا الطبيعة وجدلوها ووضعوها

بشكل جبري ، وكانوا يبنون شيئًا منقوشاً طويلاً ناسوريا مثل " قلعة بائع الحلوى " بين هذه الأشياء الطبيعية المنسابة تحت هذه الموازنة الرياضية ، وكان توز عشيديه يشبه نوق طفل مشاغب غالباً .

كل ذلك كان مزيناً جنباً إلى جنب ، ومزخرفاً وجهًا لوجه ، كنا نمر بالقصور الواحد تلو الآخر ، نسير ونمضى ، ودائماً ما يبدو ذلك المظهر الثرى ودائما ما تبرز تلك الزينة المتنافسة .

وتذكرنى مصايف الرملة بالمروج فى الربيع على أنغام أوبرا روميو وجولييت ، وكانت قد ابتعدت إلى حد كبير عن الحقيقة والطبيعة ، ويبدو لى انه لا يمكن الحياة بشعور صادق داخل هذا العالم المصطنع .

الحمد لله أن مهندسى تلك الحدائق لم يعيروا اهتماماً بتغيير رائحة الزهور عشقًا فى حب الكيمياء ، فكانت الرائحة هى الشىء الطبيعى هنا فقط ، وصلنا حتى ساحل البحر مستنشقين نسمات هواء معطر منعش ، لم تكن فى منطقة الرمل الآن ، بل يطلق على هذا المكان اسم " سان استيفانو " ، ويوجد هنا كازينو وبلاج جميل وحمامات البحر الصغيرة .

وحينما رأيت البحر شعرت بدلاله الخالد على شكل نغمات خرير أمواجه المتذمرة ، قلت لنفسى : هاهى الطبيعة .... جميلة ، الطبيعة " الطروب " وكانت الأمواج التى تزيد على الشاطئ تنثر على روحى رذاذات منعشة ، وكأنها تغسل روحى المرهقة من مبالغة الزينة بين حدائق الرمل .

حينما عدت كان المساء قد حل حينذاك ، وقد نظمت مصابيح الهواء خطوطًا مضيئة فى الشوارع ؛ وضاعت الألوان داخل بخار سنجابى

اللون ، وأوصدت الأبواب ، إلا أن المقاهى والحانات ظلت مفتوحة ؛ وكانت أكثر الأماكن صخباً وهلاكاً ، كان الرجال المتأخرون يعودون إلى منازلهم بخطوات سريعة ، الآن يعقب ضجيج النهار سكون خامد ، كنا سوف نقضى ليلتنا مع رفيق طريقى العزيز حسين بك لنشاهد سويا شيئًا مفيداً ، كنا سنرى راقصات مصر ، نحن نعلم أنهن يتمتعن بسمة خاصة ، تلك حورية الشوق والاهتزاز التى تترك الفراعنة القدماء وقد أصيبوا بإغماء السعادة .

الآن سوف نراها بعد الطعام ، وكانت هذه الفكرة تحثنا بالعجلة خلال طعام العشاء . ألم نكن قد قرأنا القصيدة المشهورة عن هؤلاء الراقصات فى جميع الكتب القديمة ؟ ألم يكن ذلك قد طبع فى خيالنا كجمال متموج ؟ الآن سوف نحيط بجميع مهاراتهن وجمالهن بعيوننا المتأملة ، وسوف نرى تجاهنا الراقصات المفعمات بالحياة ، وكان خيالاً جميلاً . طالما كان يراود أذهاننا قديمًا .... وكأننا قد شبعنا بهذا الخيال قبل أن نتناول الطعام .

ولن أنسى أننا تناولنا طعام العشاء بسرعة متناهية ، ثم خرجنا إلى الشارع ، كان هواء الليل المعتم يرشف كل شىء جميعه إلا أن شعلة غاز الوقود الأصفر تبدو فى كل مكان ، وكأن كل واحدة منها نقطة منيرة . فتحت أبواب مقاهى الغناء ، وبدأت أصوات الموسيقى ، وفى عدة دقائق قطعنا الشوارع الكبيرة مباشرة حينذاك ساد الظلامُ الطرقَ ، وتنحنى وتنقطع أصوات الأقدام تماماً .

وكنت قد تماسكت بذراع صديقى يداً بيد لئلا نقع فى هذه الشوارع المنعزلة والمنعطفة المظلمة والمسدودة والضيقة ، تتسرب عن الحوائط رائحة كريهة مقززة ، يتجول فى الشوارع هواء بارد عفن لولبى ، وينعكس فى معظم الأحيان صوت من منزل إلى آخر . ومن حائط إلى آخر ، وكأنه كان يتجول بين جميع تلك الشوارع الموحشة ، والمدينة بأسرها : كان هذا الصوت هو شعار الحراس الذين ينامون أمام الأبواب داخل صناديق بيضاء كبيرة كل على حدة ، كانوا يريدون أن يوضحوا بهذا الصوت أنهم لم يناموا .

قال حسين بك :

هل تدرى ما الذى ظنه سائح أجنبى عن هذه الأصوات ؟

قلت :

ماذا ظن ؟

شرح حسين بك :

ظن أنها أصوات المؤذن ... ثم قال فى مذكرته عن الرحلة : "لم أر شعبًا تقيا مثل الشعب المصرى ، فالمؤذنون الذين يملأون نسيم الهواء بأصوات التكبير بالنهار وحتى بالمساء فى المنارات قد انشغلوا بالتهليل والعبادة أمام الأبواب فى ليلهم حتى الصباح ، وهم داخل صناديق بيضاء" .

قلت أنا .

ممكن ، فلكل شخص رؤيته الخاصة ، وإدراكه الخاص ، كان هذا الطريق يزداد صعوبة تدريجيا ، فلم يكن قد انتهى حتى الآن . بينما مال حسين بك بشدة وقال :

بقى قليل ، كنت أتدحرج .

أجبت :

ليس هناك ضرر ، فكما يقول يوليوس قيصر " هاهى أفريقيا الآن فى قبضتى " .

واستوضح هو ، فشرحت :

بعد أن استولى " يوليوس قيصر " على مصر ، جاء ذات مرة إلى الإسكندرية من روما ، وبينما كان يصعد على السلم انزلقت قدماه ، فسقط ، ثم قال للمجتمعين من حوله فى أثناء نهوضه من الأرض : ها هى الآن أفريقيا فى قبضتى " . حينذاك كنا نطأ الشوارع ، وقد وصلنا إلى جهة ملوثة لم تكن مكاناً نظيفاً ، وكان هذا هو الحى الذى توجد فيه منازل الراقصات ، أى " جنين " ، وقد فهمنا وأدركنا أننا قد خدعنا فى خيالنا ، فلم تكن الراقصات من حور الشوق والاهتزاز كما كنا نظن على الإطلاق .

ومع ذلك فقد ساقتنا غريزة حب الفضول مرة أخرى ، كانت طاقة حزينة مكونة من أنوار غائمة لشموع منصهرة فى فوانيس زجاجية صغيرة ، كانت تظهر مدخل منزل الراقصات .

وكان يوجد شخص بدين تنتشر رائحة الكحول من فمه تشبه بخار رائحة البترول ، وكان يتعاطى الخمر وقد ملأ نصف الباب وهو يقول : قرشان ، قرشان . ومهما تكن درجة إجادتكم للغة العربية فلن تستطيعوا فهم معنى هذا المتعاطى للخمر . نحن فهمنا ، لأننا كنا نعلم أن القرشين

الدخول .... فسلمته أنا وصديقى أربعة قروش مصرية ، ودخلنا ، العون يا ربى ! يا له من منظر قذر ، فهناك سلاسل ـ حوالى خمسون ـ تتدلى من سقف خشبى يسيل بداخله شحم عتيق ، وكانت مصابيح البترول التى تهتز على جانبيه تنشر نوراً أصفر عفنًا على رءوس الحاضرين ، ولم يكن يليق بالحاضرين ضياء النهار فهناك واحد أو اثنين من القبعات المشحونة ، وعدة رءوس عارية بسبب الظلام . بين عدة قبعات مرصوصة فى خطوط مستقيمة ، فكان الحاضرون هم هؤلاء " أقداح ، وفناجين ، وخراطيم النارجيلة ، ومباسم قصبات الغليون ، ومداعبات سمجة تؤدى بحروف هجائية خيشومية ، وضحكات وقحة مع غرغرة النارجيلة التى تؤثر على الأعصاب ، وضجيج الزجاجات الغازية التى تنفجر بين الحين والآخر ، والهمسات المشوشة ، تنافر أصوات مخيفة ، ودخان خانق ، والكحول ، والتبغ ، والقرفة ، والكمون ، واليانسون ، والعرق .... " .

ولا أدرى حتى الآن كيف تملأ الروائح هذا البيت ، كل الرءوس فارغة ، مترقبة لبدء الرقص والانسجام . وإلى الخلف وقف المطربون السمر ، ذوى العمامات الحريرية الرقيقة ، وقد ارتدوا جلابيبًا من القماش اللامع واصطفوا واحداً تلو الآخر فوق خشبه عالية تجاه الحاضرين ، ويدأ الشاب فى هز أوتار العود ، حينذاك صمت كل الحاضرين ، وانفتحت كل الأفواه ، وتهيأ كل شخص لاستماع مستغرق ؛ إلا أنه كانت تفتح زجاجات غازية بين اللحظة والأخرى ، وتقرقر نارجيلة ، ثم يمتزج الدف والعود ، وكل الآلات الموسيقية مع العود ، ويدأ جميع المطربين فى الصياح بصوت أجش ، كانت كلمات هذه الأغنية

باللغة العربية ، ولحنها عربي ، ولكنها كانت على الأرجح محزنة جدا ، لأن آهات طويلة كانت تصعد عميقة من جميع الصدور بين الحين والآخر ، وكان كل واحد من الذين تجشأوا هذا الحرف الندائي يبدو حزيناً ملء البطن ، ثم بعد ذلك هناك شيء ما ، انطلقت صلصلة نحاسية ، هذه المرة كانت الآنة تدوي في كل المسرح ، وظهرت الراقصة ، امرأة قذرة بدينة وقبيحة وحركتها بطيئة ، أوضاعها فاترة ، دلالها يسبب الغثيان . أوف ! يالها من إنسانة قذرة ! إنها تسحق جميع عضلاتها تحت تقلصات جبرية ، تهيئ لبطنها أحياناً القيام بزلزلة جلدية ، وأحياناً التواء خلاف الطبيعة ، وأحياناً أخرى رعشة غليان . تتقلص وتلتوي وتأخذ شكل مريضة مصابة بألم في بطنها ، وتثنّي نار بخور كثيف جدا ، عيناها المكحلتان وشفتاها الزرقاوتان .... نعم شفتاها المصبوغتان باللون الأزرق ، في ابتسامة مصطنعة .... في يديها صناجتان ، ترتعش قدماها برقصة كريهة ، تصوروا : امرأة بلا حجاب تترك جلد بطنها الكبير الأسمر مكشوفًا للهواء ، صدرها كله مثل سحارة القرون الوسطى ، مغطى بتعليقات مكونة من أشياء غير متناسقة ومصبوغة من معادن الأرض الصفراء والمموهة بالذهب .

وإن كنتم تريدون إكمال اللوحة ، انظروا إلى هذه المرأة المشمئزة وهي تحاول التمارض وأداء دور صرعة الشهوة ، والذين ينظرون إلى هذه اللوحة المثيرة للغثيان ، لم يشاركوا إحساساتكم على الإطلاق ، فهم يتذوقونها ، ويصفقون لها بآهة طويلة عميقة ، ويتأوهون .

قلت لحسين بك :

شيء عجيب . لكل بلد أسلوبه في الاستحسان ، وطريقته في الثناء والمدح فهم هنا يتأوهون ... ضحك .

هكذا ، فكيف يتم الترحيب بالشفاه الزرقاء ؟ ... بالأنين ! حينذاك كانت الآهات تزداد ، ويرتفع صوت رنين صاجاتها بصورة لا تطاق ، وتتكشف بطن الراقصة تدريجيا . مال صديقي إلى أذني قائلاً :

فلنخرج .

كنت أنتظر هذا الاقتراح ، وخرجنا ، وكان يخنقنا هذا الهواء القذر ، والرذيلة الفاضحة .

الرسالة الثامنة

من القاهرة

تشكل الحقائب والصناديق والبالات التى بداخل فناء كبير نصف مضيء أهرامات غير منتظمة جدا ، تتخضل شعور الحمالين المجعدة تحت الأحمال الثقيلة ، تتأوه أنفاسهم ، وتحمر أعينهم داخل دماء الصبر والتحمل ، ينحنى المترجمون أمام السيدات السائحات برقة بلهاء وسخيفة ، وكن يودعن المرشدين محركات قبعاتهن المذهبة التى فى أيديهن ، يخرج الموظفون السمر والنحفاء من غرفة وهم متوترون ، ويجيبون إجابة قصيرة مقتضبة ، وهم يتثاءبون ، على استيضاح سائح ، وهم ينفذون إلى الغرفة الأخرى ويدلكون أعينهم المتعبة من النظر فى الدفاتر .

ويسابق المسافرون الآخرون من طاقة خوفًا من التأخر ، وهم يضعون على صدورهم حزامين على شكل تقاطعي : حزام الحقيبة القريبة مع حزام الحقيبة البعيدة . كانوا يقولون للحمالين : انتبه .... ، وللآخر : بهدوء ... كانت هذه الساحة الكبيرة تضج بحركة هائجة . هنا هو غار الإسكندرية ، نعم ، كنت أغادر الإسكندرية وقلبى يشعر بألم

الفراق بعد تجول يومين واستراحة يوم واحد ، كان الزحام المضطرب في تلك الساحة من الفناء نصف المضيء يدير الرأس ، خرجت إلى دهليز الغار ، يتجول هنا موظف مدخلاً قلم الرصاص في صدغيه باضطراب ، ثم توقف ، بملأ وجنتيه بالهواء ، واضعاً إصبعيه في فمه ، ويملأ وجنتيه بالهواء فيطلق صفيراً ، ويرد عليه موظف قاطرة صغيرة على صفيره بصفير مرة أخرى . كان يتجول في السكة الحديدية وهو يصك بأسنانه محدثاً صفيراً في عبق من طبقة دخانية كثيفة ، كان يبحث عن القطار الذي سوف يرسله إلى الأماكن البعيدة .

حينذاك كان الموظف الذي أطلق صفيراً ينظر إلى جميع السيدات الشابات بعينيه ، كان يريد أن يظهر لجميع المسافرين ابتسامة غرور وسعادة ، كان المسكين يظن أن الشيء الذي يحرك جثة الماكينة الكبيرة الثقيلة هو الصفير الخفيف الذي يطلق من بين شفتيه . كنت أنظر إلى هذا الموظف المستهتر وأقول لنفسي : " هكذا يكون ضعف الإنسان وقوته كلها " .

قبل ثلاث ساعات من الظهر يدخل المسافرون حافلة القطار المقصود ذي الإطارين من الزجاج . ثم أطلقت القاطرة نفساً بغطيط سعال منتظم ومجزأ ، وبدأت في سحب جميع القطارات ، وضجت القطارات بأصوات من ضجيج جلبة معدنية ، ناتجة عن احتكاك القضبان بالعجلات .

كانت جميع أبدان المسافرين تهتز اهتزازاً خفيفاً . خرجنا من المحطة ... وكانت نهاية مباني المدينة تلقي نظرة وداع للمسافرين الواحد تلو الآخر مثل بانوراما سريعة شاردة .

تركنا الآن الإسكندرية كلها ، ويسير القطار الآن وسط أراض زراعية مستوية . هناك حيث يحصد الزرع الأخضر ، ومن الخلف حيث الاصفرار التام: تلطف الرياح الخفيفة الزرع كله . فيبدو الزرع وكأنه يسير مع الرياح سويا بنعمة متموجة ، يحفر الثور المحدب الرمادى اللون الأرض الناضجة تحت نير طويل ، ومعظم الأحيان ينظر إلى القطار بعينيه الكبيرتين بنظرة لا معنى لها ، وإلى القاطرات التى تمر بالقرب منه ، تظهر قبة من الوحل الجاف هنا وهناك ، قوساً من اليبوسة بين حقلين كبيرين ، بلا ريب أن هذه القباب ستكون مأوى المزارعين .

يظهر الآن بين الحقول أطفال امرأة عربية سمراء عراة ، ثم سيدة تحمل سنابل ، ثم بعد ذلك بدوية وجهها محجوب ببرقع أسود ، وفارس يقود فرسه بسرعة خاطفة ، وفى النهاية نرى قافلة من الجمال يتعقب بعضها البعض بخطوات متأنية صبورة جدا . ثم يظهر خط سنجابى اللون فى الأفق ليعطى النهاية لهذه المناظر الناضرة .

وتبدأ القفار فى الظهور وتظل كل دائرة النظر كئيبة جدا وعارية جداً ... السماء صافية ، وتستمر الصحارى وتنوم على شكل بحر من الرمال تتسع على امتداد مرمى البصر .

لا توجد سحابة على وجه السماء ، ولا نبات على وجه الأرض ، ونادراً ما تضع نخلة بلح وحيدة نقطة خضراء مريحة لا تأثير لها بالنسبة لهذا التجرد الذى يلف الآفاق الحزينة اللانهائية .

لا أثر للحياة فى ناحية ما على الإطلاق ، وكأن كل شىء مستغرق فى نوم عميق ، وكأنما كل ناحية قد احترقت تحت أشعة شمس نارية

محرقة تغرب وتشرق منذ القرون البدائية . وكأن جميع هذه الأراضى الحزينة قد اتخذت شكلاً صحراويا رماديا لا نهاية له ..... أحياناً تغوص أكوام سنجابية اللون فى الرمال ، وتصبح قرية خربة من الفقر والحرارة علامة مملة لعلاقتها بالمناطق المعمورة .

إلا أنه فى عدة ساعات تبدو فجأة علامة للحياة ... فها هى الجمال ! لا نستطيع أن نسمع شيئًا سوى الأصوات الصادرة عن ارتطام هذه الحيوانات بالرمال التى تسير عليها ، ويتعقب رءوس أحدهم بأذناب الآخرين تحت وابل شديد من الضياء وتبدو غافلة حتى عن ضجيج القطار الكبير الذى يمر بجوارها ، وتسير تجاه المكان المقصود المجهول فوق القفار ، تسير دائمًا ويتمازج لون الجمال الرمادى مع رمال الأرض اللانهائية ، فينتج عن ذلك تناغم لونى حزين.

ظلت كل ضجة القطار مدة سحبه داخل هذا العالم القفر مقتصرة على قعقعة حزينة ذات نغمة واحدة ، السماء فوقنا صافية براقة ، مليئة بضوء أزرق ، كانت مفعمة بمرح الحياة . وكانت العين لا ترغب فى العودة إلى الأرض الميتة الجرداء تحت السماء ، وعلى الرغم من ذلك فقد كنا نسير فوق تلك الأرض .

نسير فوق هذه الصحيفة الأرضية التى ترويها مقدمة التاريخ وتحررها قرونًا بعد قرون ، متخيلين المبانى التاريخية المهدمة فى اليوم الذى شيدت فيه رغبة وأملاً فى أن تظهر انتشاءة فرحة صغيرة على جانبى شفتى كليو باترا الورديتين .

كنا نسير دائمًا بسرعة نارية للقطار بين هذه التموجات الرملية الصفراء .

كان الغبار ينتشر بين السماء والأرض رقيقًا، رقيقًا، رقيقًا جدا ، وكأنه سحاب شفاف ، كان ذلك السحاب من الغبار ينفذ من جميع مساحات القطار المغلقة كل نواحيه ، ونوافذه وأبوابه ، مشكلاً طبقة غليظة وصفراء فوق الأشياء التى بداخلها ويظل هناك فرق ضئيل جداً بين اللون العام للخارج وبين اللون الذى بداخل القطار .

وقد انكمش المسافرون كل على حدة فى زاوية بصمت وسكون وهم يشبهون كتل الرمال .

عندما انضمت ذرات الرمال المتراكمة فوق الأهداب إلى الارتخاء العضلى الذى يعطى حرارة للمكان تغلق العيون آليا . تظل العين مشغولة برؤية روح خيالية ، فيبدو للإنسان أن كل ذرة واحدة من الذرات الرملية التى تشكل زويعة صفراء داخل تلك القاطرات هى حبة تذكار قرن كبير . تهب كل نفحة رياح تمر من هنا فى هذا المسرح الواسع ، يتناثر غبار عظمة الفراعنة كلها فوق ذرات الرمال الحقيرة ...

ثم يعود إلى الفكر الذكريات الخالدة للمعانى القدسية .... وصايا المحبة المقدسة لمهد الكليم الموّاج ، والغار المختفى الذى كان دار الأمان لحضرة " كنعان " ، والحجر النادر المبجل بأثر مطبوع للقدم النبوى الشريف .

هذه الذكريات المقدسة التى هى زينة سرمدية كل على حدة لكل الإقليم المصرى ، لا أدرى كيف يتعاقب الفكر على الروح بحركة تراجعية ؛ فيشحن الروح بتوقير عذب ، ويختلف تأثير الصحراء والرمال مثل كل شىء على كل إنسان أيضاً ، فبينما يفكر مسافر وهو صامت ومتوكل ،

يحاول الآخر أن يجد وسيلة جديدة للعب والتسلية من الصـ ـرى ومن الرمال فيكتب اسمه بإصبعه فوقها وينقش شيئًا مشيرًا إلى المكان الذى يجلس فيه " هنا مكانى .... " ويضحك ، ويضحك .

يصير غبار مصر الذى لا نهاية له مثل كل شىء ، وسيلة حزن لأحدهم وللآخر ذريعة للنشاط والانشراح ، ثم تتعاقب الحدث الواحدة تلو الأخرى .

ويطلق العرب كلمة محطة على المكان الذى نطلق عليه موقف القطار حيث تعنى هذه الكلمة " مكان تحميل الأحمال " وتمتلئ هذه المحطات بالأطفال الذين يبيعون ماء النيل داخل أباريق من خزفية " ذات مسامات مفرغرة ، وكذلك يوجد بائعو اليوسف أفندى والبرتقال والعتالون والمرشدون والمترجمون ، وهى أشياء تُشاهد فى كل محطة عادة ، لكن هناك شىء ما لم يُر فى أى محطه على الإطلاق ، ويتميز به الإقليم المصرى ففى بعض المحطات ينظف عدد من أطفال العرب أثواب الأشخاص الذين فى القطار وأمتعتهم من الغبار مقابل بقشيش مرتبط بالمروءة على الرغم من أن المراوح التى فى أيديهم مصنوعة من الريش ، فتظهر حقيبة من تحت كومة ذلك الغبار ، ويظهر طفل من تحت غبار آخر ، ويخرج سبت طعام من تحت كوم آخر

والمخفى تحت أكوام التراب التى تحجب البشر هى نتائج مضحكة جدا ، فبعد ضربتين من المروحة ينقلب شكل ذلك الإنسان ذى اللون الواحد إلى وجه أوروبى ناصع البياض ، والآخر ينقلب إلى وجه أفريقى شديد السواد ، انقضت عدة مواقف ، وفجأة قال السائح :

ها هو السراب ... وأشار تجاه اليمين بإصبعه ، وهرع كل المسافرين إلى النوافذ وهم ينظرون إلى تلك الناحية ، العون يا ربى ! يا لها من مناظر لطيفة خادعة ، كنت أقول لنفسى " هاهو مستوى الأرض وبحيراتها وحدائقها وكل البلد والأماكن الخلوية ... هاهى هناك مدينة ألمانية بأبراج سهامية ... هاهو هناك أيضًا مـ‍زؤها ، وأشجارها ، وظلالها ، وزوارقها الرفيعة ... وقطعة من الماء الأزرق مع قواربها العائمة ... ومع أنه لا يوجد لون آخر غير لون بخارى فى كل هذه المناظر المرئية ، ومع أن حدود الأشياء كانت مبهمة جدا ، إلا أن الأشياء المرئية كانت قوية إلى حد كبير فى تقليدها للحقيقة ، وتشابهها الشكلى لها تشابهًا تاما ، وكانت خادعة إلى درجة أنه من المستحيل عدم تصديقها داخلنا مستفسرين عنها قائلين " يا ترى " .

حينذاك فكرت : هل كان من الممكن ألا يصير كل واحد من الشعراء العرب الذين يعيشون داخل رؤيا دائمة تجاه تلك المناظر الخادعة كل يوم ، صافى القلب وثرى الخيال وبارعًا بتألقه الفكرى ؟!

فكلمات أولئك الشعراء الذين يسيرون فى محيط رائع يشبه عالمًا خياليا ، مليئًا بالخيال ، كيف كان من الممكن ألا تصير أرواحهم سريعة الخطى مثل الخيال ؟

فالإنسان الذى يشاهد كل شىء فى مرآة من الشعر والسراب ، يصبح مفتونًا بالطبيعة حتى إنه لا يشعر بضرورة إجراء تشريحات فنية على البدائع الطبيعية ، ويستشعر جميع نفائس العالم بعظمة المنظور المرئى ، وإن يكن يشعر بجمال بالغ ، ألا يمكن أن يكون ذلك الإنسان شاعرًا ؟

الآن تخلصنا من يبوسة الصحارى الحزينة ونسير بين أدغال من القصب فى بحيرة ماريوتيس ، تتضخم البحيرة من على البعد وتزيد الأمواج وتتقدم حتى حواف القطار .

قلت لنفسى " بعد قافلة الجمال ، هاهى قافلة الأمواج أيضًا ، لأن الأمواج كانت تشكل سلسلة متحركة على البعد متوجهة ناحية الساحل وهى تلاحق بعضها البعض ، تتلاطم المياه فوق صخرة ظلت تحدث ضجيج الأمواج الصاخبة ، وتنشق وتتشتت فى الهواء على شكل انفجار ثلجى ثم تطرح مرة أخرى على شكل شلال ، وتظل عبارة عن رغوة بيضاء رقيقة فوق انحناءات ماء الأمواج، وفى النهاية تتقدم تجاهنا فى مواجهة رقصات موجة حالمة .

لم يمض وقت طويل على مغادرتنا هذه البحيرة الواسعة حتى غابت عينى مسافر مرح سعيد داخل خطوط قهقهية ، فهو إنسان يحاول إضحاك آخر منذ بدء تحركنا مشيراً بإصبعه إلى موقع خارج النافذة قائلاً :

سادتى ، انظروا إلى قرى الحمام ... ضحك كل إنسان لأنه ظن أن هذه نكتة ، وذلك على الرغم من أنه كان جاداً جدا ، ففى الحقيقة أنه كانت هناك منذ سبع سنوات عشش مشيدة بجانب بعضها البعض فهى كثيرة جدا إلى درجة أنها كانت تشبه القرية ، وكانت الأبنية المركبة من هذه العشش أكبر من خلايا النحل ، وأصغر من الكوخ العادى ثم بدأت الآثار الزراعية فى الظهور، وأخذت الأرض تتزين بحياة فتية .

فتحنا النوافذ ، وكان الغبار هنا بدرجة يمكن تحملها ، وقد صارت الأرض على شكل درجات ممتزجة امتزاجًا غريبًا من اللون الأخضر وكأنها سجادة بيرانية منقوشة ذات أرضية خضراء ، وكان الهواء مشبعًا برائحة ذكية منعشة للزرع الناضر ، وكانت الآفاق زرقاء وبراقة ، فهنا يزرعون ويبذرون وهناك يحصدون ... لأن في هذه الأرض الرائعة يمتزج الصيف بالربيع بتزاج مدهش ، فهنا آلام البرد مجهولة تمامًا .

هذا هو نهر النيل فقد مررنا فوق مياه وافرة وغزيرة ، إنه النيل المبارك الذي يتسابق على شاطئيه الأطفال بأمان تام ، وكانت عظمة النهر المحلي لا تخيفهم ... وعلى شاطئيه يضرب الجاموس ذو العيون الواسعة حائرة على بطونها . وفي جهة أخرى تملأ النساء أباريقهن المنزلية . ظللنا مدة نتتبع بسار ساحل هذا النهر العظيم ، وكان المشهد حدبلاً وبراقًا وممتدًا دائمًا ، وكله حياة .

ثم دخلنا الصحاري مرة أخرى ، لكن هذه المرة لم تتعبنا الصحاري لأنه ظهر في الأفق الأهرامات ، ومن يدري لعل تلك الأهرامات تشاهدنا من فوق أربعين قرنًا ، مثلما قال نابليون ، كان غبار الثرى يلتصق بملابسنا التي نرتديها .

الرسالة التاسعة

من القاهرة

سوف يملأ هذه الرسالة حزن مبهم مصدره جولة عامة بلا هدف ، فأنت تدرك أنه حينما تمسك بأوراق كتاب جديد فهناك قراءة كلمة واحدة أو كلمتين تجذب النظر لكل صحيفة ، وهكذا الحال حينما نظمت نوعًا من التمهيد لجولة قاطعًا اليوم القاهرة في اتجاهات مختلفة . وفي أثناء كل هذه الجولات كانت روحي الواثبة المنطلقة التي رافقتني هي التي ترى وتنظم ... كنت أمر وأقتبس من حصة الذاكرة متجردًا من كل شيء ، وعندما لا تلحظ فائدة مهمة من سياحة ما فإنها لا تستطيع أن تصبح انطلاقة الروح رفيق طريق جيد ، ولذلك يجب على الذين يخرجون للسياحة أن يطرحوا من قلوبهم كل القيود المنحازة ويتحلوا عنها بينما يعلقون حقائب تلسكوياتهم على جانب صدورهم ، كما يجب عليهم أن يتركوا أفكارهم في الصحراء وفي البحار وفي الأماكن المثيرة للخيال والاستغراق داخل سحر وثمالة حس ولا مبالاة زاهدة ، ويقتضي عليه ألا يصير شيئًا سوى أن تكون اللامبالاة الفلسفية هي رفيق الطريق في مدينة مشحونة بالأشياء الجديدة وبكل ما لم يشاهد .

وتثبت الأطلال التى تصادفونها هنا وهناك أنكم موجودون فى مدينة قديمة ، وقديمة جداً . وقد نحتت زوابع الصحراء التى تزيل كل شيء بهبوب نارى مضطرم جميع النقوش الرقيقة للمبانى القديمة ، وتمحوها فلم يتبق شيء من عدة مبان وهى تذكار معمارى للأزمنة القديمة سوى عدة أطلال . ويهتز تاريخ المبانى الجديدة فوق أنقاض القصور المليئة بالغبار ، ويغلب على هذه المبانى الجديدة الاهتمام بالزينة أكثر من المتانة ، ففى الخارج تطريز قليل وعدة نقوش ، فلتكن خمسة أو عشرة نقوش ، وينطبع على الوجه الخارجى للبناء رغبات صاحبها وخيالاته ذات الألوان المرصعة المختلفة ، فهى تتميز بالذوق والطرافة فى منظرها الظاهرى ، وتظهر علامة من علامات الرقة ، وهكذا يكفى هذا القدر للمبانى المصرية ، فلا تبحثوا هنا عن القوة والرصانة فى الإنشاءات الغربية ، فهنا لا يدخل ضمن الحسبان قوة تحمل المنازل تجاه رياح الغد .

ويمكن القول إن كان الاستدلال من هذه الآثار المعمارية على اجتهاد الشعب الفكرى ضروريا . فالحياة والموت هنا يعتبران نوعاً من النوم واليقظة التى تتكرر كل يوم ، ويتم النظر إلى كل شيء فى الحياة مثل رؤى سانجة غافلة، وتبدو أيام الحياة مليئة بمجموعة أحداث غير متوقعة ، وتمضى ، وينبغى أن تكون مرتقبة باستغراب دائم على مسرح الحياة ، ومن هم فى أشد الاحتياج ، الذين يقضون عمرهم المتألق فى هذا الإقليم الحار ، يتخيلون إيجاد باقة زهور فى أيديهم . وغالباً ما يستمر نوع من مسيرة الحياة المهووسة داخل الحوائط المصنوعة من

هذه الزينة ، والذين يعيشون هناك يتخيلون أنفسهم صباحاً من أجل التجمع في المساء داخل خيمة وردية اللون منصوبة على شاطئ واد فياض .

فالعيش داخل سد صيني قوى ومستحكم والقبض على مرآة الإسكندر للأجيال القادمة ليس من أعمال أبناء المصريين . فطبيعتهم ومزاجهم يكمن فى أنهم عندما يسيرون أمام رياح الآمال يركضون ، ثمّ يريدون غرس حياة الكسل داخل خيمة بسيطة ورقيقة . ولكن أليس هذا الاتجاه والميل لدى قوم يعيشون داخل عالم نادر ومخلوق من النور والحرارة يعد طبيعيا جدا ؛ وهناك مصادفة غريبة أيضًا فحتى وسيلة بناء هذه المدينة خيمة . ويجب علىّ أن أفسر هذه المصادفة : فعندما استولى عمرو بن العاص على قلعة بابل المشيدة على جبل المقطم على يمين شاطئ نهر النيل ، وبعد أن نال بسهولة تلك المنطقة المستحكمة التى شيدها الفرس ، تأكد انفتاح سبل الانتصارات الجديدة ، فأعطى جناب القائد الأمر بالتحرك تجاه الأمام ، وبدأ نصب الخيام ، وعندما جاء الدور لرفع خيمة القائد ، كان عش قد شيد فوق هذه الخيمة ، وحينذاك أقسم القائد ألاّ تنقل خيمته إلى مكان آخر ، حيث قال : " ألا يرعى الإله الأعظم مخلوقًا التجأ إلى ظلال ضيافته بأمان تام ، ويصون أى مسلم ويحفظ أى مخلوق حى ؟ ! معاذ الله : يجب علينا أن نرعى هذه الطيور ، فهى فى ضيافتنا فلتبق هذه الخيمة هكذا حتى عودتى من الإسكندرية " .

هكذا ظلت هذه الخيمة والتى أصبحت عش محبة لزوجين من الحمام أول ركن لطيف فى مصر القاهرة وحتى تمت تقويتها لتستطيع

مقاومة العوامل الجوية ! وحين عودة القائد أنشأ هناك مناطق كبيرة ومبان كثيرة ومدينة كاملة .

كان عمرو بن العاص ذا طبيعة معتدلة وصاحب فكر واسع شامل ، وقد تساوت طيلة فترة حكمه الزينة والصلابة فى الإنشاءات ، ثم بدأت الزينة تمحو نصيب الصلابة .

وفى عهد أحمد بن طولون بلغت الزينة الحد الأقصى ، وإن كان ضروريا تصديق المؤرخين العرب ، فقد أنشىء قصر لا مثيل له في ذلك الزمان ، وحفظت الأشجار التى فى حديقته كل واحدة منها داخل أغلفة معدنية ، ومموهة بالذهب ، وتصل الماء إلى أماكن الغصون الرقيقة جدا ، وكانت تفور مثل الأزهار من الرغاوى ، وتطير كل الطيور اللطيفة فى الدوائر المصنوعة من طلاء مزركش ، وتغرد وتتوقف وهى تلامس المنقار على المنقار .

ويتم المحافظة على المعابد المرصعة بوضعها داخل أقمشة ثمينة ، كانت الحيوانات المتوحشة تشكل لوحة صراع دموى داخل سياج حديدى . كانت تشتمل على شرفة عالية ، ومشاهد من النيل ، والحدائق المصرية ، وصحراء القاهرة ، والأهرامات ، والمنارات ، فهى تشتمل على كل شىء يحيط به البصر، خاصة وأن هناك حوضًا واسعًا وانثناءات تبلغ الخمسين مملوءة بالزئبق ، ومحاطة بأعمدة من المرمر رءوسها من الفضة ، وقد امتلأ هذا الحوض بالهواء فوق الزئبق ، أحيانًا يسبح فراش منعم كبير ، وأحيانًا يظل واقفًا مربوطًا بحافة الحوض بحبال حريرية ، وفى الليالى المقمرة والمكوكبة يتمدد صاحب القصر على ذلك .

الفراش المرفه حينما يحيط الحوض الزئبقى كل السماء المضيئة لمرآة حضنه بجلاء وتألق جاذب للنظر ، ويتجول بين سماء حقيقية مع سماء معكوسة خلال رياح رقيقة ليلية مستمتعاً بدلال يفوق الوصال لرؤيا حياة سعيدة حتى أفول القمر .

لا يمكن وجود قطرة من أثر هذه الخيمة المسرفة فى الملذات ، فقد تخلف من هذا العالم الخارق للعادة الليالى المقمرة والساطعة كالنجوم ، وسماء حقيقية فقط .

فلنمر ... وبسبب أن القاهرة تتعهد بحسن وفادتها للأجناس المتعددة من كل العالم ، فهى يمكن أن تبهج المحبين للصعاب أملاً فى رؤية أشياء جديدة ، إلا أنه يجب عليهم أن ينتقلوا من الأماكن الجديدة التى يقطنون فيها مع الأوروبيين إلى أماكن العرب القديمة ، وأن ينطلقوا فجأة إلى منطقتى الإسماعيلية والأزبكية لأن هاتين المنطقتين الأخيرتين هما أوروبا بأكملها ، فهنا يجب أن يعودوا خاصة إلى حديقة الأزبكية قرب العشاء للاستراحة .

وقد أنشأ " موريس " أحد الفراعنة المصريين بناءً كبيراً من حجر الجرانيت فى عاصمته كولتك تا ، وطبقًا للرواية التاريخية كانت حجرات هذا البناء ودهاليزه كثيرة وضيقة وملتوية وعسيرة جدا إلى درجة أنه لم يكن من الممكن التجول بداخلها بدون مرشد ... هكذا أُنشئت ونظمت أحياء عرب القاهرة من قبل تلامذة أحفاد المعمار الذى أنشأ ذلك البناء المشهور .

واستخدم قانون هندسى مضطرب ومحير فى تنظيمات شوارعها وأحيائها ، فدائمًا تميل الطريق إلى اليمين واليسار ، والشوارع مسدودة

غير نافذة ، وكانت الممرات وكأنها قوقعات أذن منثنية ومعقدة ومتشابكة فوق بعضها البعض مثل حزمة شعر ، فتظنون أنه شارع مسدود على الرغم من أن له امتداد كبير ، وتظنون الشارع الآخر طريقًا ، ثم بعد أربع خطوات ترون أنه يقف وينسد عند فناء منزل ، وأحيانًا لا تستطيعون أن تشاهدوا مكانًا مائلاً مطلقًا فترجعون ، خلال ذلك التردد تلمح أعينكم طريقًا صغيراً ملتوياً بجوار منزل ، فتستمرون ، وأحيانًا يمر الجميع من تحت منزل وتخرجون إلى طريق جديد ليس شيئًا آخر سوى ما بعد الطريق القديم فتتجولون ، وتسيرون ، وتعودون فى الغالب إلى الشارع الذى مررتم منه ، فمن المحال تحديد واستيعاب وإدراك مدة تجوالكم ، وأين صرتم ، وما الناحية التى تذهبون إليها .

ويستشعر أحيانًا بصمت حزين مع سلام عزلة عميقة فى الشوارع الغريبة التى على هذا الشكل غير المتناسق وغير النظامي والمعوجة والضيقة والتى تشكل جميعها ضفيرة واحدة ، وأحيانًا يشعر بضجيج وصراخ مضطرب مشوش وكأنه اضطراب يوم القيامة ، ويظهر فجأة تغير رئيسى لجميع أشكال الحياة عند التخلص من إحدى هذه الطرق المعقوفة والالتحاق بغيرها ، فليس هناك شخص واحد فى الشارع الآخر على الإطلاق وكأن جميع مطارق العالم ترن فى الآذان فى هذا الشارع معلنة عن الأسواق المشتركة بين الدول .

وكان الطريق الآخر مهجوراً مثل ساحة دار منعزلة مهجورة عقب حريق هائل ، الآن يمتلئ هذا الطريق بأصوات الحياة مثل موعد تلاقى عدد من الطوابير العسكرية ، هناك صحراء عادية ، وهنا مدينة مزدحمة ،

تنتشر فى هذه الشوارع الأخشاب والأحجار وكل ما يلزم البناء مبعثراً على الأرض مثل أنقاض بناء منهار . هناك تظهر لوحة الانهيار فوق الأسس التى تهتز أسقفها المنفصلة ، وبين هذه الأنقاض تظهر امرأة ذات نقاب أسود فى معظم الأحيان ، وتمضى عدة خطوات بصمت تام ، وهنــاك يعبر جار إلى منزله من باب حديقة قديمة معلقة على نصف حائط ، لم يكن فى هذا الشارع صوت على الإطلاق ولا اهتزاز للوجود والحياة .

تبدو أحجار حمراء قرمزية لمنارة خربة فوق هذا الصمت والسكون خائفة مرتعشة من فكرة الانهيار ، وقد أحاط هواء راكد كهل كل هذا الحى ثم يتسع الطريق فجأة ، فخرجنا إلى شارع به متجر بناصيتين ، يضــج هذا الشــارع بازدحــام صاخب ، فكل إنسان سواء كان سيدة أو رجلاً أو طفلاً ينادى ويصرخ ، فالسيدات يبعن الخضراوات التى يحملنها فوق رءوسهن ، والأطفال يلعبون مع بعضهم البعض ، وكان جزء من الناس يتجول فقط . وتظهر الأشياء التى ليس لها صلة وعلاقة إطلاقًا مع بعضها البعض للبيع فى المتاجر ، فمجموعات من السجاجيد تلمس أكوامًا من البقسماط ، وأعمدة الطرابيش تقف بجوار الأوانى والأباريق الخزفية البيضاء والحمراء مثل أعمدة المسلات ، وتتصارع حزم الموز مع صفوف الأحذية والخفوف وجهًا لوجه ، وتتلألأ الأقمشة الحريرية مع الغلايات والمراجل النحاسية جنبًا لجنب ، وتنسحق بالات القطن تحت سلال الأرز ، وتظهر سلال الرمان أسنانها الحمراء فوق براميل الزيتون الخشبية .

فى هذا المتجر يحيك خياط يبرك فوق قطع الملابس الصوفية ، وعلى مسافة أبعد منه يتناثر الشرر من سنان حداد ، وعلى مسافة أبعد يدير صقاح طنجرة يصقلها ويقلبها تجاه ضياء الشمس ، وفى متجر قريب يحرك بدويان مطحنة البن بعضلاتهما القوية .... وعلى مسافة أقرب يوجد كاتب قبطى يبيض رسالة سيدة عربية ، وهناك حلاق ـ وهى كلمة تطلق على المزين – يرغى الصابون على رأس قروى لامعة سوداء ولحيته ، وهو الآن يمرر موسى الحلاقة على الزنار ، وبعد قليل ستظهر رأس القروى عارية تماماً بطريقة حزينة وبلون القرفة القاتمة مثل جوزة هندية نزلت على كتفيه ، وإن أردتم إتمام اللوحة فهناك عدة مليارات من الذباب ، وفوق ذلك الاضطراب كله أضيفوا عدة ملايين من العربجية .

العون يا ربى ، ذلك الذباب ، الرحمة ، أولئك العربجية ، حتى الآن كلما أتذكر ذلك أنزعج ، فالذباب هناك وكأنه يثير زوابع وأعاصير حلزونية ، ويطير فى الهواء بطنين مزعج فيشكل سحابات من حولى ، كنت أبعدها رافعًا يدى إلى الهواء ، وكنت أشكو لنفسى ، فى هذه الأثناء أحاط بى العربجية من كل ناحية ، أحدهم يجذبنى من ملابسى ، والآخر يمسكنى من ذراعى ، والثالث يسد علىَّ طريقى وكان يشير إلى حماره قائلاً :

هذا رَهَوَان ..... رَهَوَان هذا .

وأنا أصرخ قائلاً دائمًا :

موش لازم ... موش لازم ! وأحاول التخلص منهم .

ويجب على من يذهب إلى القاهرة أن يعرف لفظ " موش لازم " هذه ، دائمًا ، فليس هناك سلاح دفاع ضد العربجية سوى ذلك التعبير الذى هو فى حكم " غير ضرورى " ، ولا يمكن المحافظة على الوقار والاحترام فوق تلك الحمير ، فالفرسان ضعاف فوقها ، ويشبهون دون كيشوت وسميزلر سانشو بانصا ، ولا أستطيع أن أحرز نجاحًا فى التشبيه بشىء على الإطلاق .

ويحاول المصريون أيضًا التحرر من أشعة الشمس النارية الملتهبة كالنار مثل أهالى جميع البلاد الحارة ، فكانت معظم الطرق مغطاة بأقمشة القلاع ، والأخشاب والأقفاص فهى تغربل ضياء الشمس ، فتنتثر ضياء معتدلاً رقيقًا فوق الحاضرين ، وفوق هذه الأسقف الخفيفة والمؤقتة رسوما غريبة أحيانًا ، وأحيانًا توجد الستائر والتنورات ، وأحيانًا أيضًا تساعد التشققات الجسيمة على مرور كل الشمس .

هناك شىء يبدو للعيان كثيراً جدا فى شوارع القاشرة ، ألا وهو المقاهى ، فهى تنتشر بصورة لا يمكن أن نلم ببعض منها ، مظهرها الخارجى عبارة عن دكتين " مصطبتين " خشبيتين مستندتين على الحائط فى شارع واسع ، وأمامهما توجد عدة مناضد ، وعلى أطراف المناضد خمسة أو عشرة مقاعد من الحصر وبلا مساند ، وفى ناحية يوجد موقد المقهى ، هكذا تكون كل المقاهى فهى عبارة عن ذلك ، وفوق هذه المصاطب الممتدة لهذه المقاهى المنتشرة خلق يجلسون القرفصاء فى حالة إعياء لا نهاية له ، وفى أعينهم شىء من اللامبالاة العميقة ، وعلى الرغم من أن مظهرهم يدل على عدم احترام تجاه جميع النظرات

الخـارجيـة ، إلا أنهم كـانوا يشـربون القـهـوة ، ويدخنون السـيـجـارة والنارجيلة ، ويشربون الكازوزة ، كما فقد بعضهم الشعور مستغرقين داخل خيالات مريحة ، وانشغل بعضهم بورق اللعب والطاولة والدومينو والشطرنج . ويعد إدمـان القـمـار من أكثر أنواع المسـاوئ بين أهالى مـصـر ، حتى إن السنة القـبطيـة يمكن أن تصل عـدد أيامـهـا فى ظل الميسر إلى " ٣٦٥ " نعم ، فطبقًا لرواية أسطورية : " بينما كانت السنة الميلادية فى بداية الأمر عبارة عن " ٣٦٠ " يومًا وصلت إلى " ٣٦٥ " من أجل الفوز بلعبة الداما التى كان يلعبها طوط مع القمر وهو من آلهة المصريين ، ويقول المصريون وهم يقصون تلك الخرافة : " هو ميراث ظل لنا من الزمان القديم جدا " .

هنا كل شخص تقريبًا الكبير والصغير ، الغنى والفقير ، مبتلى بسيئة الميسر ، أما الأطفال المتسولون فهم يحاولون أن يضاعفوا رءوس أعقاب السجائر التى جمعوها من الشوارع ، وهم يلقون بالنرد فوق أرصفة المشاة ، وتوجد مناطق علنية مكشوفة فى بعض الشوارع حيث يرقب خلق ملتفون جميعهم حول منضدة الروليت ، وينتظرون الطالع والحظ ، والذين لا يلعبون القمار فى المقاهى يقضون الساعات بمشاهدة سيل من الأشكال التى تمر أمامهم . والأطفال القذرون ذوو الشعور المجعدة ، والأسنان البيضاء ، والعيون السوداء ، يطلبون عملة مصرية من أى عابر بنداء شكوى غريب . والسيدات الموشومة أذقانهن بثلاثة خطوط خضراء ، والمحمرة أظافرهن من الحناء ، والمسودة أعينهن من التوتيا . وشاب مفتوح العينين يقضم قصب السكر ... ومريض يشق

الزحام حزينًا متواكلاً بخطوات بطيئة متكئا على عكاز كبير .. والعربجية ، وبائعو الخروب ، والمسبحون وماسحو الأحذية ، وجميع العاطلين الذين يدفعون بعضهم بعضاً ويصيحون ويهرعون ويضحكون وهم محاصرون بزوبعة وأعاصير من الذباب ، ويقومون بتسلية الجالسين على مصاطب تلك المقهى .

الآن يحل المساء ، فتنتشر المصابيح الكبيرة التى تضىء على أبواب الجامع ، ضياءً رديئًا على الشوارع الضيقة ، وأحيانًا يضاعف الظلام كآبة الطرق فى النهار ، فعندما تعكس لون لوحة الغروب على حوائط الخرابة المهدمة التى ظلت بين الأنقاض ، تنال الأطراف ويصيبها أثر العزلة التى تحيط بخرابه مهجورة . وهناك تأخذ شكلاً كما لو كان قد أصابها أحد كوارث القرون الأولى ، ويعتقد الإنسان أنه يشاهد لوحة اضمحلال ونهاية الحريق الكبير الذى أثاره نيرون فى روما ..

يجب أن أقضى ساعات من هذا المساء فى حديقة الأزبكية . وتعد هذه الحديقة مركزًا للمحلات الخاصة بالأوروبيين المقيمين فى القاهرة ، حتى إنه عندما جاء نابليون إلى القاهرة أقام هناك فترة ، وقد تغير شكل هذه الحديقة عشرين مرة حتى الآن ، فبينما كانت فى الماضى عبارة عن حوض كبير ، أخذت شكلها الحالى فى النهاية ؛ تظلل الأشجار الغريبة القادمة من أفريقيا الوسطى باستثناء الأشجار المحلية فى كل ناحية على الرمال وهى تنشر رائحة عطر رقيق غامض ، وكأنها عطر حقيقى ، ويتلألأ ضياء المساء الرقيق بين الأوراق بمجموعة من الانعكاسات المداعبة للنظر .

ولكن لا أعرف لماذا يرغب القليل جدا من القاهريين هذه الحديقة اللطيفة ؟! فأحياناً لا تستطيع الألحان الهادئة والحزينة لأوبرا عايدة ، وحتى فرقة مصر العسكرية الموسيقية أن تجذب الأهالى ، وهى تملأ الحديقة بعزف أدوار غنائية رتيبة راقصة ، وليس هناك من يصغى لتلك النغمات سوى حاضنات الأطفال مع الطيور البرية التى طارت إلى عنان السماء ، وسوى المقاعد الشاغرة ، وفى معظم الأحيان تغيب امرأة ذات رداء أسود بين الأشجار متتبعة الشوارع ، ويتجول عدد من الأجانب السياح هنا وهناك ، ونادراً ما يكون هناك شاب قاهرى ذو سترة وبنطلون وقميص إفرنجى ، ولكن بلا كرافت ، هذا هو كل ما يوجد .

يحل الظلام على هذه العزلة بأكملها ، وتستمر حتى عندما تتوقف الموسيقى أيضاً ، ولا يستطيع المصريون أن يحبوا الموسيقى الغربية ، وعندما يحل الظلام تشتعل غازات الهواء فى كل أنحاء الحديقة ، ويبدأ الزحام ، وتمتلئ مقاهى الغناء ذات الطراز العربى التى تبدو على شكل أكواخ هنا وهناك فى الحديقة ، وهى تتخذ نفس الوضع القائم فى الإسكندرية ، فيوجد هنا أيضاً مغن يصرخ بما أوتى من قوة مُسنداً يديه على وجنته ، وراقصة قذرة ، وضجيج ودربكة تهتك الأذن ، فالجديد الذى سنراه هنا ليس شيئاً خاصاً .

وفى هذه الحديقة يبدو شىء قذر ولكنه شنيع للغاية فى ساعات الليل وهو أن السيدات ذوات المعاطف اللائى يقايضن بلا خوف بين الرجال الأجانب والمواطنين ، وكن يرغبن فى تخفيف هذه القذارة معلنات أنهن بنات أولئك السيدات القبطيات القاهريات ، وإن كان أولئك

السيدات الفاسقات فى حقيقة أمرهن بنات مسيحيات فلماذا يسمح لهن بالتنزه فى زى سيدات المسلمين ؟ وإن كان أولئك السيدات قد نلن أدباً وظرفًا بدرجة كافية ، كان لا يمكن أن يسمح بذلك ، لكن لا ، لا شئ فيهن غير رذائلهن المقوتة ، وقد شاهدت بعضهن يطلبن سيجارة من الرجال ذوى القبعات ، وبعضهن يشربن البيرة علنًا ، ولا أستطيع أن أقول أكثر من ذلك ، فهناك ألف نوع من الصفاقة وقلة الحياء ، ويا للأسف ، فقد جمع هناك هؤلاء السيدات اللائى يبعن عضلات أجسادهن فى الليل ، الخلق التى لم تستطع موسيقى النهار أن تجذبهم ، يا لها من شهوة حيوانية تكون ضعيفة ومنجذبة إلى هذا الحد تجاه هزة عصبية .

خرجت من الحديقة ، أنا الآن أمام مبنى مكتوب عليه " فندق شبرد " وأمام باب الفندق يقدم المترجمون ذوو الطرابيش الحمراء ، والجاكتات القصيرة ، والبنطلونات الواسعة المعلومات للقادمين الجدد ، وينتظر الأطفال الحبشيين ذوو الأذرع والسيقان العارية ، والعيون الغزلانية ، الأمر من السياح ، يبدد النقباء وقت الانتظار وهم يديرون عصيهم المذهبة بين أصابعهم . كان البائعون يطرحون الكوفيات والريش والسجاجيد وكثيراً من الآثار القديمة أمام أعين مسافرى الفندق الراغبين فى الشراء .

كانت شوارع أرقادلى التى تشبه شوارع بريوولى المشهورة فى باريس تضج بالزحام والجلبة والضوضاء على الرغم من تجاوز الوقت بأكثر من ساعة بعد غروب الشمس .

شق شخصان فجأة هذا الزحام ، كان فى أيديهما عصى طويلة ، رأسها فضى ، كانا يركضان مثل رجال المطافئ ، ويصرخون : رجلك ، ظهرك ، عينك ، شمالك ، ويطلق عليهم هنا " السياس " وهم الذين يفسحون الطريق راكضين أمام عربات الحرم الكبيرة . ومعظم السياس أحباش وإن لم تشبه قيافتهم زى أوبرا هزلية ، فهى حقيقة جميلة جداً : فهى صدرية قطيفة مزينة بخيوط فضية ، وجلباب من الكتان ، وثياب فضفاضة بيضاء ، وطرابيش حمراء ، وهدبة ثوب زرقاء حريرية متدلية حتى الخصر ... السيقان عارية وشديدة السواد ، تلمع ببريق يشبه بريق الحديد ، والعيون على شكل اللوز ، مليئة بالقوة والشدة ، القد طويل ، والهندام لطيف جداً ، وفى التسابق توازن وانتظام ، وهم لا يعرفون التعب ، ويقطعون مسافة ثمانين كيلو متراً بسهولة تامة مثلما يشربون كأساً من الماء ، لكن هؤلاء الراكضون الرائعون يفقدون صحتهم عادة فى سن الثلاثين ، ويهلكون بسبب مرض صدرى وهم فى سن الأربعين .

عصفور .. عصفور .. مسكين أيها السائس ، من جديد عصفور ، لا زلت عصفوراً ، وهو يقضى ذلك العمر المحدود طائراً مثل العصفور .. طائر حتى عندما يفكر من أجل أن ينهض مرة أخرى من التعب ذات يوم ، يتعقب سائسو سيدة ممددة بغرور داخل عربة فخمة ، مرت مثل لحظة من السعادة وأخذ الزحام تموجه المعتاد مرة أخرى .

الآن لفتت الأنظار بضع فتيات شابات داخل الزحام ، يوجد على رأس كل واحدة منهن سلة ، كانت ممتلئة بالمواد التى تركتها الخيل

تذكاراً فى الشوارع ، وفى مصر قليل جدا الحطب المحروق ، وبسبب أنها غالية جداً لا يستطيع الأطفال أن يتخلوا عن أذيال الفرس ، فالجميع يترقب تلك الفرصة ، ولا أدرى هل تمنح بلدية القاهرة المعاش وخلافه لهؤلاء الأطفال ، لأنهم يقومون بهذه الوظيفة الخاصة بتنظيف المدينة حقيقة أكثر من أى شخص ؟ ثم عدت مندفعاً نحو الشوارع وحيداً مرة ثانية ، أصادف فى كل خطوة المتسولين متمددين على الأرصفة ، فرق قليل جدا بين هذه الأكوام الحقيرة وكتل القمامة .

الرسالة العاشرة

من القاهرة

تعد مشاهدة القاهرة فى الصباح من حافة جامع محمد على باشا وسيلة استغراق يرغبها كل سائح شاعر يتشوق إليها ويتعجل رؤيتها ، فالشمس تنير جميع هواء النسيم بحريق ذهبى أصفر لا نهاية له ، وهى تشرق من زاوية الأفق بين جبل المقطم بدون أن تظهر علامة مطلقًا الشروق بمقدمة لونية على وجه السماء ، تنوب فوق المدينة فجأة شفافة تهتز مثل ثمالة النوم الرقيقة ، يمكن أن تمر بضع دقائق قليلة بين صفاء لون ما قبل وما بعد ظهور سماء وردية اللون .

فى هذه الأثناء تتدحرج أولى علامات الضجيج ليقظة الحياة مختلطة بجميع أطراف نغمات الحياة داخل المدينة ، وتدور على البعد بتموجات كثيرة مثل رعد السماء المتماسك بالسحاب والمسافات ، حينذاك بدت الأهرامات الكبيرة التى تتجه مباشرة تجاه السماء بغرور ، وكأن كل واحد منها حارس مصر الأبدى ، هناك أيضًا نخيل البلح الذى يستر أطلال منفيس ... على اليمين صحراء هليوبوليس التى ظهرت منها الدعامة الأصلية لجميع فروع المعرفة والفن .

تمتلئ مروج الجيزة ببريق نضر وتبدو جميع أطلال مصر القديمة والقباب المهدمة والمطاحن المهجورة ؛ والبوم المعمر ، وعلى مقربة كبيرة بدت مدينة القاهرة وقد غزاها النمل على شكل بيوت المحشر ، وتغمر الأشجار والميادين وكل مكان وكل شيء بفيض من الأنوار .

يتلاعب ضياء الشروق يتسلى بآلاف من الدمى المتنوعة الألوان مثل طفل هاوٍ فوق الأشرعة الذهبية البيضاء الجميلة التى تسير منزلقة فوق النيل بانسيابية مرحة ، وتستمر الصحراء وتمتد على امتداد البصر داخل لون وردى رقيق ذى ظلال زرقاء رقيقة ، والأماكن المكشوفة مغطاة بالألوان والضياء ، والمناطق التى بلا ضياء تبدو مشحونة باهتزاز الروح .

يشاهد داخل المدينة أحجار وضياء ، ظلال وجلاء ، تراب وذهب فتبدو متألقة بهذا التناقض الغريب ، حيث تفور منارة نارية مثل فن وجمال حلزونى من فوق قبة منقوشة حفرها نقاش هاو . وهناك على البعد تتجول النساء المرتديات زى الحداد تماماً بين المدافن الحديثة فى المقابر الواسعة فوق طريق الموت الأسود ذلك ، وكأن كل واحدة منهن ظل مأتم .

كانت جميع المناظر تبدو مثل شعر عربى وخيال من السراب ، فهى جميلة ولطيفة مثل صالة من النور والحور ... القصور والأطلال والأشياء المتبقية من عصر الكليم ، الأماكن المغطاة بغبار الأعاصير . كل لوحة منهدمة ، جميع النقوش والأنقاض ، الآفاق تصف مرئية داخل أبعاد من السحاب ، النيل المبارك ، كل شىء ، وكل مكان له لذة الحياة المرتعشة تحت ضياء شديد بحرارة معتدلة .

خرجت من هذا المكان الساحر الملىء بالضياء من أجل الدخول إلى متحف بولاق ، ولأن الجزء الأعظم من الكنوز القديمة المدفونة تحت الأرض المصرية قد انتقلت إلى أوروبا فإنه لا يمكن أن نصادف اليوم فى متحف بولاق النفائس العظيمة للعصور القديمة ، ومع ذلك هناك نفائس مختارة بين الأشياء التى تملأ ذلك المبنى الجميل على شاطئ النيل حيث ينسى الإنسان تجاهها كل الأفكار الجسيمة ، ومعظم تلك النفائس تشكل هياكل بشرية أمر بدفنها ملوك العصور القديمة فى زاوية بعيدة خفية فى صحراء لا حدود لها ، برغبة مشتركة فى البحث عن عالم مادى ، وعن عالم مدفون يشيدونه حينما تقوم وتبعث هناك حياة .

وتوجد التماثيل المصنوعة من الحجر ومن المعدن ومن كل شىء ، ولا سيما يوجد تمثال جميل مصنوع من الخشب ، ولم يكن من الممكن تحديد شخصيته ، إلا أنه أثر ذو مصادفة غريبة حيث إنه بسبب مشابهته لشيخ قرية فقد أطلق عليه اسم شيخ البلد .

ونظراً لأنه ليس لدى حظ فى علم الآثار القديمة على الإطلاق ، فإن المعلومات التى سوف أستطيع أن أقدمها بخصوص المحتويات الثمينة لهذا المتحف الغنى سوف تنحصر فى الأشياء المتفرقة التى ظلت متعلقة بذهنى عن تذكر الإخطارات السريعة لمرشد موثوق به، فقد كانت توجد خواتم للملكة "حوتب" التى عاشت قبل ثلاثين أو أربعين قرناً ، وسلاسلها وأساورها وأقراطها وقلائدها ، وجميعها مصنوعة من اللؤلؤ ، ومن الميناء المطلى بالذهب ، وهى مطرزة برقة وجمال لا يمكن تقليده ، فى الحقيقة كانت هناك أشياء جميلة جدا كانت تتزين بها المرأة قبل ميلاد الكليم .

وفيما عدا هذا فكانت توجد تماثيل الهياكل التى تبقت من عصور الظنون والخرافات ، وكانت تحتل مكانة مهمة جدا ، ومن بينها ما هو مصنوع من الجرانيت ، والتماثيل الكبيرة مصنوعة من البرونز ، وتوجد التماثيل الصغيرة الخضراء مثل الزمرد ، والزرقاء مثل الفيروز ، والمصبوبة من ميناء رقيق ، وتبدو فى جهة السيدات المصريات الفرعونيات مع أمشاطهن وإبرهن وخواتمهن ، وفى جهة أخرى تبدو معاطفهن ومقامرات العصور القديمة مع الشطرنج ، وفى ناحية ثالثة توجد جميع الآلات والأدوات مع عملات العصور السابقة ، وتوجد هنا وهناك تماثيل أعاظم القرون الأولى بعضهم جالس وبعضهم قائم وبعضهم فى يديه بردى ملىء بالكتابة ، وبعضهم يضم يديه إلى صدره باحترام وكأنه كان يصعد للراحة الأبدية ، وبعضهم يقدم قدمه اليسرى بخطوة بطيئة وكأنه كان يريد الدخول إلى عالم الحياة من جديد .. وهناك تمثالان من الحجر المصبوغ ، وفى ضخامة طبيعية وهما يستحقان المشاهدة ، خاصة باعتبار قدمهما أو جمالهما . وهاتان النفيستان الفنيتان اللتان تعود إحداهما إلى الأميرة نفرت والأخرى إلى زوجها ، أو أخيها " الأمير رع حوتب " ، وقد اكتشفتا أخيراً وأخرجتا بالرغم من أنهما صنعا قبل سنة من بناء الأهرامات الكبيرة ، والغريب فى الأمر أنه لم يظهر عليهما أى أثر للتلف والخراب فى أطرافهما على الإطلاق ، وكانتا كاملتين وجديدتين وكأنهما قد صنعتا بالأمس ، وكان يتجلى فى أعينهما المصنوعتين من زوج كرة بلورية لكل منهما ، أشعة من ضياء مدهش ومذهل وكأنهما حقيقيتان . وتوحيان بمنظر حياة خادعة ، ثم مومياوات الفراعنة مع توابيت أولاد الفراعنة ، وإن كانت هذه الآثار

القديمة التى تبدو هويتها مبهمة داخل التواءات لا نهاية لها فهى جديرة بالتعجب والدهشة .

إلى هذه الدرجة كان صمودهم لعدة مئات من القرون ، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت مناظرهم جميعا قذرة ومزرية ، فقد تحنط معهم كل شيء ، فليست نعوشهم وأجسادهم هى التى تحنطت فقط ، وإنما تحنطت ملابسهم وأحذيتهم وغذاؤهم وباروكاتهم واللحوم والخضراوات والفواكه ، كل هذا قد تم تحنيطه .

كانت مومياء " رمسيس الثانى " من أهم هذه المومياوات ، وليست هناك حركة فى تلك الصالونات والقاعات الواسعة التى تنفذ إحداها على الأخرى سوى أصوات أقدام عدد من الزائرين ، ودمدمة واحد أو اثنين من المرشدين ، وكأن هذا الصباح الذى ملأ مقدمة التاريخ بضجيج الحياة قد مزج معنى النصيحة والتخويف بركود أبطال الإنسانية الصامتين . وتشعر الروح تجاههم وكأنها تنسحق تحت آلة ضغط ، ويشعر الجسد كله ببرودة سيئة ، وتظل قوة الحياة داخل الجسد قلقة وفى رجفة خوف ، وكنت أعلم أن مشاهدة هذه المناظر القديمة ذات أهمية تاريخية ، ولكننى شعرت بتأثيراتها الأخلاقية . فهناك دروس عبرة فى متحف من أجل عقل حى يستطيع أن يفكر .

سوف أنهى الجولة اليوم بنزهة فى حديقة شبرا ، هذه الحديقة هى متنزه يشاهده كل كبار القاهرة ، ومعظمهم من السيدات والرجال أيام الجمعة والأحد ، والطريق الذى يصل إلى شبرا جميل ، إلى درجة أنه لا مثيل له على وجه الأرض ، ويمكن القول بأن طرفى ذلك الطريق

الذى يشكل طريقًا عاليًا على شاطئ النيل مرصوفان بالحصى ومحاطان بالأشجار الضخمة والمظللة ، وأشجار التين ذات النوع البرى الذى يطلق عليه العرب " جميز " .

تتلاقى الأشجار الجميلة مع هذه الأشجار الكبيرة فتشكل قبة خضراء زمردية اللون فوق الطريق المرصوف بالحصباء ، وتشكل كتل الأشجار الخشبية أعمدة قوية كل واحدة منها تنثنى ذات اليمين وذات الشمال بهوس غريب ، والطريق مريح للقلب وكأنه مهد مظلل تحت هذه الأشجار ، وتهتز الأشعة الضوئية المخلخلة التى تنفذ من بين الأوراق وكأن كل واحدة منها خط غبار ذهبى .

اليوم هو الجمعة ، وطريق شبرا يضج بالسيارات واللاندويات والفيتونات وأنواع الخيل ، ويربط بالخيل العربات المخببة ، ونادراً ما تتداخل قوافل الجمال ، وإلى جوار الطريق المرصوف بالحصباء هناك طريق مكسو بالقصب تمامًا ، وهناك على البعد بعض قرى القاهرة المجاورة ، وفى النهاية يوجد الأفق الصحراوى الذى يبدو على شكل خط أصفر باهت .

ويصادف أحيانًا أو نادراً قصور النبلاء والأشراف ، وقصر الخديو مزين بينهم ، وتسير السيارات بسرعة كل منها مثل السهام ، والسيدات العفيفات فى اللاونديات الواسعة ذات الجوانب الزجاجية ، والسيدات المتبرجات الطائشات فى الشراعات ذات الصاريين ، وفى الفيتونات ، والضباط غالبًا على الخيل ، والسائحون الإنجليز فى الغالب على الحمير ، وبينهم عدد من الشبان البيض ، يتدفق كل هذا الخلق بسرعة خاصة ، ويحيط كل شىء طبقة غبار رقيقة ، وبينما كان هؤلاء

الناس يسيرون وهم يتنفسون ببطء لحرارة هذا الطريق المعتدلة والمرطبة للروح ويستشفون من كل روائع المكان المحيط بهم حماسة لذيذة ! فإننى لم أستطع فهم معنى ركضهم وهم يسحقون بعضهم البعض ، وكأنهم يهجمون لمشاهدتها مثل مشاهدتهم لكسوف القمر .

تغطي حدائق القصر الذى بجوار الطريق بالأشجار الهندوصينية النادرة ، وأشجار البراهمة المقدسة ذات الأوراق الحادة والكواسيه ذات الزهور الصفراء ، وأشجار الورد المفتح والنباتات الجذابة ذات الأوراق الياقوتية اللون التى يطلق عليها غالبًا اسم " بووانزتيا " وأغصان البرتقال والليمون واليوسف أفندى ، وكل واحدة منها منحنية تحت فواكه ذهبية اللون .

أتيت إلى شبرا وقد شاهدت بانوراما تلك النباتات النادرة داخل هذه الظلال الطبيعية ، وتنفست روائحها الرقيقة ، وكأننى فى حلم ربيعى معطر . والشيء الذى يجذب الاهتمام فجأة فى هذه الحديقة التى هى ذكرى للخديوى المتوفى محمد على باشا ، هو إهمالها وتركها فى حالة يؤسف لها ، فحوض المرمر الكبير الذى يتوسطها ، وهو حوض مملوء بالماء الذى يتدفق من أفواه التماسيح الحجرية المفتوحة ، قد تآكل تدريجيا كل ما يحيط به وأصبح فى طريقه للخراب ، فتلك الأشياء الجميلة التى شيدت فى ظل ثروة وتكلفة باهظة سوف تختفى بغبار الزمان تدريجيا فقد انهار فوق كل مكان سواد يمزق القلب ، باستثناء الأزهار وأشجار الأقاليم الحارة المنبتة بين دلال الحرارة ونعيم الضياء مثل وجه نبيل أوروبى .

ضجت الشوارع بالسيدات والأطفال والرجال وهم يتجولون داخل هذا المشهد المنهار ، هناك دائمًا القادمون والغادون ، وقد اختلطت أنا أيضًا بهذه القافلة الأخيرة ، لأنه قد حل المساء حينذاك ، وقد وجدت زحامًا أكثر في طريق العودة ، فقد كان القادمون أكثر من العائدين، ويجب على المتنزهين هنا أن يعتادوا على الحضور في أوقات متأخرة .

وكانت الشمس قد اقتربت من الغروب في الأفق داخل هالة كبيرة ياقوتية اللون ذهبية ، وقد تلونت جميع الصحارى بلون أصفر لذيذ، ويبدو ضياء الأفق مثل أوراق ذهبية بين أوراق شجر الجميز الجميلة. وكانت كتلة الأهرامات العظيمة جاثمة وكأنها غامرة داخل زرقاوية فاترة تجاه الاحتراق المضيء في الآفاق حيث تنخفض الحرارة شيئًا فشيئًا، وأصبح الطقس باردًا ، وكأننا قد تحولنا إلى موسم آخر في بضع ساعات .

الرسالة الحادية عشرة

من القاهرة

صباحًا ، بينما أشرقت الشمس منذ قليل ، وبينما كان كل مكان قد تزين بندى وقت السحر الأخضر بسبب غياب زرقة الأفق ، وبسبب غوص حدود الصحارى داخل شدة أضواء النهار يوجد تذوق روحانى عندما سلكنا طريق الجيزة بهدف جولة سوف نصل فيها حتى الأهرامات ، ومن أجل هذه النزهة فإن أنسب وسائل النقل هى فرس أبيض .. اتفقت آراء جميع الآنسات السائحات وكذلك الرجال على هذا.

والخيول هنا لا تشبه خيول ديارنا ، فهى كأنها فرس سباق. رءوسها مشبعة بالهواء بغرور تام ، وتحفر بحوافرها بجمال تام، ويصنع العرب أربعة نعال للزيادة فى سرعة الفرس وهى هادئة ومطيعة، وذكية ورشيقة الحركة ، تقطع بسهولة مسافة اثنى عشر كيلو مترًا فى الساعة الواحدة ، وهى تشكل عنصرًا أساسيا جديرًا بالملاحظة فى القاهرة .

والقاهرة بدونها ستتشابه مع بروسه بلا ينابيع حارة ، إلا أنه توجد هناك مشكلة يجب التنويه بها للخيل ، وهى أصحابها ! فلا تظنوا أنكم

ستنالون حقا أمراً على الخيل الذى سوف تمتطونه ، فهذا الحق منسوب فقط لصاحب الفرس حيث يأخذ حقًا أمراً يفوقكم بسببه ، ولا يشعر صاحب الخيل مطلقًا بضرورة الانصياع للزبون ؛ فهو يركض دائمًا ويجعل فرسه تركض بسرعة ، وأحيانًا يسبب حثه له بالسياط مجلجلاً به أحيانًا أن يقفز الفرس المسكين واثبًا وهو يثير الأرض بحوافره هكذا بطريقة غير منتظمة ، حيث يجبره الفارس الذى يمتطيه أن يكون دائمًا متبصراً ومتيقظًا ، ويستهلك مهاراته دائمًا ، وعند الخطوة العاشرة فما فوق يتدحرج على الرمال مرة واحدة ، وإن لم يضرب صاحب الفرس ، ففى كل دقيقتين تعلو صرخاته : " آخ " صرخة عميقة شديدة من صدره الشاكى ، فى هذا النداء الخيشومى كل تهديد وبداية للضرب والجراح تماماً ، ومن جراء هذا ينهض الفرس بكل قوة وكأنه قد أخذ سياطًا قوية جداً .

ولابد أن يصرخ الفارس قائلاً : " شوايه ، شوايه " . والغريب أنه بينما يصيح الفارس غالبًا ما يستمر صاحب الفرس فى إطلاق صيحاته العالية " آخ ، آخ " حينذاك ينتزع الحيوان المسكين الذى يظل بين هذين القائدين المختلفين متحيراً ، لماذا يقفز ؟ وماذا سيفعل ؟ فينتزع نفسه بالعصيان والتمرد .

وفى النهاية يظل مضمحلا ودامياً حتى تنقطع أنفاسه ، ومع ذلك ليس هناك ذنب للحيوان على الإطلاق ، فكل تلك الحركات اللاشعورية سببها والمسئول عنها هو صاحب الفرس ، ويجب ألا يكون ضمن شروط الاستئجار تدخل صاحب الفرس بينكم حين تستأجرونها ، وفرس مصر ضمن هذا الشرط وسيلة مناسبة جدا للتنقل .

وفى الحقيقة فإن الطريق المؤدى للأهرامات من القاهرة جميل جدا ، فأنتم تجدون أنفسكم تحت سماء شفافة على امتداد الطريق ، وتتمتعون بهواء صاف ، وفوق أرض مفعمة بهدوء مريح ، وبين أشجار الأقاسيا اللطيفة ، وبعد عبوركم النهر عن طريق كوبرى ضخم يطلق عليه اسم قصر النيل ، متتبعين فترة شمال الشاطئ ، وتستنشقون هواء نخيل البلح البارد ، وتشاهدون منارات القاهرة التى تتلألأ داخل ضباب الصباح ، وتعبرون بمحاذاة حديقة الجيزة ، والمتحف .

ثم يعود الطريق فجأة ويتجه إلى هضبة الأهرامات العظيمة على خط مستقيم ، وقسم من هذا الطريق الأخير واسع ومحاط بالأشجار ، ورصيف كامل مرصوف بالحصباء ، وطبقًا للرواية فهذا الطريق المرصوف بالحصباء طويل ، وطوله يمتد لعدة كيلو مترات ، وكان قد شيده الخديوى المتوفى " إسماعيل باشا " فى بضعة أيام ، وحشد لذلك آلاف العمال . وكان سبب إقامته هو أن الإمبراطورة " أوچينى " التى قدمت مصر لحضور مهرجان أقيم بمناسبة افتتاح قناة السويس قد اشتاقت إلى رؤية الأهرامات ، ويتجه هذا الطريق المرصوف بالحصباء مباشرة إلى الأهرامات البعيدة بين حقول القطن والذرة .

وتبدو تلك الحقول على جانبى طريق قناة منشقة عن النيل ، وتهتز ظلال نخيل البلح غير الواضحة فى مياه القناة العكرة .

وتبدو القرى السنجابية اللون مع الأكواخ المنخفضة فى صفوف ، وهى مشيدة على التلال البعيدة للنجاة أحيانًا من فيضان النهر ، وتدير سواعد الفلاحين العضلية نصف العارية المحاريث فى الحقول ، ويتجه

نحو المدينة جمل محمل أمام عربى يسير متواكلاً مستنداً على عصا طويلة بخطوات موزونة وبطيئة ، ومن على البعد تجذب الأنظار الصحراء التى تتلألأ بتموهات لبدء شروق شمس جديدة ، وهى توضح انتهاء حدود الإقليم الأخضر ، وساحل رمال البحر المضطرمة المحمومة .

تتضخم الأهرامات الثلاثة التى تبدو وتختفى فى معظم الأحيان مثل أشباح سنجابية اللون لكل هرم منها داخل إطار من رمال لا نهائية بين أغصان رقيقة لأشجار الكوسيه ، ويبدو حينذاك عدم استواء سفوح الأهرامات ، بل على العكس فهى متعرجة وبها زوايا كثيرة وكأنها مثل سلم ضخم مصنوع من صخور منفصلة من قاعدته حتى ذروته ، ودرجاته واسعة وعريضة ، وهو يرتفع تجاه السماء بدرجة ارتفاع مائل ومروع وغير منتظم .

وحينما ترى الأهرامات التى لم تستطع أن تعطى انطباعًا قويا على النفس عند رؤيتها من أماكن القاهرة المرتفعة ؛ إلا أنها تتحرك على مقربة منها جميع ملكات الحياة تحت تأثير شديد جبار ، وتحيط أعينكم بشرذمة حقيرة فى نهاية هذه المنطقة والتى لابد وأن يكون طريقها أكثر إفادة ، فيطرحكم أرضًا الأطفال السمر العارون تمامًا ، أو المستترون أنصافهم بخرق بالية قذرة ، وهم يلتفون فى دائرة مطوقة عند الكيلو مترات الأخيرة للطريق ، وهم نافذو الصبر ، ويثيرون فورة من التهور على كل عروق رحمتكم ، بأيد مرتعشة ممتدة من كل جانب ، ويهرعون ويسرعون أكثر من الخيل ، وجميعهم يصرخون بصدى خيشومى متولد عن التعب ، وحركات رئاتهم الزائدة عن الحد قائلين " بقشيش " وهم

يقسمون صيحة سؤالهم إلى حرفين هجائيين ، فيؤثر هذا الأنين المستجدى الذى يشترك فيه جميعهم فجأة على جميع أعصابكم وكأنه مجموعة من الإبر تغرس وتجرح مسامعكم ، وإن استطاع الآخرون فهم تأثركم هذا يزيدون من صيحاتهم ...

ولا تظنوا أن حركة سخية من طرفكم تستطيع أن تنقذكم من أيدى هؤلاء المزعجين بل على العكس ، فإن كنتم قد قررتم ببلاهة ألا تردوا أيادى العشرة أشخاص فارغة ، فسوف يخرج عليكم من الأماكن التى لم تتوقعوها من هنا ومن هناك مائة شخص ، من بين الرمال ، والأشجار، وداخل الحقول ، تجتمع بسرعة مذهلة ، وتبدأ مرة أخرى حقلة الشحاذة الموسيقية السابقة من جديد ، ولكن هذه المرة بشدة تبلغ عشرة أمثالها ، ويستمر هذا التعذيب حتى وصولنا بالقرب من الأهرامات ، ثم يتشتت هذا الكابوس تدريجيا ، وتُوسع صدوركم نجاة وخلاصًا ، شهقة عريضة متأوهة ، وتقولون " أوخ " عميقة بلا تردد وتعتقدون حينذاك أنكم تخلصتم من تلك المادة الدبقة لأولئك المزعجين ... لكن هيهات !

فحينما تأخذون نفسًا عميقًا للمرة الثانية ، تقعون وسط دائرة لجماعة جديدة ملحة لا يتركونكم ... وهذه المرة ليس المهاجمون فيها أطفالاً ، وإنما هم لأشخاص ملتحون وهم لا يريدون "بقشيشًا" ، وإنما يعرضون الإرشاد ، وإن رددتموهم يصرون ، وإن أبعدتموهم يبتسمون ، وعندما ييأسون تمامًا يظهرون ثباتًا فى تقاضيكم .

وهم أفراد قبيلة خاصة وظيفتهم الحراسة فى منطقة الأهرامات ، والتطفل على الزائرين ولا أدرى كيف يؤدون وظيفتهم الأولى ، لكنهم جادون فى وظيفتهم الثانية ، غير متكاسلين على الإطلاق . والفرق بينهم وبين العلائق والطفيليات العادية التى نعرفها أن هؤلاء لا يمصون دم الإنسان وإنما يكتفون بتجفيفه فقط ، وينسحب هؤلاء المتطفلون بسبب إصرار دفعكم لهم ، ثم تجدون أنفسكم داخل تجويف كبير للحظة واحدة ، ثم تبرز تجاهكم الأهرام فجأة ، وتبدو وكأنها تسحق بضخامتها كل قوى التحمل ، وتطل عليكم السماء والمسافات والأفق ، وكل شىء يظل مكونًا من عظمة حجرية مموهة بالذهب مع ضياء الصباح تجاهكم .

تؤلمكم الجهود التى بذلتموهما لإحاطة هذا الحجم بحويصلة خيالكم ، خاصة وأن التفكير فى عمر هذا الشبح الهندسى يبدو شيئًا محالا عقليا ، وبالنظر إلى أحجام هياكل الأهرام فهى مهيبة وذات معان مفيدة إلى حد كبير ، وبالنظر إلى الذكريات التاريخية التى تثار فى الذهن ، فهى مبهمة ومحيرة ، ألم تكن هذه الأعجوبة المشيدة التى وصلت إلى السحاب مرتفعة على شكل هندسى ، فى الواقع نقطة مركزية لجميع دائرة الحضارة المصرية ؟ ألم تكن معظم الأحداث الكبيرة التى حدثت فى تاريخ ما قبل القرنين تدور حول تلك النقطة المركزية ؟!

وأكوام هذه الأحجار العالية التى تطبق على كل زائر مستنشقًا هواءً ثقيلاً من التعجب منذ الوهلة الأولى ، عندما يلاحظ أنها ليست شيئًا سوى قبة مدفن فرعون ، فهى تظل أعلى وأرفع مقامًا ، وأسمى منبعًا للفكر التحليلى سواء لمن أمروا ببنائه أو لجميع أرواح مشيديه ،

وكأنه معمر معنوى ، لماذا شُيد ؟ ولماذا انشغلوا به وحشدوا هذه الصخور الجرانيتية ؟ كل هذا مجهول ، وجواب كل سؤال مبهم والإيضاح مستحيل .

ويسحق هذا البناء المخيف الذى قاوم منذ القدم قبضة كل القوى المهاجمة المخربة ، روح الزائر بكل الاعتبارات ، وبالعكس صارت لهذه الأكوام الجرانيتية اليابسة العظيمة التى خربت كل شىء ، وسيلة الحياة ؛ فالقفار القاحلة التى تظهر كل شىء على هيئة نعش قد أخذت على العكس منها شكلاً وإطاراً حيا ومناسباً جداً، فعندما اتحدت الصحراء مع الأهرام ، – تلكما القاحلتان – تحقق عمر جمادى يحاول الامتداد نحو الأبدية. وتستطيع الأكوام الحجرية حينذاك أن تعيش داخل الرمال تحت شمس هذه الديار المحرقة، وقد أنقذها ارتفاع مواضع الأهرامات عن تراكم طبقات النيل الطينية .

ويجب على هذه العجائب الدنيوية ، وهذه الأبنية المشهورة للأزمنة الغابرة أن تجلس وحيدة مغرورة هكذا بين خرير أمواج نهر النيل وسكون الصحراء البائدة ، وكان يجب ألا تحاول المبانى الحديثة الدنو منها، ولكن حماة المبانى الحديثة الذين يتلفون أثراً مهما للإنسانية يحطمون هذه القضية المهمة ، حيث شُيد بالقرب من الأهرامات هناك فندق يطلق عليه اسم " مينا هاوس " وتشرب فيه الفتيات الشابات اليوم الشاى فى الساعة الخامسة ، وتوجد مجموعة من ملاعب التنس الخضراء لمحبى أداء التمرينات العضلية .

ولم يتم الاكتفاء بهذا الفندق فقط ، بل سيبدأ فى إنشاء خط ترموای معلق من قاعدة الأهرام حتى ذروته ، وتجرأت شركة صناعية بتقديم هذا الاقتراح ، والحمد لله أن هذا الاقتراح لم يكن من الممكن أن ينال رداً غير رد عام .

وحينما وصلت إلى قاعدة الأهرامات ، كان هناك ذوى الجلابيب الزرقاء التى تشكل القبيلة الحارسة . وكانت توجد سيدتان أجنبيتان فقط ، بالإضافة إلى عدة رجال من العرب ذوى الطواقى البيضاء ، وعدد من الخيل حيث صوبت هاتان المرأتان نظراتيهما إلى رجلين صعدا حتى منتصف الأهرام ، ولا ريب أن هذين الرجلين الصغيرين ينتسبان إلى هاتين المرأتين، وكانا يصعدان بسرعة من زاوية الأهرام المثلثة ، وشيئًا فشيئًا غابا حتى صار حجمهما مثل ذبابتين بيضاويتين حيث اقتربا من القمة، وأحست السيدتان الموجودتان أسفل سفح الهرم بالفرح ، وأصابهما الانفعال ، وكان قد فتنهما نجاح هذين الرجلين المنسوبين إليهما .

ولست في الحقيقة من هواة تسلق هذه الصخور الكثيرة التى تصل إلى السماء ، ولا يشغل قلبى أمنية الصعود إلى الذروة وإزعاج أربعين قرنًا النائمة هناك أيضًا ، ولكننى أجبرت على هذا الصعود ، لأن هاتين المرأتين الأجنبيتين كانتا تتفحصانى بعين يشوبها حب استطلاع خفيف " شاب نحيف ، ستظل أنت نادمًا مثلنا ، فأنت لا تستطيع أن تفعل ما فعله زوجانا ، فليست فى ساقيك قوة هذا الصعود " .

وكأن هذه النظرات التى تحمل معنى الشفقة تغضبنى ، وقلت لنفسى :

" فليكن ما يكون ، سأصعد " .

يعد الصعود إلى الأهرامات الكبيرة أحد الأشياء التى تجمع غرائب الدنيا المدهشة ، وتتعادل متعتها مع عذابها ، وإن أمكن المغامرة فى الصعود حتى الذروة ، فإن هناك أشياء تُنسى هذا الإمكان المخيف ، ومن بينها الإرهاق ، حيث تتحطم جميع العظام ، وتصل إلى درجة فرم جميع اللحم ، ويتعهد الموظف وحراس الأهرام مهمة صعود زائريه مقابل مبلغ مقطوع من قبل حكومة طرف قبيلة بدوية مكونة من ثمانية أفراد تقريبًا . وهذا المبلغ هو عشرة قروش مصرية وبالتقريب اثنا عشر قرشًا .

وبسبب أن جميع مدار حياة هذه القبيلة عبارة عن هذه المكافأة للصعود فقط ، فإن عيون المساكين لا تكف عن الطريق ، وعندما يرون أن زائرًا قد جاء ، يتجلى فرح شديد فى أعينهم السوداء مثل قطع الفحم ، يجيء شيخ القبيلة بالقرب من الزائر ويشاوره ، وعندما يقرر يأمر الشيخ اثنين من أفراد القبيلة ، ويظل هذان الشخصان مسئولين عن كل أمر ، ثم تبدأ كوميديا الصعود ، ويبقى كل زائر حين الصعود والهبوط تحت أمر بدويين كلية ، وكأنه عبدهما .

وبسبب أننى كنت قد استجبت لاقتراح الشيخ ، فليس من الصعب الرجوع إليه الآن ، لكنه لا توجد وسيلة أخرى للصعود هنا ، أو ينبغى الرجوع إلى الشيخ ، أو كان يجب علىَّ أن أنسحق تحت نظرات المرأتين

الأجنبيتين المتهكمتين ، وجاءت الأولى سهلة التحمل أكثر فى تصغير صورتى ، ورافقنى الشيخ باثنين من البدو أيضًا ، وانضم إليهما اثنين من العرب المحليين كذلك ، حيث يمسك أحدهما بآنية مملوءة بالماء فى يده ، وكان الآخر مغرماً بالإرشاد ، وتبدأ مهزلة صعودنا على شكل هيئة حربية مختلطة مكونة من خمسة أشخاص ، وبسبب أن الصخور الجرانيتية التى يتكون منها الهرم ، تشكل وحدات منفصلة ، فإن سيقان شخص طويل القامة جدا لا تكاد تصل إلى درجة منها حتى تستطيع أن تعبر الأخرى .

ومع ذلك يصعد العرب والبدو ، ويقفز اثنان من البدو الذين فى رفقتكم إلى درجة عالية ، وأنت تمد ذراعيك من ناحية لأيديهما ، ومن ناحية أخرى تقرب إحدى قدميك للدرجة العالية ، وساقاك مفتوحتان متباعدتان إلى القدر الممكن ، ويسحب البدويان ذراعيك بكل قوتهما ، ويرفع جسدك على كتفى مرشدك ، وتجمعون بقاياكم جميعها لرفعه ، وترتقون درجة بصعوبة كبيرة ، مع هذه الجهود المشتركة تتكرر هذه الحركة مائتى مرة افتراضًا عندما تصلون إلى ذروة الأهرام .

وستدركون حينذاك أن الإنسان عندما يصل إلى ذروة البناء ينقطع نفسه ، وتتقلص ذراعيه ، وتنثقب سيقانه ، وتتكسر عظامه ، ويفقد وعيه من التعب ، ولاسيما أنه حينما تعلمون أن السبيل إلى الصعود فى هذه الرحلة تكمن فى درجة يناسبكم فيها فقط رقة أصدقائكم وتجيز لكم إجراء هذا السلوك بثياب داخلية ، وتبدأون فى التوحش من شدة تعبكم .

فقد حل بى التعب بينما لم أزل فى المدرجات الوسطى ، لكننى كنت أقول لنفسى : ليس هناك ضرر ولا بأس ، عجبًا أننى استنتجت خطأ تحليلى لنظرات تلكما السيدتين إلىَّ .

ثم نظرت إلى أسفل الآن لهاتين السيدتين على الرغم من ذلك لتحليل معنى نظراتهما ، يا للأسف ، لقد انتقلا إلى الجانب الآخر للأهرام لرؤية هبوط زوجيهما ، واختفيا عن الأنظار ، وكنت أريد رؤية مكافأة لما حل بى من تعب مروع ولو بتعبير التقدير فى أعينهما ، وعلى الرغم من ذلك فلم أستطع أن أشاهد شيئًا آخر سوى منظر الفراغ مستهزئًا الذى ظل باقيًا فى مكانهما ، ففكرت حينذاك :

ربما لم يحمل ما رأيته فى عينى هاتين السيدتين معنى آخر سوى لا مبالاة جادة ، وكنت أنا مرة أخرى الذى اتهمهما بذلك المعنى " الشفقة " ، تلك الرحمة الممتزجة بالتهكم ، وكان إحساس العجز والنحافة هو ما أدركته فى نفسى أنا ، ولا ريب أننى ظننت عندما نظرت إليهما أنهما أدركا أننى لست رشيقًا ، واكتشفتا هذه الحقيقة ، ولا شك أن الشىء الذى دفعنى أولاً لهذا الظن ثم للجهد الذى لا يطاق سببه هو ضعفى ، ولا شبهة أننى إن كنت رجلاً كبيراً ذو لحية بيضاء فسوف تنظرا إلىَّ هاتين السيدتين بنفس النظرة مرة ثانية ، لأننى لست شيئًا سوى أجنبيا بالنسبة لهما .

فربما لم يهتما بى حينذاك ، أدركت الآن أننى أستحق جدا مدى ما حل بى من تعب ، ومع ذلك دأبت على الصعود ، وكلما ارتقيت يبدو وكأنه يزداد ارتفاع الهرم ، انظروا إما إلى الأرض أو إلى السماء ،

سوف تشعرون أنه ينتشر فى جسدكم رجفة باردة ، وتبدو وكأنك تطير تجاه الأسفل من تحت أرض أقدامك بصورة مذهلة ، وتبدو ذروة الأهرام وكأنها تفر إلى أعلى دائمًا .... ويحدث فى رأسك دوار غريب لروحك بالإضافة إلى قلق مؤثر .

وعند الوصول إلى منتصف الهرم يقترح عليكم أصدقاؤكم الاستراحة بسبب التعب ، وتقبلون الاقتراح قلبًا وقالبًا ، وتظنون أن الاستراحة فرصة لمشاهدة الأفق الواسع المحيط بكم .... هيهات ، فعندما تأخذون أنفاسكم الأولى سيبرز لكم المرشد القريب منكم أثرًا تقليديا من كل ناحية يريد أن يبيع لكم قطعًا من النقود الأثرية المعاصرة للهندوإيرانية قائلاً :

" موغالى ، موغالى " أى يقول :

" ليس غاليًا " بمعنى أنها رخيصة .

فلأتخلص من يديه قائلاً :

" موش لازم ، موش لازم " وبينما تقولون هذا وتحاولون الهرب من جملة أحداث قائلين :

" لا يا شيخ ، موش لازم " تجدون غيره يدلك أقدامك ، وثالثهم يصب على رأسك ماءً بارداً ، وفى النهاية ينهض رابعهم لقياس نبضك بمقدمة فخرية قائلاً : " أنا طبيب ... " .

وهم يصرون على ذلك ، فتغضبون وترتبكون ، ولكنك لا تستطيع أن تعرض عنهم ، لأنه ليس هناك إمكانية لكم للصعود ولا النزول ، وعندما

يستشعرون هزيمتكم يدمدمون جميعًا قائلين بفم واحد : " بقشيش ، بقشيش ... " .

وإن لم تستطيعوا أن تتخلصوا منهم ، فهم حتى إن أخذوا كل ما تملكون ، لا يشبعون ، ويقولون مرة ثانية : " بقشيش .. " ، فتغلقون أعينكم بحركة مدبرة فى هذا المكان بحجة التعب والإغماء والتظاهر بعدم فهم ما يقولون ... وتستمر وقفة الاستراحة هذه حتى تلك الدقيقة ، وفى أثناء هذه المدة لا يتطلع إليكم مطلقًا رفقاء طريقكم ، فتتضايق الأرواح إلى درجة أن الإنسان ينسى كل شىء إلا أن تظهر فى أيدى أولئك الرفقاء الأربع ، وهو يبكى معتقداً أنه أصبح لعبة فى أيديهم ... ثم يصرخ أحدهم قائلاً " هيا " وينهض الجميع فجأة ، لتبدأ عملية الصعود مرة أخرى .

وعند الوصول إلى الذروة هناك وقفتان ، وهى تماثل الوقفة الأولى أيضًا ، فمحال أن تأخذوا تذكاراً بصريا من هذا المنظر النادر الذى يقف منبسطًا بامتداد لانهائى تحت أقدامك ... وتحت النظارة ، وبين النظارة ، ويجرى رفقاء الرحلة الأربعة بحماس يظل ذكرى إلى الأبد فى خاطرهم جميعًا .

وفى النهاية تصلون إلى الذروة قاطعين ارتفاع مائة وسبعة وثلاثين متراً ، وعند الوصول إلى هنا يصيح البدو بصوت عال من فم واحد قائلين : " برافو " ، لماذا ؟ لا أعرف . هل يصفقون لك ؟ هل يصفقون لأنفسهم ؟ هل هو استحسان مبارك ؟ أو هى حيلة لإبهاج الرحلة المتعبة ؟ ماذا يكون ؟ لا أدرى ! لكنى فى الحقيقة خشيت وضحكت ، فقد تجمع

حولي مرة أخرى على أثر هذه الصيحة الفجائية بائعو الأنتيكة ، وبدأ المرشد بتعريفات تاريخية بلغة عربية أستطيع فهمها :

«نابليون ... أربعون إعصار ... دلحين واحد وأربعون إعصار ...»

وغالبًا ما كان مرشدنا العزيز هذا يدير حسابه وفقًا للسنة الهجرية ، في هذه الأثناء كان أحد البدو ينزل من ذروة هذا الهرم حتى قاعدته في عشر دقائق ، ويوضح أنه سريع الحركة إلى حد كبير ، وأنه سيصعد إلى قمة الهرم الآخر ثم يضحك وكأن قدرته هذه قد تركتني مديونًا ، ويدير قامته إلى ناحية ما بوضع متدلل ، ومد يده قائلاً : "بقشيش" ويريد آخر ثني ذراعي ويقول مرة أخرى : " بقشيش " .

الرسالة الثانية عشرة

من القاهرة

وبعد زيارة الهرم وأبى الهول كانت الأماكن الجديرة بالزيارة والمشاهدة هى مراقد الملوك والجوامع الشريفة ، وخصصنا لتلك الزيارة اليوم الثالث من وصولنا إلى القاهرة ، وبالنظر إلى أساس الفن المعمارى للجوامع الشريفة وأقسامها وأنظمتها والتى يبلغ عددها أربعمائة جامع فى القاهرة ، نجد أنه مشابه للجوامع التى نعرفها جميعها تقريباً وذلك كما يلى :

أولاً : هى عبارة عن ميدان أو ساحة فى وسطها فسقية للمياه منتظمة الشكل وكثيرة الأضلاع ، ثم يحاط ويجهز بالحصير أو السجاد ، ثم بعد ذلك تكون الحوائط التى داخل المساجد الشريفة مزينة بالآيات الجليلة المنقوشة بخط كوفى معتاد ، والقناديل فى نهاية السلاسل المتدفقة مثل سلسبيل حديدى فى قبته ، بيض النعامة ، والشرابة الحريرية والثريات ... والمنبر فى الوسط ، والمحراب جهة الكعبة .

ويعد جامع عمرو من أقدم جوامع القاهرة وهو فى القسم القديم من المدينة ، وهذا الجامع القيم الذى تأسس منذ ثلاثة عشر قرناً هو

خرابة أعيد تأهيلها ، وتصلى فيه اليوم الصلوات الخمس وهو الآن تحفة معمارية جميلة وكان خرابة معمارية نفيسة ، ويحكى المترجمون ويتفق معهم المؤرخون الصغار أن حضرة عمرو بن العاص فى أثناء بحثه عن مكان مناسب لبناء هذا الجامع الشريف قد صادف المكان الذى وجده قطعة أرض موروثة لثيب يهودية ، وأصرت هذه السيدة على الاحتفاظ بهذه القطعة ، وردت كل سعر وكل مكافأة ، حينذاك قرر القائد الرجوع إلى خليفة الزمان حضرة عمر الفاروق رضى الله عنه قبل اللجوء إلى الوسائل القهرية وأعمال السلب والنهب القاسية ، وعند وصول الرد أمسك بلجام رأس الغنم المرسوم بخطوط منكسرة مع خط مستقيم ، ولم يتأخر القائد عن إحلال العدالة فى البناء ، وقال لنفسه : " يا خليفة ، عدالتك موجودة ، فينبغى أن نتبع الخط المستقيم الذى هو طريق الإله ، ونتجنب الخط المنكسر الذى هو طريق الشيطان الرجيم " ، وأقلع فى الحال عن استعمال الشدة وطلب استدعاء الثيب الإسرائيلية ، وطلب مكاناً قدر فرو ثور مذبوح حديثاً فقط من قطعة أرضها ، ووافقت المرأة اليهودية ، لم تستطع أن تفهم الدقة واللباقة فى الأسلوب المتضمن لهذا الطلب . وبهذه الوسيلة الفعالة علا أول مسجد منير فى الأرض المصرية الإسلامية .

وعلى الرغم من أن جامع عمرو اليوم فى حالة من الانهيار والسقوط – كان ذلك فى الماضى، أما اليوم فالوضع مختلف قطعاً – إلا فإنه لم يتوقف عن إدخال التعجب والدهشة إلى أرواح الزائرين أيضاً .

يحمل خمسون عموداً أو ستون – من قطع الرخام السماقى أو الجرانيت – القبة الآن بكل عظمة ، وقد جمعت هذه الأعمدة الجميلة

التى وصل عددها فيما مضى مائة وخمسين عموداً من المعابد القديمة - طبقًا لرواية المرشد - بل إنه قد أطيلت الأعمدة القصيرة بتيجان أعمدة مختلفة ، بسبب أنها لم تكن فى مستوى ارتفاع واحد . ويرى اليوم قسم من تلك التيجان المنقوشة بين أنقاض الأعمدة المنهارة ، وفى أماكن مختلفة هنا وهناك فى الجامع الشريف وفى الداخل لا يوجد اليوم قنديل ولا حصير ولا سجاد ، ويشعر فى كل شىء بحالة من البلى ، إلا أن العمود الخاص الموجود جهة المحراب ما زال هو وعمودان فى المدخل محتفظًا بحالته وجدته .

ويعد جامع طولون أقدم جامع بعد جامع عمرو ، وهذا البناء الذى أمر بإنشائه أحمد بن طولون هو أكبر جوامع القاهرة المباركة ، وكان هدف مشيديه هو تشييد شيىء ضخم للغاية وغير قابل للانهيار .

وفوضت هذه الوظيفة لمعمارى مسيحى كان من ضمن المحبوسين ، وبعد أن أخلى سبيل المسجون ، وأنعم على شخصه بخلعة خاصة منحه مائة ألف دينار مقابل التكاليف المبدئية ، وأوصى عند إنشاء هذا الجامع الذى لا مثيل له ، أن لا يكون هناك مادة قابلة للاحتراق مطلقًا لا الخشب ولا الأعمدة ، فهو يتكون من الآجر والجص فقط ، وغير هذا لن يكون فيه عمود غير عمودين ينصبان جهة المحراب فقط داخل الجامع الشريف ، وقال ما يلى وهو يذكر فى النهاية :

" إن أصاب الخراب ذات يوم كل المدينة بصورة شاملة بفيضان النيل أو حريق عام ، ينبغى أن يظل دائمًا الجامع الذى شيدته أنا ، وأنا أريد بناءً مشيداً على هذا الشكل " .

وكانت توضع منارة هذا البناء الرصين موضع إطناب شديد المرشدين فكانوا يشرحون بابتسامة غرور خفيفة على شفاههم قائلين :

" كان أحمد بن طولون شخصية جادة للغاية ، فهو لا يميل مطلقًا إلى اللهو واللعب ، فهو يعمل دائمًا ، ويهتم دائمًا بالأمور المهمة ، إلا أنه كان نادراً ما يضيع دقيقة واحدة من عمره ... كان فى تلك اللحظة ينزع ورقة واحدة من الدفتر الأبيض الموجود أمامه ، كان يقوس ما بين الورق ويثنيها وهو غير منتبه ، وأحيانًا يقطع جزءا منها ، وأحيانًا كان يوحد ما جمعه من القطع التى قطعها إلى نثريات أوراقه ، ولم يستطع من حوله أن يفهم على الإطلاق معنى هذه الحركة غير الجدية لابن طولون ، ولم يتمكنوا من فهم سبب هذا العمل التافه ، وتعجبوا !

وبينما كان أحمد كمن استيقظ من منتصف النوم الذى استغرق فيه ، وكأنه خجل عندما رأى قطع الورق فى يده ، ولاحظ معنى الدهشة عامة على وجوه من حوله ، استمر فى تنظيم شكل الورق فى يده وإصلاحه لتقليل حيرة من حوله ، وقد حمل هذا اللعب الساذج هدفًا ضمنيًا ثم قال بشكل جدى :

فلينادوا المعمارى "

وعند وصول المعمارى أعطى له أوامره قائلاً :

" الشكل الذى ستعطيه لمنارة جامعى هاهو ، فأنا قد نظمت بيدى هذا النموذج ، وسوف تقلد أنت هذا فى إنشاء المنارة أيضًا " .

وإن لم يكن معلومًا إلى أى درجة أطاع المعمارى هذا الأمر ، فالجامع الشريف اليوم أيضًا مهجور خرب ؛ بينما تحول هذا البناء

المتين إلى مستشفى عسكرى ، من يدرى طبقًا لأى احتياج ، ثم قام بدور مدرسة بنات خلال عهد الخديوى إسماعيل باشا المتوفى ؛ واليوم اتخذ جامع طولون شكل مجمع للمتسولين ، فاليوم تحل الرسومات الرديئة الفظة التى يخطها الأطفال المتسولون بقطع الفحم ، محل الخطوط الكوفية ذات الزينة الهادفة فى الحوائط القديمة .

وإن كان جامع طولون أحد أهم جوامع القاهرة ، فإن جامع الحسن يعد أجملها ، تثير قبة هذا الجامع الشريف المهيبة وهو فى ميدان رومية ، والمنارة القديمة ، ومناظر الحوائط الجميلة ذات التيجان العالية ، دقة النظر من الخارج أكثر ، حتى إنه على أبواب الجوامع الشريفة التى نعلمها شعار نبالة من البرنز فى قاع مدخل عال ، وأعمدة صغيرة وعشش ، والدخول من خلال باب مزين بالنقوش .

وداخل الجامع الشريف أكثر جمالاً ، وأكثر إثارة للتعجب ، ففى كل جوانب الحوائط نحتت الآيات الجليلة بالخط الكوفى ، لكن فى فخامة خارقة غير مألوفة ، وقد ملئت بالزهور فى ضخامة عجيبة بين الخطوط ، ثم ينفذ من هنا إلى موضع المرقد . ويعترض نظر المشاهد هنا دوار الاستغراق ، تصوروا أنكم وجدتم الأحجار المدورة على شكل قرص والتى تبدو منهارة وهى المشيدة بمهارة معمارية فائقة ، تتدلى من الحوائط وهى على شكل نجفة سنيحات !

ومع ذلك فهذا الجامع الذى لا نظير له لحق به وجه الخراب مثل غيره من الجوامع ، وبنيت عشش الحمام بين النقوش المعمارية ، وتميل كل النقوش ناحية الأرض ، وقد بدا أجمل جوامع القاهرة هذا فى حالة

من الخراب تحت غبار الإهمال أيضًا. وبسبب صعوبة رؤية جوامع القاهرة الأربعمائة ، والتجول بها ، وبسبب أن تصويرها كل على حدة يحتاج إلى صبر كبير ، فقد اكتفيت برؤية أربعة من الجوامع الشريفة فقط ، والجامع الشريف الذى رأيته فى النهاية ، هو جامع الأزهر ، هذا الجامع الذى شُيد من قبل قائد فاطمى فى جمادى الأول عام ٣٥٩ هـ ، هو أكبر مدرسة لمصر ، على الرغم من أن زيارتنا قد صادفت وقت العطلة بالجامع الشريف بسبب حلول شهر رمضان ، فطبقًا لاستقصائنا يبلغ طلبة العلوم كل سنة هنا عشرة آلاف طالب ، وحين الدخول من الباب الكبير جهة غرب الجامع الشريف ، فهو كأنه ينفذ إلى سوق طويل ، فيه الجزار والخضرى والحلاق وبائع الدخان ، جميعهم موجودون .

بعد المرور من هنا يتم الدخول إلى منطقة فناء الجامع ، ثم إلى داخل الجامع الشريف ، وهنا يأخذ شكلاً كأنه غابة مصنوعة من أعمدة من المرمر ـ تذهل العيون ـ فتحاول فتح مجرى العين من بين عمودين ، ونوافذ جامع الأزهر قليلة بالنسبة للجامع الذى مساحته السطحية ثلاثة آلاف متر مربع تقريبًا. وداخله ضيق ومظلم بالنسبة إلى سقفه الضيق ، ولا سيما وهو يبدو غير كاف إطلاقًا لإقامة عشرة آلاف من طلبة العلوم .

وتشكل مراقد الملوك مقبرة بين أكوام رمال ذهبية جسيمة لم نرها فى الصحراء على الإطلاق خارج المدينة ، ولن نستطيع أن نتخيلها مطلقًا، ولم يستطع ملوك مصر أن يجنبوا نومهم الأبدى ضجيج المدينة المعتاد مثلما أخفوا تحت الأهرامات مدافن الفراعنة القدماء ، وهم

يختارون زاوية فى صحراء لا نهاية لها لتكون مرقداً سرمديا لهم . فمن ناحية فإن الجبل الأحمر الذى يطلق عليه اسم الجبل الأحمر يعد مقبرة محرومة من الاخضرار ، فهى محاطة بقلعة قديمة تصل حوائطها العالية المظلمة إلى السماء الزرقاء ، وهى مغطاة ومحجوبة بأقسام المبانى المنتشرة فوق الرمال .

وعند الوصول إلى وسط المقابر يظن الإنسان أنه محصور ومحبوس وعاجز بسور قلعة أصغر من كل جهة ، وتستطيع السماء أن تزيل هذا الخيال المضطرب بزرقتها الصافية فقط ، ولأنها مزدحمة دائماً فإن ذلك يجعلها تشبه متنزهاً كبيراً خاصا بمراقد الملوك ، فنحن نرى مئات الأطفال فى كل ناحية ، المستغرقين فى لعبهم بمهارة تامة ، ويعتبر الأطفال أنصاف العراة الذين يتحملون كل هذا الهواء فى المقابر هم أولاد قبيلة صغيرة تحرس المراقد .

وتخفف هذه القبيلة التى تعيش بين المقابر عبء الحياة بتسلية إنجاب الأطفال ، فدائماً الإصغاء إلى هذا الصمت والعيش وهى تبدى قسماً من السماء فقط بين أكوام هذه الرمال ، تستشعر الصدر دائماً بضيق العزلة ، فليس هناك شجرة يلتمس بظلها ، ولا يستطيع أن يجد ورقة يتنسم رائحتها فتمر الحياة بمشاهدة موت طويل .

فهؤلاء الرجال الذين يجبرون على رؤية ما يتساقط من قطع رقيقة لقبر قديم على أثر الحركة كل يوم ، يسحقون زوجاتهم تحت أثقال الأمومة باستمرار وقد لجأوا إلى خمر النسيان الذى فى أحاسيس المحبة العميقة بتهور بهيمى لكل واحد منهم ، وهذا بالنسبة لهم وسيلة النسيان

والتسلية ، ملهاة ولعبة ، وإن كانت أرواحهم قد نالت رقة ملازمة وتربية فن مستمر طويلاً ، حتى إننا لا نرى فى تلك النظرة القانعة ، الأنقاض المنقوشة بين القبور ، حتى إن جمع تلك النفائس الرقيقة التى تتساقط كل يوم قطعة منها بإعصار الصحراء ، تصير استغراقًا وانشغالاً مسليا لهم أكثر من إنجاب الأطفال بلا حساب .

لكنهم لا يفهمون شيئًا مطلقًا عن هذا الهوس المعمارى القابل للانكسار ، وعن هذه الأوراق والأزهار الحجرية القيمة وعن هذه الخطوط والنقوش الرفيعة الرقيقة ، فهم لا يكبحون قياد جمالهم وإيقافها فتثقب أجمل وأرق النقوش ، وتترك جميع النوافذ المنحوتة لمرقد برقوق - معاصر تيمورلنك - ومرقد قايت بك ، الزوار فى حيرة مع رقة ولطافة ، وخاصة وأن الأخشاب المنقوشة والمزينة بسن الفيل والأبنوس التى فى مرقد قايت بك ، والأحجار المطرزة المتعانقة مع بعضها البعض ، والزجاجات المكونة من قطع مختلفة متعددة الألوان ، كل هذا يُدخِل إلى الروح شعوراً قَيِّمًا إلزاميا فى الحقيقة ، فالمكعبان الجرانيتيان الفاخران المزدانان بأثر مقدس للقدم النبوى المبارك أحدهما سنجابى اللون والآخر وردى اللون ، وهما محفوظان فى وشاح مرقد قايت بك هنا .

حينذاك حل المساء ، نظرت من تبة مجاورة لمراقد الملوك وقبورهم وشاهدت غروب النهار الذى مضى بين أخروياته. فى أثناء هذه المشاهدة نظرت إلى عدة مناظر رقيقة لا يمكن أن تنسى ، فقد أخذت كل القباب وجميع المنارات كل واحدة منها شكل مصباح بواسطة آخر أشعة شمس الغروب الأفقية ، ويحمر الجبل الأحمر مثل كتلة دموية وعلى البعد

تتألق الصحراء وتتلألأ إلى حد أنها تشبه بحراً من الزئبق وتعلو الأهرامات فوق هذا البحر الزئبقى تجاه السماء النارية بوجوهها السوداء الناظرة إلى الشرق ، وتبدو على الحدود الزرقاء التى تلتوى فوق الصحارى مثل أفعى ملونة تنفذ إلى صدر كليو باترا اليائس ، وتتعانق القاهرة فى الظلام تحت هذه الأشياء العالية وتتدثر بالأدخنة الزرقاء الخاصة بالليالى .

الرسالة الثالثة عشرة

من القاهرة

سوف أغادر القاهرة غداً ، هناك المئات من المناظر القيمة والأماكن الجديرة بالمشاهدة ، وتعنى إقامة خمسة أيام فى مدينة كبيرة بهذا الحد ، وقديمة بهذا القدر ، رؤية سريعة النظر ، ولابد من قضاء شتاء بأكمله على الأقل هنا لتقديم فكر إجمالى حول رؤيتها والحياة فيها . ومن أجل قضاء هذا اليوم الأخير ستجد فى الدليل خمسين وستين مكانًا منها : " الجزيرة التى وصل إليها مهد الكليم بإرشاد من أمواج النيل ، والغار المخفى الذى اختفى فيه حضرة كنعان ، وحديقة الحيوانات، وزاوية البكتاشية المستترة فى حديقة البنفسج على حافة جبل المقطم ، والقاهرة القديمة ، والمطرية .. إلى آخره .

كانت الدقائق تمضى وكان من الضرورى أن تُحل عقدة التردد ، واتخاذ قرار ، قلت لنفسى : " القاهرة القديمة والمطرية " .

ومن أجل الذهاب إلى القاهرة القديمة التى تسكن فيها العائلات القبطية القديمة من الضرورى الوصول إلى شاطئ النيل ، وبمناسبة حلول شهر رمضان كان شاطئ النيل هذا الصباح منعزلاً جدا ، ويتدفق

النهر العظيم بخرير سحرى بين نخيل البلح ، يهز شاطئيه رهيناً بحياة ثملة وكان ظلال الليل فى المياه يبدو وكأنه لم ينسحب من فوق الأمواج الصغيرة ، وفى تلك الهيئة المتفجرة والمتدفقة لهذا النهر المبارك الذى يدحرج أمواجه الدائمة الصفراء فوق مساحة ألف وخمسمائة فرسخ فى شاطئ البحر الأبيض من بحيرات أفريقيا الكبيرة .

كان هناك تأثير عظيم مرجفاً لخيال البشرية على الرغم من أن هذا النهر الذى أطلق عليه اسم أبو المياه ، وينبثق من الأراضى المجهولة على شكل فيضان معمارى جسيم ، فهو يشكل خطاً منحنياً مريحاً ليبوسة الصحراء اللانهائية الكئيبة ، ويفيض كل سنة فى موسم معين ، ويستخرج منه الطين والصلصال الذى يأتى من الغابات المجاورة لمنبع أفريقيا وتوزيع حدائق زراعية طبيعية فى وسط الصحراء .

لماذا يحدث كل عام هذا الفيضان الذى يستمر أربعة أشهر وكيف يحدث؟ لماذا تزداد هذه المادة المائية التى تنصب على بحر الرمال واثباً من شلال إلى شلال ، من السودان إلى الإقليم المصرى بصورة منتظمة فى أربعة شهور حارة من كل سنة ، لماذا ؟ لا أعلم ... مجهول . وذلك فإن من المعروف والمؤكد أن هذا النهر لن يستطيع أن يعيش مطلقاً إن لم يحدث هذا الفيضان وسوف تصبح كل ناحية عارية جرداء بلا حياة يصعب الإقامة بها، حتى وإن وجدت النباتات المجردة من نخيل البلح الذى يريح الناظر إليه بسنابله الخضراء فى أماكن مختلفة من وادى مصر اليوم ، ويعد تأخر فيضان النيل أحد الأخطار الجسيمة لسكان مصر .

ولتقييم هذه الفكرة استمعوا إلى تلك الحكاية التاريخية : " مرت سنة واحدة فقط منذ شروق شمس هدى الإسلام على هذه البلدة الغالية النفيسة ، وعاد الأهالى الأقباط إلى حضرة القائد عمرو بن العاص وقالوا :

أيها القائد هناك عُرف وعادة نقيمها للنيل ، وهى عادة ورثناها منذ القدم ، وحينما لا نهتم بأداء هذه العادة لا يفيض ماء النهر ، ولا يزود الصحراء بالماء ، ولا تصل إلى المحصولات الزراعية .

وهنا استوضح جناب القائد توضيح هذا العُرف ، فأوضح الأقباط :

نحن نأخذ فتاة شابة بكرا جميلة قسراً من رقبتها فى اليوم الثالث عشر من شهر بؤونه القبطى ، تتزين بزى عروس ، ونقذفها فى موقع معين من النيل .

أجابهم القائد :

لا يمكن أن تنفذ هذه العادة بعد دخول الإسلام .

لكن تمر الأيام ولم يرتفع مستوى طبقة المادة للنهر لحكمة إلهية ، حينذاك عاد القائد إلى حضرة عمر الفاروق رضى الله عنه ، وتسلم رسالة أجابه فيها قائلاً:

" بسم الله الرحمن الرحيم ، إنه من عمر بن الخطاب إلى النيل المبارك ، إنه إذا كان تدفقك يصدر باختيارك أنت حتى الآن ، فأوقف هذا الجريان ، وإن اتبعت الأوامر العليا للخالق الأعظم ، فنحن نتضرع ونتوسل إلى الحامى والحافظ الأكبر أن يكون فيضانك فيضاناً كاملاً وتاماً "

وألقى عمرو بن العاص هذه الرسالة المحترمة فى النيل بكل توقير وتبجيل ، وبدأ النهر يزداد فى اليوم التالى مباشرة ، وارتفع بمقدار ستة عشر ذراعًا ، حيث كان هذا الارتفاع بحق قد فاض تمامًا إلى أعلى درجة .

وظل الأقباط تجاه هذا حيارى صامتين ، وتغيرت بعد ذلك عادة إلقاء البكر ، وتقرر إلقاء شىء مقطوع من الخشب على شكل امرأة إلى الماء ، وحتى الآن ينفذ هذا القرار دائمًا باستمرار ، فلا يزال يحل كل عام موسم الإلقاء وكأنه عيد خاص حينذاك يجتمع كل إنسان على شاطئيه وهو مفعم بالشوق والفرحة ، ويغنى ويتنزه ، وفى ذلك الحين يزج السيدات بأطفالهن أملاً فى القوة والشفاء ، فقد كان أصحاب الأمراض المزمنة والقادمون من أماكن مختلفة يغتسلون بماء النيل ، بينما يتجه النيل المبارك تجاه الشمال راسمًا انحناءات لا نهاية لها ببطء متدفقًا وواثقًا كمن هو واقف على مزاياه هذه كلها ، يُرى أحيانًا سودانى عربى يبدو كظل قائم فوق تل من الرمال ، وأحيانًا عدد من القرويين الذين يستنشقون فى صدورهم الهواء البارد اللطيف تحت نخيل البلح ، وأحيانًا شكل عسكرى لسياح ألمان انشغلوا برسم قرى عربية ، قرية قرية رسما كروكيا ، وأحيانًا تمرة مليئة بأنقاض الماضى ، وأحيانًا القرى المكونة من الأكواخ الوضيعة والمبنية من الطين الجاف ، وأحيانًا الحقول الممتدة بشكل هندسى زمردى اللون ، إلاَّ أنه تُرى الصحراء الساكنة الصامتة واليابسة المنعزلة التى لا نهاية لها ولا حياة فيها .

وتحدث السفن المذهبة ذات الأشرعة الكبيرة المثلثة والزوارق والسفن حركة لسطح النيل الخالى ، كما تحيى الطيور فراغ الهواء ، والأجرام المضيئة فى فضاء هذه السماء ، وتتقدم السفن فوق النيل من ناحية واحدة دائمًا مثل أمواج النهر المكدرة والعكرة ، وتغادر إلى ناحية واحدة ، وتظهر أخرى فى الأفق بسبب غياب إحداها عن النظر ، وتتبعها الثالثة بأشرعتها المنتفخة ، وفى تلك الأثناء تقابلهم ثانيتهم أيضًا من الجهة المقابلة ، وكأنهم يخرجون دائمًا من مراسى لا حصر لها، وموجودة فى نواحى محجوبة من على البعد ، ويتجهون إلى الأراضى المجهولة ، ويتقدمون تجاه مراسيهم المقصودة بلا خوف أو قلق مستغرقين فى راحة سعيدة فرحة وكأنهم مثل الطيور الكبيرة التى تفرد أجنحتها العريضة البيضاء ، وكل واحدة منها تشبه روح طائرة فوق صفحة النهر العظيم الذى يستمر فى تدفقه بلا قيود مهما تكن العروق والأديان ، ومهما كانت الهزائم والانتصارات ، أو الانهيار والعلو .

وعلى الرغم من أنها تضج بالبشر والحيوانات وأشياء أخرى، فإنها تهبط فوق النيل ، وتتقدم ، وأحيانًا يحملونها إلى درجة أن أطرافها تمس الماء ، ويظن أنها ستغرق فى الحال، وتبدو من بعيد أكثر رقة وخفة وطرافة وتناسقًا عكس الحقيقة ، ويمكن الشعور بفظاظة قدمها فقط من قريب ، فأنتم ترون بينما تمر تجاهكم أن ماء النيل قد حطمها بمداعبة مستمرة ، وهى الآن تتحرك محدثة قعقعة ، وكأنها تنفصل تحت حمولة ثقيلة ، وتتأوه .

وهناك زورق يستطيع أن يجدفه اثنان أو ثلاثة أشخاص ، يضم عشرين أو ثلاثين شخصًا جميعًا بخفة وسرعة لا لزوم لها ، ويمكن أن

تدار بشكل عنيف ، وينام قسم من المسافرين فوق الصناديق ، وبالات البضائع ، وأقفاص الدجاج ، وأجولة المأكولات " الذخيرة " ، وسلات الخضر ، وأحزمة عيدان القصب ، وأكوام الأباريق ، والأواني الخزفية التي تملأ كل زورق ، ويتحدث قسم آخر من المسافرين ، ويغني أحدهم موالاً ، وآخر يصلي ، ولا يعلم كم يبلغ عددهم ، كما يجهل عدد ملاحي السفينة ، وغير معلوم الأماكن التي قدموا منها ، والأماكن التي سيذهبون إليها ، وجميعهم يتابع تدفق النيل بصبر متواكل ، ويتعقب اتجاه الرياح واتجاه عجلة التوجيه ، وتأثيرها .

بينما يمر المسافرون المستمتعون ويصيحون من الشاطئ قائلين :

السلام عليكم ، ويرد الجميع بفم واحد بصورة آلية ، وكأنه صدى صوتهم : " السلام عليكم " .

وهم يقضون حياتهم مستريحين ، غافلين وصامتين بين الماء ، والسماء ، وبين النوم ، والتقوى ، والخيال ، والطعام ، وبين الترنم والمشاهدة ، وبين الطيور والأسماك ، وكأنهم نوع خاص من المخلوقات ، وتعد جميع ثروتهم ، وكل عائلاتهم متموجة مثلهم فوق الماء بجانب كل الروابط والعلاقات التي تسير على وجه الأرض والحياة ؛ وكأن علاقتهم بالخارج منحصرة فقط على تداول كلمة " السلام " وحدها دون غيرها .

فلا تثير حسدهم العربات التي تسير على وجه الأرض ، والزينات والسعادة ولا تحرك حتى غيرتهم ، ويبدون كمن يحب فقط هذه الحياة السائرة ، وهذه الرياح ، وهذا النهر ، وهذه الأشرعة ، وهذه السفن المتعاقبة مع بعضها البعض ، والقادمة من منبع مجهول ، ويوجد

فى عيـون هـؤلاء الأشـخاص المحظـوظـين صـفـاء نقى كما لـو كـان ما يعلمونه هو عبارة عن ذلك : فالسماء صافية ، والماء عكر ، والسعادة هى وجـود بلا ألم ، والاستـغراق فى الخـيالات البراقة تجـاه الصـحراء اللانهائية بمعدة ممتلئة .

ينقل النيل الصامت هؤلاء النوتيين غير المبالين ، وهؤلاء المسافرين الغُفل إلى الأماكن التى يريدونها بقوة انصياع الأمر ، إلا أنه يا له من وقار وعظمة فى نقل هذا التحرك ، ويا له من أبهة وجلال كمن يعلم أنه هو نفسه كان الموجود حين ولادة النوروز للحضارة البدائية ، وكأن المدن الضخمة التى على شاطئيه قد سويت بالثرى مثل أبراج مصنوعة من الورق ؛ ويبقى هو فقط ، يتعقب فوهة مجرى الإعصار والقرون بأثر خطير كمن يعلم أنه لا يزال يعيش هو فقط بالقوة والحياة التى كان عليها فى القرن الأول ، بينما تختلط الأفكار والذكريات والخيالات عن شاطئيه بغبار النسيان تحت أنقاض الماضى على التوالى .

تغير كل شىء بالقرب منه إلا هو ، فكان النيل المبارك يستطيع أن يحافظ على حاله من أول يوم تدفقه ، وباستثناء هذه الأرض التى هى مرقد للآثار منذ آلاف السنين إلا هذا النهر الوقور الذى أحدث فى صدرها خفقانا أبديا ، وكان يجيب بخرير متهكم بلا انقطاع على خيالات عالم الغرور البشرية .

على شاطئ النيل تدور أمام عينى رأسى أوراق جميع ذكريات كتاب ، ولكن من أجل الدخول إلى القاهرة القديمة ليس من الضرورى إغلاق هذا الكتاب حينذاك كانت القاهرة القديمة محاطة بحوائط عالية

غليظة مثل بلاد القرون الوسطى المنيعة ، وكانت الشوارع أضيق من شوارع القاهرة الحالية . والمبانى أكثر علواً ، وضواحيها أكثر ظلمة، وأكثر رطوبة .

وحينما يتجول الإنسان فى هذه الشوارع يظن نفسه داخل مدينة ضيقة وطويلة، ويتشابك الطريق فى بعض المنعطفات إلى حد أن أطراف أسقف المبانى التى على جانبيه تتلامس المشربيات مع بعضها البعض، وهنا أيضًا ظلال رطب ، وليس هناك شيء سوى صمت وسكون عميق، وتبرز رائحة عفنة كريهة فى كل ناحية ، ويصادف فى كل خطوة كومة من القمامة اللينة بسبب التعفن ، وغالباً ما يمد لكم جسد بشرى مغطى بخرقة بالية ذراعيه ، وهى عبارة عن عظمة صفراء على جلد أسمر قائلاً :

" بقشيش " .

ويمثل الأقباط أغلب سكان هذه الديار العفنة الرطبة ، وتوجد هنا كنيسة قديمة ، وكان يقيم فى مخزن هذه الكنيسة عائلة جناب المسيح مدة طويلة طبقًا للرواية المحلية ، ونادراً جدا ما يعود الزوار الذين يقدمون إلى القاهرة بدون رؤية هذه الكنيسة ، فأهميتها التاريخية تجذب كل سائح إلى هنا ، ويشير المترجمون إلى المكان الذى أقامت فيه السيدة " مريم " داخل مخزن الكنيسة وحتى البئر الذى عُمِّد فيه " المسيح عليه السلام " .

وفى الحقيقة ، وعلى الرغم من أن السياح الواقفين على تاريخ الأنبياء قد ذكروا أنه قد تم تعميد حضرة " عيسى عليه السلام " فى نهر

الأردن الموجود فى أرض فلسطين ، ونبهوا أن هذا مؤكد من الوثائق التاريخية ، فإنالمترجمين لا يصحون أية معلومة فى دعواهم وفى اعتقاداتهم مطلقًا ، ويشيرون مرة ثانية للسياح القادمين من جديد إلى البئر القديمة .

وتوجد جبانة قبطية بين المبانى المسكونة فى ناحية هذه المدينة القديمة. وجميع مقابر المسيحيين محصورة داخل هذه الجبانة ، حتى إن الجنائز الكاثوليكية يتم الدفن عندهم فى مكان مؤجر بزاوية الجبانة القبطية بسبب عدم وجود قطعة أرض خاصة بهم .

والمطرية قرية تقع بالقرب من القاهرة القديمة ، وقد بدأت شهرتها بوجود شجرة جميز كبيرة بها ، لأنه طبقًا لرواية التاريخ المقدس أنه حينما جاءت السيدة مريم مع ابنها المبارك من أجل التخلص من التعقب العسكرى لهيرودوت من زعماء اليهود ، دخلت تحت شجرة الجميز تلك وظلت مختفية فترة تحت ظلالها وتخلصت من قبضة أولئك اليهود المقتفين أثرها ، وكانت هذه الشجرة بداخل حديقة منتجة لأشجار البلسم ، وتزرع الآن حول تلك الشجرة التاريخية زهور الممالك الحارة وهى غاية فى الجمال .

وفى الواقع وعلى الرغم من وجود شجرة جسيمة اليوم فى المكان الذى يراه حقيقة التاريخ المقدس ، فهل يا ترى هذه الشجرة هى التى كانت الملجأ الأول فى الإقليم المصرى لعائلة المسيح المباركة ؟ ولكن بينما يقدر لأشجار الباؤباب حياة طويلة تبلغ تسعة عشر قرنًا ، وتستثنى شجرة الجميز هذه ، فهل هى تدرك ذلك العمر المديد ؟ أو أن تلك

الشجرة التاريخية هى شجرة مغروسة على الأرض مغايرة لنفس الجنس ؟
أما عن المعلومات والتحقيقات التى تتعلق بهذا المكان فهى من المشاهدات اليومية التى يتعامل بها الزوار المسيحيون مع هذه الشجرة باحترام خاص ، حتى إن سائحا أيرلنديا قال :

جئت أنا من أيرلندا ؛ وتكبدت المشاق والصعاب من أجل هذه الرحلة ، وكان الهدف من رحلتى عبارة عن رؤية الشجرة الموجودة فى المطرية . وإننى لا أشفق على تعبى مطلقًا اليوم ، إذ إننى سوف أستطيع أن أنقل غصنًا صغيرًا من تلك الشجرة إلى بلدى . فهذا الغصن أعظم قيمة من كل تكاليف رحلتى . وتبدو لى الطبيعة فى مصر قذرة ، فالمبانى التاريخية مزعجة للروح ، ولقد أتيت لرؤية شجرة فقط ، ورأيتها ، وسوف أعود ممنونًا سعيداً .

وهناك ينبوع مقدس بالقرب من تلك الشجرة ، وهو أيضًا من الأشياء التى يبجلها السياح المسيحيون فى المطرية . ويتدفق الماء الذى يقذف إلى الخارج بساقية حديقة لا نعرف ينبوعها هذا من هذا المزراب الخشبى لشرف كل زائر ، ويشرب الزائرون ويغسلون أيديهم مع وجوههم ، إذ إنه يقال إن الثياب المباركة لروح الإله قد اغتسلت وشطفت هنا .

وتوجد أنقاض وبقايا أثرية مشهورة باسم هليوبوليس وهى على بعد عدة خطوات من المطرية ، حيث ظلت منها إلى اليوم مسلة فقط هى التذكار الموجود منها ، ومن الممكن جدا قطع مسافة بضع خطوات ورؤية تلك المسلة عن قرب ، لكننى اكتفيت بتحية ذلك التذكار الوحيد

لهليوبوليس من على البعد لأنه فى الواقع يظهر أى مخلوق وهو جاهل بعلم الآثار العتيقة واقفًا هكذا فاغراً فاه وجاهلاً أمام الأحجار القديمة ، وفى اعتقاده التافه أنها نسيج عنكبوتى معمر مغطى بأشكال هيروغليفية غريبة ، وتبدو بلا معنى وكريهة ، وكأنها فاترة العاطفة باردة ، وقلت لنفسى :

لاشك أن رؤية الأحياء الجديدة للقاهرة الحديثة بنظرة وداع تحتل المقام الأول .

الرسالة الرابعة عشرة

من القاهرة

عند الانتهاء من شوارع القاهرة القديمة المظللة والرطبة والضيقة والمعوجة ، تصير الشوارع عسيرة وقاسية ، ويستشعر من هذه الطرق المحجوبة والمضطرمة بحرارة الشمس ساعة الظهر فحسب ، وينتشر من أكوام القمامة التى تقف متراكمة فى أماكن مختلفة رائحة اختمار وتعفن رطوبة المكان ، وعند وصول الإنسان إلى شاطئ النيل يريد سد فتحات التنفس ومنع رئتيه وعدم الاستنشاق . ويعد ميدان الأوبرا هو قلب حياة القاهرة الحديثة ، فبالقرب من هذا الميدان توجد جميع المحلات الكبيرة ، والفنادق الضخمة ، ومعظم الدوائر الرسمية ، ويقيم هنا الزائرون الأجانب ، ويوجد هنا أيضًا محلات البيرة ، والمقاهى وبيوت القمار كلها .

وحينما يتجول الإنسان مدة فى هذه الطرق المرصوفة المنتظمة والواسعة والنظيفة يستطيع أن يأمل فى رؤية نموذج من كل أهالى وشعوب القارات الخمس ، ففى شوارع حى الأزبكية المزدحم يتعقب ألمانى يابانيا ، ويتقابل إنجليزى مع حبشى ، وكأن ميدان الأوبرا هذا

عبارة عن ملل وأجناس مشهورة حيث يمكن أن يشكل مسرحًا لاستقصاء دقيق مساعد جداً لدراسة عالم علم الإنسان .

وتعد تراسة المقهى الموجودة أمام فندق " شبرد " هى أنسب مكان لإحاطة النظر بميدان الأوبرا، ويكفى قضاء بضع ساعات فى تلك التراسة لملاحظة علاقات الأجانب السياح بالأهالى المصريين ، ويتجول الباعة المحيطون دائمًا بين المناضد التى تملأ التراسة ، بالمناظر الجميلة لمصر ، وصور بانوراما تاريخية ، وصور المبانى القديمة ، والمراوح الريشية ، والأرجوحات ، وأحزمة السيدات المطرزة ، والمنقوشات الشامية ، ومصنوعات صدف القدس ، والأوانى المصنوعة من شجرة زيتون يافا ، والأشياء التقليدية اليابانية ، والسجاجيد الإيرانية ، والفيروزات المصطنعة ، والآثار الأنتيكة المزيفة ...

والخلاصة أن كل شىء يتم عرضه وتجوله بين المناضد ، ومهارة هؤلاء الباعة المتجولين مدهشة فى تحديد الجنسية ، فهم يفهمون الإنسان الذى يتصادق بابتسامة لطيفة من أى ملة فى الحال ، وفيما عدا هذا فإنهم يهمسون بالكلام بلهجة السائح بسبب معرفتهم باسم الشىء الذى يبيعونه باثنين وسبعين لغة قائلين :

يا سيدى ، مروحة لطيفة ، ورخيصة ، بشلن واحد.

ويدخل بعض الباعة الماكرين التراسة بشىء يلمع فى يديه جاذب للنظر ، فيتجمع حوله جميع السياح الفضوليون الذين فى المقهى حينذاك ، ويتخلص البائع من كل المزاحمين القناصين فى ظل الشرك الذهبى

الذى فى يده ، ويتفرج بعض السياح وهو قائم على قدميه ، والبعض الآخر يشاهد وهو جالس على المقعد على الخردوات المتنوعة الألوان التى ظهرت من هذه " البقجة المصرية " .

وعندما يستحسن أحد السياح شيئًا ، ويستفسر عن سعره ، تبدأ صفقة غريبة ! صفقة تقلب جميع أنظمة العرض والطلب ، والأنظمة الاقتصادية والسياسية ، وقوانين البيع والشراء ، لأن هؤلاء الباعة كما يمنعون بصورة عامة نظام السعر الثابت ، يشترط أيضًا عدم الحفاظ على نسبة معتدلة بين السعر الأول المطلوب ، والسعر المتفق عليه أخيراً ، وغالبًا ما يريد هؤلاء التجار سعراً طبقًا للرغبة التى يظهرها المشترى ، وليس سعراً طبقًا لقيمة الشىء الذى يبيعونه .

وأحيانًا يحدث أنهم يريدون ثلاثين فرانكًا للشىء الذى قيمته فرانك واحد، ولا أرى ضرورة ذكر أن كثيراً من السائحين ينخدعون بهذا البيع والشراء ، لكنه يوجد بعض المشترين المحتالين الذين يجدون سهولة الخروج من هذا البيع والشراء من غير أن ينخدعوا .

ويعد المخطط لهذه الجماعة الأخيرة شىء بسيط للغاية فالشىء الذى يستحسنونه يتظاهرون وكأنه لم يعجبهم مطلقًا ، وفى النهاية حينما يسألون قائلين بلا مبالاة : بكم ذلك " ويبدو على وجوههم معنى الازدراء ولا يستطيع التاجر تجاه هذا أن يتجرأ على التحدث بسعر عال ، ويمكن أن يطلب عشرة فرانكات فقط على الشىء الذى قيمته فرانك واحد ، حينذاك يترك المشترى الشىء الذى فى يده من غير أن يعطى جوابًا مطلقًا ، ويفتح جريدته ، ويعود إلى القراءة ، وفى ظل تلك الكوميديا يضطر البائع لمراجعة نفسه ويبشر بتخفيض فرانك واحد كل خمس

دقائـق ، وفى النهاية يخفض التاجر إلى السعر الذى أعطاه المشترى فى البداية . حينئذ يقذف أمام المشترى بسلعته النفيسة متأوهاً بشهقة ندم عميقة ، ويقول منهزماً : " خذ " .

ومع ذلك ليس من الصعب التخمين بأن أى من المشترين لا يدركون أنه سوف يضطر للبكاء أو الضحك على البائع الذى يبدو متأوهاً بندم مصطنع . وبعض السائحين وخاصة القادمون من جزيرة بريطانيا يخرجون من حقائبهم السعر الأول الذى يطلبه هؤلاء التجار المتجولون بلا تردد .

وعندما يلتفت الباعة ووجوههم هكذا فلا يمكن الدخول معهم فى عملية البيع والشراء ، فهم لا يخفضون جزءاً من السعر الابتدائى ، يحطم هؤلاء السائحون السذج جميع آمالهم المخدوعة فيهم ، والحمد لله أن الباعة الذين يصادفون مثل هؤلاء السوّاح عبارة عن قلة محظوظة . والآخرون يتصببون عرقًا كثيراً حتى يبيعوا شيئًا باثنين فرانك ، وهو ما طلبوا فيه عشرين فرانكًا ... ويبيعون لشخص من الواقفين على المناضد المختلفة نفس الشىء بخمسة عشر فرانكًا ، وللآخر بعشر فرانكات ، والثالث خمس فرانكات ، ولا تظنوا أن هذا الأخير لا ينخدع ، فهو ينخدع أيضًا ، فلا شك فى أن القيمة الحقيقية لذلك الشىء ليس أكثر من اثنين من الفرانكات .

وتوجد غرائب لانهاية لها فى هذا البيع والشراء الغريب فمثلاً على الرغم من أن بائعا أقدم على صفقة على هذه المنضدة ، ووافق أن يبيع خنجرا صغيرا بعشرة فرانكات ، فإنه يعبر إلى المنضدة الأخرى بسبب

عدم إعطاء السياح أكثر من خمسة فرانكات ، ويبيع الخنجر نفسه بخمسة وعشرين فرانكًا ، وفى الحقيقة تعد مسألة الشراء هنا مسألة مضطربة صعبة ، كما أن مسألة البيع أيضًا مسألة معقدة ، ومع ذلك فالباعة معتادون على أن يوفقوا إلى حل هذا اللغز بطريقة مفيدة .

وبهذه الصورة تخصص حصة اعتماد ، حتى الاعتماد التجارى الذى تظهره الدائرة المالية الألمانية اليونانية فقط لهم فذلك ضرورى لهم وإن كان مناسبًا للفراسة ، والذين ينخدعون قليلاً جدا فى البيع والشراء بهذا التراس ، لم يكن فى نيتهم أخذ أى شيء مطلقًا ولا سيما الذين يقدمون على الصفقات للاستمتاع ، فهم لا يعطون أكثر من فرانك واحد للشيء الذى قيمته الحقيقية ثلاثة فرانكات .

السهام الانفعالية التى يقذفها كل من البائعين بنظرة جانبية لهم ، ثم فكاهة مضحكة جميلة فى مشاهدة أنهم يعبرون إلى المنضدة الأخرى صامتين ونادمين بيأس عميق ، ولا شك مطلقًا بأن التاجر فى تلك اللحظة يقول وهو مليء بالفتور داخليا :

حقًا إننى ساحر ، وشيئًا ما سيعجبك أنت أيضًا .

وهؤلاء الباعة المتجولون الذين يشبهون مياه النيل فى كثرتهم هم جماعة من المصريين الذين أصابهم تهور يائس حقا ، يالهم من سحرة ماكرين ، فعندما يظهر هؤلاء المخادعون يقذف كل شخص الشيء الذى فى يديه إلى صاحبه وفجأة تنقطع كل صفقة ، ويجرى جميع الناس الذين كانوا فى المقهى إلى الدرابزين على طرف التراسة ، ويستغرقون

فى مشاهدة أفاعى الساحر فوق رصيف المشاة ، ويخرج الساحر من جوال على كتفيه الحيوانات غير المحبوبة من كل نوع منها : نموذج من عنكبوت يلعب بين أصابعه المعقوفة الناشفة السمراء ، والحرباء والسحلية والعقرب والحية ، وتبرز هذه الأصابع المذهلة فى مسابقة سريعة الحركة ضد العنكبوت والسحلية ، وعلى الرغم من أن هذين الحيوانين قد استهلكا كل سرعتهما ، فإنهما لم يستطيعا التخلص من أصابع الساحر ، ولا يمكن أن يتخلص العنكبوت من يد الساحر ، ولا تستطيع السحلية أن تصل إلى ساعد الساحر ، وعلى الرغم من أن إحداهما على يده اليمنى والأخرى على يده اليسرى ، فقد ظل يلهو معهما خمس دقائق أو عشراً ، ثم يحين الدور على لعبة دحرجة الحرباء ، ويضعها الساحر فى طربوشه ، وعلى صدره ، وفى جلبابه ، وتظهر على التناوب الألوان الحمراء والسوداء والزرقاء ، ثم بعد ذلك يظهر العقرب ، إنه عقرب كبير مذهل ، يأخذه الساحر على راحتيه ويضرب بأصابع يده اليسرى ملامساً ؛ فيثير غيرة الحيوان عندما يرفع العقرب ذيله المليء بالسم فيقبض على أسفل ذنب الحيوان بسرعة مذهلة ، ويجرى عدة مرات هذه العمليات المهلكة المانعة لكل حركة سامة .

وفى النهاية بعد أن يعيدها إلى الجوال تظهر أفعى سوداء طولها نصف متر تقريبًا، يطلقها الساحر من سرواله الداخلى ، ويخرجها من جانب الحزام ويدخلها إلى صدره ، ويقبض عليها بشدة بذراعيه ، ويضعها فوق الرصيف ، وبينما تهرب الأفعى تطلق فحيحًا غريبًا ، ويضطر الحيوان للعودة إليه مرة أخرى ، وبعد أن يبصق فى فم الحيوان

يقذفه إلى ناحية على الرصيف مطلقًا صفيراً غريبًا مرة أخرى ، ولكنه هذه المرة لا يشبه الصفير الأول ، ويضع الحية فى المكان الذى سقطت فيه بلا حراك ، ثم ينادى عليها بصفير مرة أخرى ثم يضغط على رأس الحية بين إصبعيه السبابة والإبهام ، ويبدو الحيوان على شكل عصا ، وبينما تكون الأفعى منتصبة تمامًا مثل عصا طويلة ينتظر الساحر البقشيش ، وهو يحنى رأسه فى حالة مضحكة للغاية مبتسماً .

وفى هذه الأثناء يصفق بعض السياح البلهاء بأيديهم ، وتنهمر عشرات وعشرينات من القروش المصرية النحاسية على رصيف المشاة ، وبينما تظهر جميع هذه الحيوانات غير الودودة ، يهرب الأطفال الذين أحاطوا جوانب الساحر خوفًا منه ، وأحيانًا يتصايحون بأسلوب مدهش ، وأحيانًا أخرى يتضاحكون ، وتدير بعض السيدات اللائى يجلسن فوق التراس رءوسهن بأسلوب مشمئز ، وبعضهن يشعرن بالخوف ويتراجعن ثم يتبع الممثلون النسانيس والقرود الصغيرة الذنب المتراقصة ، وسحرة الأفاعى ، وليس هناك فرق بينهم وبين ما نعرفه . وبعد جولة أخيرة فى حديقة الأزبكية وبعد سماع موسيقى مصر العسكرية للمرة الأخيرة عدت قبل الغروب من أجل تجهيز حقيبة السفر .

الرسالة الخامسة عشر

من السويس

حينما تحرك القطار هذا الصباح متوجهاً إلى السويس من محطة القاهرة كان قلبى مفعمًا بالأسى الذى كان يحركه أمل لا ينقطع نتيجة ضيق الوقت ... وبعد أن أجبرت على الافتراق هناك ، كنت كمن ظل بين الغرباء الذين مكثوا فى حافلة القطار ويحاول أحدهم وهو قريب منى أن ينام من الآن ، ويحاول الآخر أن يقرأ قصة ما ، ويبحث الآخر مستغرقًا فى خياله ، وبعضهم كان يشاهد المناظر السريعة التى تمر من أمام النوافذ مثل هذه الرسالة المكتوبة أيضًا .

هناك شيء غريب أيضًا : فإذا تحرك القطار بسرعة كبيرة جدا ينخفض ويهدأ ضجيج الحياة داخل حافلات القطار بدرجة كبيرة ، ويظل المسافرون وكأنهم مبهوتين من شدة السرعة ، ويبدأ سائحو القطار بعد المحطة الأولى عادة فى التعارف فيما بينهم ، وكلما يمر الوقت يتطور التعارف فيما بينهم ويقوى وينتج شيئًا بين جميع من فى الحافلة بعد بضع ساعات وكان بينهم معرفة شخصية ومودة ، وتبلغ هذه الألفة أحيانًا درجة قوية ينتج عنها ندم الفراق فى النهاية .

وتكون الملاحظات السياحية التى يبديها أحد المسافرين ، وكأنه يتحدث إلى نفسه ، هى أول وسيلة للحديث عادة فيقول :

حضرت إلى الإقليم المصرى أيضًا ، وذهبت وعدت بدون رؤية قناة السويس . فى الحقيقة لا يدرك عقلى هذا الشكل من السياحة .

أو يقول :

الشىء الذى أثار دهشتى أكثر فى هذا الإقليم ليس أنقاض ممفيس ولا الأهرامات ، ولا المومياوات التى لم تفسد منذ عصر الفراعنة الستين أيضًا ، سواء ضحكتم أو حزنتم فما أعجبنى هنا كثير جدا هو الحرارة والضياء ، نعم يا سادة فهما الشيئان اللذان أعجبت بهما كثيراً جداً !

وتنفتح ألفة رائعة تعتمد غالبًا على الأحاديث والترهات ، وتمتزج كلمات كل مسافر بنسبة مفهومة ولطيفة ، ويلوح بعضهم بذراعه بقهقهة عريضة واضحة ، وبعضهم بابتسامة خفيفة معترضة ، والبعض الآخر بإنكار عام ، وعلى مائدة السرور تلك تدار مناقشة مفتوحة ، وهى أحيانًا تستغرق أكثر من ساعة ، وتخرج عن تصادم الأفكار إلى التعارف . وتصور البرودة التى بين المسافرين ، كل شخص صاحب بيت مجهول وهو يدعو نفسه وكأنه ضيف ، وعندما تصل إلى المنازعات السياسية القديمة ينسحب من بين المسافرين شعور بارد ، ويستطيع ألمانى أن يتحدث مع فرنسى مثل اثنين من الإنجليز . ويبدو الخط الذى يربط السويس بالقاهرة متحداً مع خط القاهرة والإسكندرية وكأنه محطة واحدة ، وكنا نتبع يسار شاطئ النيل ، وانتهز هذه الفرصة لمشاهدة

سفن النهر العظيم وهى سائرة ببطء ، والأمواج الصفراء ، والطين الخصب ، وتسير السفن فى هذا الجزء من النيل ببطء شديد للغاية ، ويعاين شخص فى مقدمة كل سفينة عمق النهر بعصا طويلة فى يده ، وعلى الرغم من أن هؤلاء الملاحين يتجولون خلاله كل يوم ، فإنهم لا يعلمون حقائق النيل الجغرافية ، فهذا النهر العظيم صديق لهم ، ولكنها صداقة جاهلة بحقيقته وماهيته ، وممزوجة بالافتنان به ، وهى صداقة متقلبة ؛ فلكل نقطة عمق مختلف ، وعمق أى موضع اليوم قابل للتغيير فى اليوم الآخر ، لأنه فى هذا الموضع يتدفق الطين الخصب الذى يستخرج من أراضى هذا النهر المجهول القاع ، وتتدحرج غداً وتصل إلى موضع آخر ، وبعد التوقف مدة هناك يتداخل تيار النهر المتدفق مع هذه الأكوام الطينية الجسيمة اليوم ، وتظهر غداً نقطة على وجه النهر على شكل جزيرة صغيرة تساعد على سير السفن ، وبسبب أن الملاحين يدركون هذا التغير فى طبيعة أبى المياه ، فهم دائمًا يشعرون بالخوف ، وعندما يتبعون الأمواج صاغرين ، يتحرى واحد من ملاحى السفينة العمق دائمًا خلال قاع مجهولة ، وتتعسر الحركة فى بعض الأماكن إلى درجة أن أشرعة السفن تهبط وتسلم أقدار حياة المسافرين لرغبة ربان السفينة القوى العضلات .

هذا الاهتمام يوجه ناحية قوة الأمواج الهادرة ، فالمجهود العضلى الذى يبذله الربان الذى يقود سفينة ما يتضاعف مرتين ، فالعرق الذى يتلألأ على ظهره بلون البرونز ، والأوردة المنتفخة تمامًا فى ربلات

سيقانه ، وأنفاس حناجره الغطيطة تثير الروح ، وكأن كل نفس منها هي صيحة توسل ، ويتبع الأطفال والسيدات الذين يتذمرون بانسجام مثير لكل قائد سفينة ، والأطفال الذين لم يستطيعوا أن يجدوا ربان سفينة يتعقبونه يتدحرجون على الرمال والأوحال في جانب التل .

ويستطيع القطار أن ينبههم فقط عن لعبهم الغريب الذى يستغرقون فيه ، حينذاك يحدجون بأبصارهم الذكية التى تلمع مثل قطع الأبنوس المتلألئة على وجوههم السمراء ، ويمدون أيديهم الراجية إلى حافلات القطار الذى يمر بسرعة وهم يصرخون بصوت يمزق القلوب " بقشيش ، بقشيش " .

نحن نستطيع أن نسمع هذا النشيد التسولى من بين ضجيج حركة القطار ، فهم يصرخون بشدة كبيرة ، وهى صيحة عديمة الجدوى ولا طائل من ورائها ، لأنها تمر بشكل عنيف جداً إلى درجة أنه لا يمكن أن يخطر على بال أحد مساعدة المتوسلين . حتى إن أولئك السائلين للمساعدة يعلمون هذه النتيجة ، لكنهم اعتادوا على السؤال وكأنها تصدر من حناجرهم على غير اختيارهم كنتيجة لرد الفعل ... حتى إنهم إن امتنعوا عن هذه الصيحة التى بلا طائل فسوف يضطربون ..

الآن نتعقب شاطئ النيل حيث تشكل الساحة المزروعة الخضراء التي على جانبى النهر وكأنها نهراً زمرديا ثانيًا ، فهو ينحنى هناك أيضًا مثل النيل وتتموج بتأثير الرياح الخفيفة مثل النيل ، وهى طويلة مثل النيل ، وفى معظم الأحيان نشاهد مصريا يحرث حقله ، وامرأة تعود إلى قريتها على الرغم من أن على رأسها آنية خزفية ملأتها من النيل .

.ويوجد أيضاً عدد من المتسامرين الذين يتجاذبون أطراف الحديث تحت شجرة النخيل ، وقد تأثروا من ضجيج القطار فأداروا رءوسهم بوضع مريح ناظرين إلى نوافذ القطار بعين التعجب والاستفهام ، وهم يلمحون أهدافه ، إلى أين يذهب هؤلاء المسافرون بهذه السرعة الكبيرة إلى هذا الحد ؟ هل الحياة قصيرة لدرجة أن يستعجلوها لهذا الحد ؟

يتسلى الجميع بمشاهدة جميع هذه الأشياء البسيطة ، وهؤلاء الأشخاص البسطاء، ونشاهد مع هذا السكون القرويين الذين على البعد ، وعلى مدى أبعد تشاهد الجبال مثل كتلة بخارية متموجة ، ووادى مزروع منعزل بين الجبال والنيل ، فالنيل الذى يتغلب على الرمال على يسار الشاطئ ينهزم على يمين الشاطئ ، وتظل المساحة المزروعة فى تلك الناحية عبارة عن خط عرضه متر واحد ، فى تلك الناحية تعلن الرمال انتصارها حيث تسود الماء فى هذه الناحية .

وتظهر جزر زمردية جميلة رقيقة مختلفة بداخل النيل . وتظهر مجموعات من الطيور المتعددة الألوان فوق النيل . هذه الجماعات تعبر من شاطئ أحياناً إلى آخر وهى ثملة منذهلة وجزلة ومتناغمة ومرتعشة فى ظل من النور والحرارة . وأحياناً تستغرق فى ضيافة الألحان على إحدى الجزر الصغيرة فوق النيل .

الآن غادرنا الشاطئ ، إلا أننا استطعنا الآن أن نشاهد الأشرعة على أنها آخر تذكار للنيل ، والأشرعة المثلثة التى تهتز مثل صدر أبيض ملىء باضطراب شديد ، حينذاك تنتهى آثار الحياة ، شاهدنا الآن قطيعا من الماعز المتخلفة ، ومجموعة من الأكواخ الحقيرة ، فكانت كلها

حقيرة وفقيرة ومنزوية ، ولكنني لا أعلم كيف يتمتع هذا المكان بجمال خفي وصمت رهيب ووقار صامت في هذا الفقر والحقارة الملتهبة تحت ضياء أبيض ؟ فجميع الأكواخ تعد كل منها بمثابة قبر محدب ، حزين صامت ، وكأنها خيمة موت ، إلا أنه كان يتصاعد من إحدى الأكواخ خط من دخان رقيق هي العلامة الوحيدة على الحياة ، دخان هادئ خامل وكأنه يتجه إلى السماء مباشرة لينام فوق هذه القرية الصامتة ، إلا أنه كان ينتشر هناك على شكل سحابة رقيقة ... وتشترك خطوط يمكن رؤيتها بين الموقد والسماء ، من يعلم ، ربما يكشف ترنم الطيور المتطايرة بكثرة الموقد الحقيقي الرئيسي ، كان هواء النسيم صافيًا ، ويلف الصمت المكان كله ، كل جهة مفعمة بالنور والضياء ، وتسمو السماء مع تقلص الضياء ، وتفقد رونقها وتصير سماء مرتفعة جدا وشاحبة جدا ، وتظل كل تلك القبة الواسعة على شكل زرقة شاحبة مضيئة وجميلة ، فهي كسماء مرهقة في حالة نقاهة ، فيبدو صدرها النحيف كمن يشتكي من السعال وكأنه يدعو الضياء ليسري عنه .

الآن أخذت الجبال من على البعد تماماً منظراً سائلاً مبهمًا وقد ظلت وكأن كل جبل فيها يرتفع من الأرض تجاه السماء مثل سحاب أبيض حينذاك ، وكنا كمن يودع نهاية الآثار النباتية ، ونهاية أشجار النخيل ، تكون ذرات الرمال فوق أغصان هذه الأشجار المنحنية حجاباً ذهبيا رقيقًا ، من يدري كم من الوقت ظل اللون الحقيقي لهذه الأغصان المستسلمة والمحافظة على صمتها ، مثل سر رقيق للجمال تحت ذلك النقاب ، وكلما تهب بشدة يقال عنها الخماسين ، لا يتغير هذا العالم

الراكد المريض ، ويخلو كل شيء من السعادة والحزن ، ومن السرور والألم ، ومن جميع آثار الحياة ، ويظل داخل توازن عميق من السكون ، وانسجام بين السعادة والسكون لا نهاية لهما .

الآن انتقلنا إلى القفار ، إلى الصحارى التى لا نهاية لها ، حينذاك لم يكن قد بقى شيء مطلقًا أو مكان على الإطلاق يمكن أن تدرك فيها العين سلوى أو نضارة ، فكل شيء واهن داخل نصيب غريب من الاحتضار ، فكل جهة لا يوجد بها أى أثر للحياة ، فالصحراء جميعها غارقة فى سكون عميق لا حدود له ، ويمر فحسب القطار الذى ركبناه داخل هذا الركود من النوم مثل حلم مهتز ، فيمنح رعشة حياة مؤقتة لهذه الكائنات المتوقفة .

ليس هناك أثر للحياة ولا صوت سوى ضجيج حركة القطار وغطيط أنفاس القاطرة وكأن حريقًا قد شب فى جميع أنحاء هذه الصحراء الشاسعة اللانهائية ، فلم يترك شيئًا سوى ذلك الموت العظيم المشهور ، وينعكس ضياء لامع من جميع المناظر وكأنه يصدر من كل ناحية ، وتنبهر العيون من هذا المنظر فتغمض مضطرة بسبب ضعف الأعصاب .

تبدو كل نقطة على شكل غبار ، وتلمع بشدة مرهقة للبصر ، ويستمر مع هذا اللون الواحد الحصاد الذى ينقى من جميع الصحراء ، كله بحر الرمال حتى نقطة انحدار نهاية الرؤية . وهذا اليابس الساكن ومنظر الأشياء التى لا حياة فيها يروح عن قلبى ويسكنه لمدة مؤقتة وقد أعرض القلب أيضًا عن مثل هذه الأشياء المحيطة بجميع زوابع الحياة

فى أثناء هذه المدة ، وظل راكداً بلا شعور ، ولكن لا تتحمل العين ولا الروح أيضاً أن تقف وقفة بصرية طويلة أمام هذا المنظر المتألق .

فيتعب الوجدان أيضًا مثل الحواس داخل هذا الضياء الشديد ، وهذا السكون العميق ، فتعلن تثاؤباً مجهداً ناتجًا عن عدم تحمل الأعصاب جميعها ، فيرغب الإنسان تجاه ذلك النور وتلك الحرارة بالبقاء نائمًا أو متيقظًا ، وتغمض عيناه بدون نوم على الأقل . والآن تستطيع العين أن تحيط السماء التى تهتز مع منظر قطعة بلورية صافية دائماً ، والصحراء التى تلتهب داخل بيوسة مضيئة ، والحدود المبهمة التى تبدو مثل قوس منير سائل من الأفق البعيد ، والأشياء ذات اللون الواحد فقط ، وهذه الأشياء المضنية القوة ، ولا تستطيع أن تجد فى أى ناحية مطلقًا مأوى لطيفًا . ولا تتغير البانوراما مطلقًا على الرغم من أنه يستثنى الظلال ذات اللون البنفسجى الخفيف هنا وهناك ، والملاعب الضيائية التى تنتج عن الألوان الرقيقة ، فدائمًا تلك السماء ، ودائمًا ذلك الجلاء النورانى ... فيبدو للعصب البصرى الامتناع عن إرهاقها بالتحديق خلال هذه الطبيعة ذات اللون الواحد ، فتنطبق الجفون وتستريح الحدقة داخل ظلام وظائف الأعضاء .

يستريح الإنسان للرؤيا بلا نوم داخل ظلمة حدقة العين ، ذلك اللون البنفسجى الغامق المتشنج من طوفان الأنوار المتعبة ، وهو اللون المتمم للون الضياء ومحاط بمنظر ليلى لبلدة خيالية وظلالها وقبابها ومنازلها المتفاوتة فقط ، وغاباتها ذات الأشجار البنفسجية تبدو فى الخيال .

من يدرى بينما الروح داخل هذا العالم ذى الظلال فيصير سماءً منيرة مثلما يحيا تذكار قلبى غير القابل للنسيان . هذه الرؤية القادمة للروح هى مجازاة خيالية تنسى جميع المتاعب التى تصيب العين .

واأسفاه ! فلابد من العودة إلى الحقيقة ، وتتدحرج الحقيقة مثل صخرة كبيرة على هذه البركة من الخيالات . ويشمئز العقل الواعى مرة أخرى يقف القطار وقد وصلنا إلى محطة جديدة ، وكان ضروريا من فتح أعيننا ، والتخلى عن راحة الأعصاب التى استغرقنا فيها ، وترك التذكارات القلبية غير القابلة للنسيان فى قاع الذاكرة مرة أخرى .

غادرنا طريق الإسكندرية من المحطات على خط السويس لأنه مازلنا فى القاهرة ، ولا يرى شىء سوى سيدات البلد ، أين المحطة ؟ من أين حجز التذاكر ؟ والهابطون هنا إلى أين سيذهبون ؟ كل هذا ... مجهول .

على طول خط السكة الحديد تقف السيدات والأطفال فى صفوف ، براعم إنسانية آدمية متواضعة ، على وجوههم تتضح علامات الاشمئزاز والألم من أشعة الشمس ، وعلى ظهورهم جلباب طويل بسيط ، وكأن كل واحد منهم تمثال واقف لا عمل له .

وقد أخذت بشرة السيدات شكل بقرة معمرة عادية بسبب تعرضها دائمًا لغبار ملتهب ، والوقوف دائمًا تجاه أشعة الشمس المحرقة ففقدت نضارتها وجمالها أمام هذه الحرقة الدائمة ، ولا يمكن تخمين عمر واحدة منهن مطلقًا . فكل واحدة أصبحت مثل كتلة مادية تتحرك مع الأعضاء ، والسواد والحرارة الفطرية ، إلاَّ أن عيونهن تلمع بجلاء الحياة

على شكل زوجين من الجواهر السوداء ، السيدات المسكينات ، وينظر الأطفال بتجسس إلى حافلات القطار وهم يمعنون النظر إلينا ويحولون أبصارهم وهم مندهشون إلى الجهة الأخرى من النافذة كمن يشاهد الحيوانات المتوحشة داخل أقفاص حديدية .

لاشك أن هؤلاء الأطفال المبهورين بين السيدات يعتقدون مثل أمهاتهم ، وهاهي سيدة مزينة ، أنها أعجوبة الخلق ، وفي معظم الأحيان وكأن واحداً من المسافرين يهمس بملاحظة بريئة في أذن الطفل الذي بجوار طفل آخر . وكأنه يدعو أخاه إلى دقة النظر لنافذة ما ، وأحياناً تتردد كلمة أو همسة ، جميع الخطوط عابرة من أذن إلى أذن ، وعندما وصل القطار إلى الإسماعيلية محدثاً صوتاً كالسعال داخل الصحراء غير المحدودة لم تتغير أشكال وأوضاع المحطات أيضاً مثل منظر الطبيعة العام .

هناك شيء واحد يجذب دقة النظر في جميع هذه المحطات ، فلا يوجد هنا رغبة للتسول ، ويبدو أنه كلما ابتعدنا عن المدينة عاصمة مصر واقتربنا من القرى المختارة الوحيدة التي لم يزرها الأوروبيون يخف مرض التسول .

في هذه الزوايا التي لم تصلها حضارة أوروبا حتى الآن ، وإن كان مجهولاً إلى أي درجة كيفية معاملات الصرف ، فمجهول أيضاً التسول إلى حد كبير ، فهم لا يعرفون التسول كما لا يعرفون تشغيل إدارة البورصة أيضاً ، جهل لذيذ !

فى الغالب ؛ فإن الكلام متصل بفكرة التسول تلك ، فالتسول فى المدن الكبيرة مثل القاهرة والإسكندرية وخاصة فى الأماكن القديمة مثل المناطق المحيطة بالأهرامات قد يظهر بسبب السخاء المرائى لبعض السائحين ، فعندما تتيسر طرق تهيئة الأحوال يترك الفلاحون فى الحقول المحراث ، ويبدأون فى اعتراض طريق الأوروبيين يتنغمون بنغمة مؤثرة دامية القلب قائلين : " بقشيش " ، ويزداد مقدار التسول المحلى بدرجة تتناسب مع كمية الزوار الاجانب . ولا غرابة فى أن يكثر السواح الأوروبيون مرة أخرى من الشكوى من زيادة نسبة التسول ، فلنعبر !

وصلنا إلى الإسماعيلية قبل غروب الشمس ، وتعد محطة هذا المكان - الذى ينتسب لعصر الخديو المتوفى إسماعيل باشا بمناسبة افتتاح قناة السويس - ممتازة ، فتبدو وكأنها واحدة من الأماكن الأوروبية الجميلة ، هنا على طول المحطة عند الوصول إلى الأشجار المغروسة بانتظام يوجد كل شىء يريح العيون المرهقة ، وخاصة العيون التى أرهقت من منظر الصحراء الطويلة المهجورة والخالية والتى لا نهاية لها ، انقضت ربع ساعة وهى فترة التوقف هنا فى راحة شاعرية ، وعدنا مرة ثانية إلى الصحراء .

كنا نقترب تدريجيا من السويس ومن القناة ، ومع ذلك مازالت تستمر عزلة الأطراف الخاصة بالقفار ، إلا أنه يوجد فقط فى رمال الصحراء مكان ما لحزمة من بضع شجيرات صغيرة ، كانت كل منها تدخل فى إطار المنظر ذى اللون الواحد ، وتمثل تهكمًا نباتيا ، وزينة حقيرة مؤلمة .

بينما كنا نرى ثلاثة أعمدة من السوارى ، وحبال أشرعة باخرة كبيرة بأكملها بين أمواج الصحراء الثابتة ، كانت سفينة تعبر من هذه القنال ، ولا تظهر القنال مع ذلك ، ولا تبدو المياه ، إلا أنه كانت أعمدة السوارى تبدو منزلقة وسط الرمال .

وصلت الآن الشمس إلى زاوية الأفق ، وحل المساء ، وتتغير واجهة مناظر النهار ، ويبرز الضياء والحرارة واليبوسة ... وكل شيء خفيف الآن ، كما ازداد ثقل كتل الرمال ، وكأن جميع التلال قد وصلت لمستوى صحراوى ، وتتحول الظلال إلى اللون الأزرق وتصير قاتمة ، ويحل الظلام وتحط على الأماكن البراقة شحوبة جميلة ، ويظهر فى الأفق لون وردى مبهج ، ولكنه ليس اللون الوردى الطبيعى الذى قد التصق بسحب المساء فى شمال السماء ، ولكنه لون وردى يمكن أن تشعر به مثل الطيف فهو لطيف مثل الخيال . ويمكن أن يشكل نهاية مناسبة لحياة النهار المضيئة حيث يشرق لون وردى فى ظرف بضع دقائق ، وتتم الحياة ، وبينما تشمل نصف السماء خلال دقيقة واحدة يظل بعد دقيقة واحدة مثل قوس فى الأفق ممكن إدراكه بالكاد ، وبعد دقيقة أخرى يصل داخل قاع الكائنات إلاً أنها تترك رعشة جميلة فى الطبقة الشبكية .

ويظل الشفق كله للبلاد الحارة عبارة عن هذا اللون الوردى ، وبعد هذا تنتشر هزة من الضباب المغيم لكل الأرجاء ، ثم يغيب كل شيء تدريجيا داخل سكون مهيب ، وتتلون الآفاق باللون البنفسجى ، وتأخذ

السماء شكل دوامة زرقاء اللون ، وتزين ليلة زرقاء داكنة جميع المناظر تحت أجنحة مكوكبة .

حل الليل ، فتلمع المجرة وسط السماء مثل قنطرة مرصعة ، وتبدو مدينة السويس بجميع أماكنها المضيئة على مسافة بضع مئات من الأمتار مثل برج أرضي ، وبعد بضع ساعات من غروب الشمس دخلنا ذلك البرج الأرضي .

قلت لطفل عربي كان يحمل حقائب سفري :

إلى فندق بلير .

الرسالة السادسة عشرة

من السويس

هناك بعض المدن التى لا يوجد فيها مبانى تاريخية ولا آثار مشهورة ، ولا أيضًا أى ميزة زراعية أو تجارية أو صناعية ، ووصلت بعض العائلات بمحض الصدفة وأقامت هناك سكنًا مؤقتًا ، ثم ازداد تدريجيا عدد المساكن معًا مع مقدار العائلات الموجودة ، فظهرت مدينة ما ، وهكذا كانت السويس من هذا النوع من البلاد .

قبل افتتاح القنال كان هنا قرية صغيرة ، وكان يوجد ميناء متواضع للسفن التى تتجول فى البحر الأحمر ، ويكتفى بضع مئات من الأشخاص الذين يقتاتون بالملاحة ويتغذون على الأسماك بنصيب ضئيل من الحياة هنا ، ولا يمكن أن تتطور القرية أى تطور ، ولا تتغير بدرجة يمكن أن يشعر بها عدد من السكان ، وكانت الطبيعة ترفض من هنا كل وسيلة مهمة لاتساع سعادة الإنسان ، فجميع الأطراف صحراء يابسة وجرداء تقتل فى نظرة واحدة كل أمل للزراعة ، فلا يوجد ماء عذب ، ودرجة حرارة الجو فوق نسبة الدرجة المعتدلة ولا يمكن تحملها ، إلا أنه يوجد بحر يبدو عطوفًا قليلاً على هذه الأرض البور حيث يمكن أن يقدر على إمداد شعب القرية فقط بالأسماك الوفيرة هناك .

لا يمكن لأى نظرة شاملة لكل الأفق أن تشاهد على الإطلاق فرحة تألق زراعية فى مكان ما مطلقًا أو ذرة من النباتات ، فالمناظر عبارة عن بادية منعزلة وكئيبة ، وملتهبة بسبب كونها مكانًا رمليا محاطًا بتلك الجبال الرمادية ، والصخرية الحجرية ، من على البعد ، ووجود بلدة داخل هذا العالم الذى بلا حياة يحتاج لمعجزة سماوية غير متوقعة ، وحادثة أرضية غير طبيعية ، فلا مكان هنا لإحراز سعادة الرقى ، وأضحت عمليات حفر القنال وكأنها فرصة هكذا ، وبسبب هذا الميناء السيىء الحظ فقد توفى بضع مئات من المهندسين داخل القرية وكأنها مقبرة بشرية ، وما يُقَدَّر بحوالى عشرة آلاف من العمال ، ومئات من أرباب التجارة .

وسوف أترك الحديث هنا لفرنسى عجوز وهو صاحب فندق بلير الذى أقيم فيه فيقول :

يجب علينا أن ندرك أنه لم يكن هناك عمل ولا حياة ولا تجارة ولا بهجة ولا أيام مفرحة ! فقط الرمال الملتهبة والرياح المضطرمة نهاراً ، فينتشر المتعبون بين أشعة الشمس الحارقة التى تشوى البدن حتى المساء فى الخيام والأكواخ بعد الغروب ، وكانوا يملأون الصحراء المهجورة بنظرات الشوق للشراب ، كان كل شخص يعمل كثيراً ، ويستريح كثيراً ، ويفوز دائماً ، وينفق دائماً ، وكان المسافرون المجتهدون بمثابة خزينة قارون المبهجة فهم فرصة بالنسبة للشعب السويسى .

وصار جيب العمال هو كيس حاتم الطائى المفتوح فى أيدى القرويين ، إلا أن رمال الصحراء تقضى على راحة العصور البالية داخل

المرح والسرور ، فلم تسعد فتح الطريق للقنال الرمال مع ضربات مجرفة الحفر بسبب إجازة المصمم للقنال ، وتسكن كل رغبة هادئة وادى النيل ، وينقل إلى السويس حدائق بكثرة ، ويبدو فيضان وبركة من كل شيء مثل النقود والانشراح ، إلا أنه كان يُحس بعدم الكفاية وبالعجز ، وكنا نحن نلمسها كثيراً جدا ، نعم لم نكن نستطيع أن نجد ماءً عذباً ، لا تصل المياه سواء القادمة من النيل على أحمال الجمال ، أو أنه كان يصل إلينا سعر هذا الدفع والشراب القديم .

كانت حناجرنا التى اعتادت على البلل والارتواء بضع مرات فى اليوم فى البلاد الحارة تحترق من العطش فى هذه الصحراء الحارة ، كنا فى حمى من العطش لدرجة أن الواحد فينا من الممكن أن يشرب النيل بأكمله ، كان العمال وهم القسم الأعظم المستفيد يوميا يستهلكون الماء ، وكانوا لا يستطيعون أن يطفئوا لهيب الحريق فى أمعائهم من جديد .

حينذاك تبادر إلى ذهن السيد " ديلسبس " فكرة حسنة وهى افتتاح القنال كما قلتم ، وأوصل هنا مياه النيل ، وفى الحقيقة تجلب قناة فى عرض ربع متر تقريباً قادمة على طول السكة الحديد الماء للسويس ، وما زالت حتى الآن تجلب الماء إلى السويس . لم أكن قد شاهدتها ، وصدقت مخاطبى العجوز الذى استمر فى حديثه مرة أخرى بعد أن سحب نفساً أو نفسين من البايب قائلاً :

آه ! إلى أى درجة تحرى ذلك العطش فى عهد حضرة موسى ، كنا مغتبطين إلى درجة كبيرة لبنى إسرائيل الذين ارتووا فى ظل عصا موسى ، فأنتم تعلمون أنه عندما بدأ بنو إسرائيل يشكون من شدة

العطش عند جبل حورب ضرب الكليم عصاه المعجزة ، فوجد نبع صاف في ذلك المكان ، وقد استمرت عمليات الحفر أكثر من عشر سنوات ، وفي غضون تلك الفترة أخذ يزداد عدد القرى في السويس قليلاً ، وفتحت الفنادق والحانات والكازينوهات ومقاهي الغناء ، وتتمازج الآهات المؤثرة الصادرة من تحسر نقرات العمال القادمين الذين تركوا ما أحبوه في فرنسا مع نغمات جميع الآلات الموسيقية العامة .

وقد نظمت حفلات الرقص ، وكان كل شخص يقفز قليلاً أو كثيراً ، ولا يشعر الشخص بتعب مطلقًا أثناء هذا السرور والانسجام المرح ، ولا يستطيع أن يدرك معنى كلمة إحراقة من الشمس ، وتبرق روحنا كلما عدنا إلى لون الزبدة مع بياض جلد بشرة وجوهنا ، ثم إلى اللون البرونزي وكأن حياتنا قد عادت إلى سابق عهدها ، وانقضت هكذا ليالي السويس كما لو كان حالنا في ليالي العيد ، وبعد انتهاء عمليات الحفر وبعد أداء مراسم الافتتاح استمرت هذه الحياة الثملة .

وفي الحقيقة فإن الذين أمروا بتنفيذ حفر القنال كانوا قد رحلوا ، لكن في مقابل هذا فإن جميع محتويات السفن العابرة من القنال تصب كل يوم في السويس ، وتملأ الفراغ الذي تركوه هم أنفسهم ، وكانت بورسعيد في ذلك الوقت خاملة الذكر ، وكأنها غير موجودة حينذاك ، فقد أضحت السويس مركزًا للقنال ومازالت تمثل أكبر المدن هنالك ، وتضطر البواخر التي تدخل الفرحة لبورسعيد أن تعبر من هنا .

ويمرر الملاحون سفن المسافرين خلال ساعات توقفهم في السويس في عالم من المرح ، وطبقًا لثقل كيس كل شخص ويساره فإنه إن لم يترك

هنا قطعة بحوالى مئات من الفرانكات فإنه لا يستطيع أن يعبر ، ثم برزت بعد ذلك بورسعيد كمنافس مذهل ، حيث بدأت تتقدم بسرعة رهيبة ، والآن تودعنا الأيام الجميلة الواحدة تلو الأخرى كأنها مولود جديد يظهر ابتسامة للمدينة القديمة ، هنا تصمت الموسيقى تدريجيا وينتهى الرقص ، ولا تسمع شرقيات العشق والربيع ، وأغلقت مقاهى الرقص :

فلنوجز فى كلمة واحدة ألا وهى : إن مدينة السويس قد توفيت ، فقد عاشت المدينة الحزينة التى رأيتموها اليوم حتى خمسة عشر عاماً فقط فى مهرجان من الاستمتاع والانغماس فى الملذات الأكثر ضجيجاً . ولم تكن سوى جثة مدينة باردة ، ولم أشاهد مولد هذه المدينة ، ولكننى رأيت شبابها كله ومرحلة سعادتها ، ثم أيام شيخوختها جميعها ، وكذلك أيام احتضارها كلها .

نعم ! انتهى العمر الذى طال ثلاثين عاماً بالفندق الذى تقيمون فيه تجاه هذه المناظر المتباينة ، ألا تستطيع مدينة ما أن يعيش فيها حتى إنسان ، إنه أمر مؤلم جداً ، أليس شيئاً يستحق الشفقة جدا ؟

صمت صاحب الفندق ، ولكن هذه الذكريات قد أغرقته حزناً وأسفاً وهى تجلب ذكريات تستحق تدقيق النظر فيها جيداً . قد استمعت إلى أحداث مدينة بأكملها بلهجة مشاهد ومصور كان أمامى بين البسكويت والشيكولاته ، وقد أسعدتنى كثيراً الأشياء التى يقولها هذا الإنسان العجوز وهو ينطق الكلمات الفرنسية بلهجة مارسيليا ، وقد رغبت أن أجعله يتحدث مرة أخرى فقلت :

ألا يوجد هنا مكان يُتنزه فيه ، ويستحق المشاهدة ؟

لا مع الأسف ، لا أستطيع أن أرى مكانًا يستحق المشاهدة .

فقال واحد من السياح القادمين إلى هنا نتيجة ما شاهده :

رمال ، مرة أخرى رمال ، ودائمًا رمال . أتذكر كل وقت هذا الحديث الحقيقى .

ها ! انظر ، إن أردت زيارة مكان ما على كل حال تستطيع أن تذهب إلى عيون موسى ، لا أدرى لماذا يعطى السياح أهمية كبيرة جدا لهذا ؟

لأنه لا يصدق أن هناك علاقة بين حضرة موسى ورواية التاريخ المقدسة مثل النبع العذب الذى فى هذا الجبل الداكن " حوريد " . غير هذا لابد من المرور إلى الجهة الأخرى للماء لهذه الزيارة حيث تكون توقفًا لتعاسة داخل مركب غير مناسب ثلاث أو أربع ساعات فى الهواء الساكن هنا .

وإن كانت أماكن الأشياء الأخرى التاريخية والجغرافية والفلسفية التى سوف تشاهدونها طبقًا لاختياركم هذه المشقة ، فإننى أشجع راغبينا لهذه السياحة ، لكنكم لن تستطيعوا أن تروا شيئًا سوى عدة آبار للمياه المالحة المختفية تحت عدة أشجار من نخيل ضعيف .

ها ! حقا ، نسيت الحانات المؤقتة المشيدة بين أشجار النخيل ، وتتحصر كل الحكايات المرتبطة هناك والمنخدعة بلقب عيون موسى فى الشكوى من تلك الحانات ، وغير عنوانها فإن جميع السياح يتفقون على رواية أنهم يشترون زجاجة الخمر بسعر لا يصدق .

الآن . إن رغبتم ، تستطيعون أن تذهبوا ، سوف أستطيع أن أظل يومًا واحدًا فقط فى السويس ، وإن لم يكن هناك مانع آخر قد يكفينى لزوم قضاء خمس أو ست ساعات فقط لامتناعى عن زيارة عيون موسى .

وقررت أن أقوم بتجوال بسيط داخل المدينة مكتفيًا بالمعلومات المتهكمة التى حصلت عليها من صاحب الفندق العجوز بخصوص ذاك الموقع المشهور ، وطبقًا لحكم صاحب الفندق بخصوص السويس فإن هذا التجول البسيط كان بمثابة تشريح لجثة وفتح ميت ، بلا مقصد ، ولم يستغرق مدة طويلة قط هذا التشريح البيطرى الذى قمت به مع مشاهدة بلا مبالاه لأن السويس لم تكن شيئًا سوى مدينة صغيرة حزينة مزهوة بشارع وحيد طوله بضع مئات من الأمتار فقط ، ويكفى لقطع المدينة من أولها إلى آخرها بخطوات بطيئة ربع ساعة أو أكثر قليلاً .

يوجد تقليد معمارى هندسى يستحق دقة المشاهدة فى منازل المدينة الخشبية المصبوغة باللون الأحمر الداكن خاصة ، فكل منزل محاط دائرًا ما يدور بشرفة واسعة والتى يطلق عليها تعبير براندا ، وتظل البراندات على ناصيتى الشارع معلقة على المبانى مثل سلة مجدولة كل منها من أولها إلى آخرها .

فكيف وصل إلى هنا هذا الشكل المعمارى لأقصى الشرق الذى لا يخلو من جمال غريب ؟ لماذا لم تنتشر بالإسكندرية والقاهرة يا ترى ؟ هل ظهرت هذه الميزة بالسويس بسبب كونه أول ميناء لموارد الهند بحرية ، أم أنه علامة ظاهرة لهذه الموهبة العرقية ؟ لأن المحققين الذين يرجعون

أصل المصريين للهند لا يستبعدون دخول الشكل المعمارى الخاص مع أمتعة الهند المختلفة مثل الأشياء غير النادرة للهند ، عدت إلى طعام الغذاء تاركًا حل هذا اللغز المعمارى للعلماء .

كانت السماء خالية من السحب تمامًا ، وعالية جدا ، وكانت وكأنها قد غابت داخل مساحة واسعة ذات لون خفيف ، وتتناثر الأشعة الضوئية بشكل عمودى فوق المدينة والصحراء على شكل بريق متوهج ، وكانت تشعل جميع الذرات الطبيعية بلهيب خفى ، بينما تتحدث اثنتان من السيدات اللتان وصلتا من لندن أنهما لم يجدا تناسقًا مطلقًا فى درجة حرارة اليوم مع ما اشتهرت به الرياح الشمالية فى شهر كانون الثانى ، وكانتا تهويان صدورهما وهما يموجان بأيديهما صداريتهما التى تخفى جمال قدهما برقة حريرية ، وقد عطرت رائحة الليلك الرقيق القاعة تدريجيا .

تقضى فى البلاد الحارة الساعات الحارة التى تعقب طعام الغذاء عادة فى النوم والراحة ، وكلما ارتفعت الشمس يختفى كل شخص ، ويقبل ارتخاء أعصابه داخل ظلال الحر ، وتمنع أشعة الشمس المهلكة كل رغبة للتحرك .

يظهر الموت فى هذا الوضع المؤلم فوق شعاع شمس متألق فى الغالب ، وتحل ذهبية الشمس ونور ضياء بسيط محل نار جدائل السيدات الشقراوات اللاتى ينصحن المحبين المهلكين ، لأن هذه الأقاليم تستطيع أن تتدارك فقط الحسن الأسمر ، وتجبر الأشعة الحرارية الحمقى الذين يخرجون تجاهها فى ساعات الغذاء على الندم بلا ألم .

كم شاهدت الطيور السفاكة المتجولة فوق الصحارى اللانهائية وهى شاهد كتوم للمصائب الفجائية ، بينما نحن نرتجف من البرد فى بلادنا نفسها فى أيام الشتاء ، ألا نغتبط بأجزاء الإنسانية المتجولة فى المناطق المجاورة لخط الاستواء ، فهناك الكثير جدا من الأمراض الخاصة بكل زاوية أرضية ككون بعض الأمراض خاصة لكل دورة حياة .

استطعت الخروج من الفندق قبل الغروب بساعتين تقريباً ، وصلت إلى شاطئ البحر ، وكانت نسمات البحر الأحمر المعتدلة تهز مروحة مسلية فوق ذاكرة الحرارة النهارية ، وكنت أتنفس فى اشتياق واشتهاء .

يتصور الذين يسندون أهمية للألفاظ أكثر من اللازم ، أن سطح البحر الأحمر لونه أحمر ، و كما يظنون أيضاً أن مياه البحر الأسود فى لون السخام ، ويأخذ هذا التصور حينذاك القدرة التلقينية للاعتقاد الوجدانى بسببه خداع بصرى ، فيبدو البحر الأحمر بلون مثل لجة دموية حمراء وهو فى الحقيقة أزرق مثل كل البحور . انظروا ماذا يحكى سائح أوروبى :

شاهدنا حادثة غريبة فى الطريق ، كان سبب تسمية البحر الأحمر بهذا الاسم فى قديم الزمان ، وبينما نحن مدفوعون فوق الأمواج الصغيرة ومنزلقون شيئًا فشيئًا إذ تغير لون المياه فجأة بلا سبب ظاهرى ، زال اللون الأزرق ، وانكشفت احمرارية مثل أمواج دموية فى دائرة امتداد أبصارنا ، وسطح البحر متحرك ، فكيف ظهر هذا السحر الفاتن الغريب فى ظل التأثير الفجائى .

ولو كانت مهمتي إعطا ، تفسير لهذا السائح الصادق لكنت أقول له :

فى ظل تأثير تلقيني لاعتقاد قديم باطل ، فليس هناك ميزة احمرارية في مكان قط سوى عنوان البحر الأحمر ، فهو أزرق كأى بحر أيضًا ، وهو أحيانًا ساكن ، وأحيانًا متلاطم مثل اى بحر ، ومع ذلك توجد بعض المميزات التى لم تشاهد فى أى بحر مطلقًا وهى البحث عن لماذ؛ يطلق اسم البحر الأحمر على هذا البحر ، ويفيد عن التفكير مثلاً عن عدم إطلاق اسم البحر الأخضر أو البحر الاصفر ؟

فى الحقيقة لأنه تعيش في ذلك البحر مجموعة من الحيوانات الصغيرة جداً ، وتكون هذه العضويات غير المرئية بعض التشكيلات المعدنية مثل المرجان الذى ليس له مثيل فى أى بحر اخر ، ويسبب تلك الميزة جلبت دقة نظر الفن ، فهى فى الدراسات الأولى توجد فى هذه المياه التى كونت طبقات عميقة لهذا البحر المتميز حرارة نسبية خاصة ، وتحجب تلك الحيوانات الصغيرة تحت ظـــل حـــرارة ... وتتوالى دائمًا " لماذا " فى طريق التحقيقات ، وعندما يُفهم لماذا تتكاثر هنا تلك المخلوقات الصغيرة جداً يبدأ التقصى والبحث عن سبب وجودها فى هذا البحر باستثناء هذه الحرارة . وتتعاقب النظريات للحل الواحدة تلو الأخرى ، وأخيراً وفق مسيو " جانسون " من أعضاء أكاديمية الفنون الفرنسية لحل هذه المسألة بصورة مقنعة تقريباً فقال :

إن سبب الحرارة التى فى الطبقات العميقة لهذا البحر هو انفجارات البراكين الحارة التى لم تتوقف تماماً حتى الآن فى قاع البحر .

يظل هذا البحر الكبير فوق فوهة بركان واسعة قديمة ، وصار هذا الكشف المهم مداراً لتوضيح جميع عجائب البحر الحية من بينها أنه كان لا يمكن معرفة من أين تخرج الجزائر البركانية التى تكون قسماً لجزر البحر الأحمر ، الآن اتفق كل شخص على أنها بسبب كومة انفجار بركانى كل منها على حدة .

والأغرب والألطف هو أنه أصبح واضحاً سبب تسمية البحر الأحمر بهذا الاسم ... فبينما تندفع القذائف البركانية الشديدة جدا من القديم وحتى الآن فإن العناصر البركانية ترتفع حتى سطح البحر .

وكان هذا المنظر النارى يحجب لون البحر الأصلى ، عن الذين ينظرون لهذا الشكل ، فيطلقون على هذا البحر اسم البحر الأحمر .

ويفرح أيضاً محبو البحر والاستقصاء لعلم اللغة التاريخى فى ظل الكشوف الفنية .

كان صاحب فندق بلير محقا جدا فى شكايته فالسفن القادمة التى جاءت من أقصى الشرق ومن يوكاهاما تعبر وتسير بأسلوب لا وفاء فيه جداً ، فكرت فى الطريق الذى قطعته هذه السفن القوية التى تقاوم التهديدات المروعة لأعاصير طيفون والموانى التى عبروها ، وكانت معلوماتى بخصوص تلك الأجزاء الأرضية شىء قليل جدا إلى درجة أن جهلى قد أرجفنى .

إن كلمة جاوا فى فكرى تذكر بقصة مبتذلة دمتوان " باتاويا ، لهنرى قونسيانس " ، أما اسم اليابان فهو يذكر ببضع الأطباق ذات الرسوم العجيبة فى حكايات جميلة للوتين فقلت لنفسى .

أليس العمل بالتربية الفكرية ودراسة القصة هو أحد عيوبنا الكبيرة ..؟!
ويكتفى بالمعلومات التى نحصل عليها بخصوص اليابان من حكاية " قريزانتته م " .

أعتقد أنه يكفينا أن نتعلم أن اسم بعض الرجال فى بلاد الأساتذة كوكرجين - "حمامة" وبعض السيدات " فراشة " ، ولا يقال لنا حتى بالتجسس المدقق :

انظروا إلى روح هؤلاء البشر فى أقصى الشرق ، انظروا إلى هؤلاء من الآثار المهمة ، ولاحظوا روح هذا العرق الأصفر الذى يظهر شكلاً حضاريا خاصاً ... لا ... إنهم لا يقولون ذلك ...

ولو أردتم أن تسألوننى ... فاتهموا الروايات بقلة الحياء والأدب ، إننى أتحسر على تلك الأيام التى كنت أهرع فيها إلى الروايات برغبة فى البحث عن المعرفة ..

الرسالة السابعة عشرة

من باخرة الرحمانية

تركنا سواحل أحواض السفن لقناة السويس منذ ساعة بعد غروب الشمس ، وكان الطقس حاراً جدا ، والباخرة مكتظة جدا ، وقد حل المساء ، ولكنه لم يصد شيئًا من تلك الحرارة ، وكان كل شخص يشكو من العرق والازدحام ، وكانت المناديل تستعمل كالإسفنج والمروحة . وقد استطاعت ريح المساء اللطيفة الخفيفة التى أدركتنا بعد الابتعاد كثيراً عن الميناء ، لأن تنقذ حينذاك المسافرين من ضيق التنفس والذى يعطى هواءً ناريا مندفعاً تجاههم ، حينذاك كانت تجرى نبضات الصدر بسهولة مريحة .

الآن يشعر السائحون بتحسن جيد ، وبقوة ونشاط ، حتى إنهم يرغبون فى الاستمتاع بالمناظر مع أفول الأفق ، وتظل الشمس بلا حركة متدلية وتتلاشى تدريجيا بضعف بلا حرارة وقانطة مثل سفينة غارقة بتأثير الطبيعة بين جزر فضية وصدفية ، وجزر خمرية وذهبية وهى التى تشكل السحب الحقيقية ، وتظل فى الحال بلا حركة ، وكانت تتداعى ناحية الغرب تداعيًا بطيئًا وكأنه سقوط مشوب بالاحتضار غير

المحسوس ، وكانت قبة السماء تنعم بلا قيد بنير ذلك القلب العظيم الذى يذرف الدم فى أفق الوجود داخل زرقة رقيقة جدا وصافية وهادئة .

أما المسافرون فكانوا ينظرون إلى البحر أكثر من نظرهم إلى الشمس والسماء ، فقد نظم ضياء الغروب الألوان السبعة بكل اتساعها على سطح البحر الساكن الذى بلا نهاية ، وجعلته على شكل دثار حريرى منقطع النظير ولا يضارع ، وكانت تضفى على البحر ملاحة تدرج الألوان لقماش مطرز مشكّل ومنوّع .

وإن كان الإنسان القديم يصادف لأول مرة عند رؤية البحر الأحمر هذا المنظر البسيط للماء فإنه بلا شك سوف يرى أن عنوان بحر قزح هو أنسب عنوان لذلك البحر ، ويعد صباح أفول هذه الأقاليم سريع الزوال حتى إنها تخدع النظر وتعبر خلال بضع دقائق أدوار احتضارها ، وترحل مسرعة تجاه صبح جديد لأقاليم جديدة مودعة قبلة السكون الأخيرة على شفاه الطبيعة ، وتغيب شيئًا فشيئًا الأطراف التى كانت تضحك قبل قليل جدا على شكل ألوان وقت العيد ، داخل قطرات من الظلام التى تنتثر على حوض بداية ليل أبدى ، الآن وكان كل شىء وكأنه يلفه صمت وقور ... إلا أنه انعكس ظلام ملكى على رأس الذروة ، وسماء بخطوط مضيئة ومرتعشة أسفل .

حضر جميع مسافرى حجرات الدرجة الأولى عند طعام المساء ، ويذهب حضرة صاحب العطف " صالح رشيد بك أفندى " من أعضاء دولة الشورى الكرام ، وأربعة أشخاص من أقارب حضرته النجباء إلى ينبع لأجل الحج ، وغير هؤلاء كانوا يشغا.. منضدة وكان يشغل

إنجليزى مكلف بالسفر إلى السودان مع قائد أركان الحرب وواحد من قائمقامية المدفعية الخديوية منضدة ، وكانت تشغل منضدة أخرى أخوات الآنسة غرنفال ، وتعرف قبعات هاتين الأختين التوأم اللتين يزيد عمرهما عن نصف قرن ، وهى توافق لموضة عصور ما قبل الطوفان ، ولاتعتبران آنستين عاديتين بزيهما الفيلسوفى لدرجة أنهما تستطيعان مساعدة سيدات الإنجليز ، فكانتا تلفتان دقة الأنظار وتدعوان إلى حيرتها ، حيث كانتا بمثابة تعذب فيها العيون المتجمعة ، حول هاتين الأختين كانت العيون تتركز فى عذاب وألم وتسعيان للتعارف عليهما للتخلص من هذا العذاب .

وكانت هاتان الاختان تعرفان ثلاثين لغة بشرط عدم معرفة الأولى ما تعرفه الأخرى ، يا لها من لغات أيضًا : مثل الآشورية واللاتينية والعبرانية والسريانية القديمة واليونانية القديمة والمصرية ، وبالإضافة إلى هذا كانتا تعرفان أيضًا جميع اللغات التى يتحدث بها فى أوروبا اليوم .

يدرس الإنسان لغات كثيرة جديدة كما قال حكيم مشهور ولكنه يعرف واحدة منها فقط هى اللغة الأم ، ولا تتحكم هاتان الأختان اللتان تبحثان عن معرفة ثلاثين لغة لتلك القاعدة الحكيمة كاستثناء لكل واحدة منها ، ففى أثناء الطعام تتحدثان الفرنسية والتركية غير اللغة الإنجليزية ، ومن أجل فهم لغتهما الفرنسية يضطر المستمع لاستهلاك جميع قوة الملاحظة – إلا أننى أستطيع تتبع مجرى المحادثة بمساعدة السياق – أما فهم لغتهما التركية فلم يكن ممكنًا على الإطلاق ، فالشىء الذى

يدمدمان به ظناً بأنه اللغة التركية يشبه قليلاً لغتنا حيث يُظن أنهما تتحدثان فى بداية الأمر اللغة الآشورية أو الكلدانية .

وكلما صادفت الواقفين الخبراء المطلعين على عشرين أو ثلاثين لغة هكذا، والشخصيات النادرة تأتى لخاطرى ، وفاة الكاردينال متز : فمعلوم أن هذا الكاردينال المشهور الذى توفى فى العصور الأخيرة أنه كان يتولى العمل بترجمة الفاتيكان بسبب أنه كان يعرف اثنتين وثمانين لغة ، نعم اثنتين وثمانين لغة بشرط التحدث بها وقرائتها وكتابتها ، وكان الكثير جدا من علماء العالم يتسابقون إلى روما بهدف زيارة هذه الأعجوبة ذات الألف لغة ، ولكن غريب أنه يندر جداً من يعود بتقدير ودهشة ، حتى إن فيلسوفاً ألمانيا رأى الكاردينال فقال عند لقائه به :

نعم يتحدث باثنتين وثمانين لغة ، ولكنه مثل الببغاء تماماً ! فهو قادر على التكلم ولكنه عاجز عن المحادثة ، فهو يخرج الجواب من شفتيه على الكلام الذى يدخل من أذنيه ، فهذا هو كل ما فى الموضوع ! فتعمل عناصر الإدراك مثل ماكينة بلا روح وانفعال ، متحركاً ببخار الألفاظ .

وكل هذا المغزى ظهر على شكل حافظة كلمات كبيرة فجذبت الملكات الفكرية الأخرى ثم تنطفئ ، فكان الكاردينال يقابل عندما يسمع الكلمات فلان وفلان بكلمات فلان وفلان مثلما يعطى بيانو أصوات فلان وفلان عند ملامسة فلان وفلان لطبقاته الصوتية ، وفى الحقيقة فإن العقل البشرى يتحمل مشقة حتى مع لغة واحدة ، لأن اللغة ليست ميزة موهوبة وإنما هى ملكة مكتسبة ، وليس الفرد بناطق بحكم طبيعته البشرية ، فالجماعة البشرية تنطق أفرادها جبراً بالتعليم والتربية ،

وبهذه الصورة فمن الضرورى جدا إذا ما بقى عقل بشرى تحت اثنتين وثمانين لغة أن يكون محطماً تماماً .

كنت أتنفس دخان سيجارتى المنبهة مستنداً على ظهر السفينة بعد الطعام ، وعدت مباشرة للإقليم المصرى مع تتبع رجوع الدخان الحلزونى الذى يتصاعد من سيجارتى تعمقًا فى التفكير .

لقد ظلت جميع حياة ساكنيه ماثلة أمام ناظرى بكل تاريخه ، آه ، كيف لا تستحق هذه اللوحة العظيمة المشاهدة ؟

خرجت من هنا بالظنون والاعتقادات الأولى التى كونت المقدمة الضرورية لتقدم التاريخ ، ترجمت هنا أول اضطرابات الشك وأول الأباطيل الأولى .... فكان أن تولدت هنا روح الوجود ، ولطافة الروح ، وبقاء روح الأفكار بعدما طردت العشائر البدائية المتفرقة من قبل قبيلة مهاجرة مرت من آسيا إلى قاع مركز أفريقيا ، وخاصة السودان ، وأسست الحضارة المصرية التى بدأت تنشأ وتنمو فى عصر الأوهام والخرافات الأول . وصار الإقليم المصرى المهد الأول للأباطيل ، لكنها لم تظل مع هذا ، فصارت بينها مهداً للصناعة ، ومهداً للفنون ، ومهداً للفلسفة ، وأخيراً صارت مهداً للثروة فى القرن التاسع عشر الميلادى .

نعم ! مهد الثروة ! كانت الإسكندرية يُقْدم إليها لدراسة العلوم خلال فترة ما ، وفى وقت ما كان يسرع إليها بهدف ربح الثروة ، استمعوا لتلك الحكاية الغريبة قبل كل شيء :

قبل ستين عامًا تقريبًا كان طفل يبلغ من العمر أربعة عشر عامًا يُقبل يدى والدته التى تقيم فى جزيرة "لمن" ، راجيًا ومتوسلاً ليذهب إلى

الإسكندرية ليكافح ، وكان يتضرع ويبكى ، ويحتمل أنه اتجه للجوء لروح الرحمة للوالدة المشفقة مع هذا القلب المتلهف المتطوف الذى يريد الهرب من منزل الأم ، ولاسيما وأن الأم فقيرة جدا ، وكان الطفل لديه رغبة قوية للطمع . لكننى أريد إنهاء الحكاية بسرعة ، فبينما كانت التضرعات الأولى للطفل فى البداية تُقابل بالرفض فإن توسلاته ورجاءه الأخير الذى أخذ شكل التهديد والإصرار حينذاك اضطرت الأم على الموافقة .

ظل الطفل ينتظر الدخول إلى مرفأ سفينة ذاهبة إلى أرض مصر ، ذات يوم كان يقف أمام مرسى هذه السفينة المفحمة التى غطى أشرعتها البيضاء الغبار الأسود ، وتنتظر الرياح المناسبة للوصول إلى ساحل أفريقيا ، ويجرى الشاب "يانى أنطونيا دى" تمامًا مثل ملاح عجوز إلى داخل هذه السفينة ويفتح أشرعتها ويجمع حبالها تاركًا المرفأ ومتوجهًا إلى الإسكندرية مع ذلك الهواء .

كانت والدته تستطيع أن تودعه عشرة قروش نحاسية هى كل ثروتها لهذا الطفل بين قبلتى وداع قبل ساعة واحدة ، بماذا اشتغل " يانى أنطونيا دى " فى الإقليم المصرى خمسين سنة ؟ إنهم يصرون ، وخاصة الذين يرتبطون بصلة قرابة ب " أنطونيا " أن يظل هذا سرا مدفونًا تحت حجر ثقيل .

ومعروف لكل شخص أنه حينما توفى ترك " يانى أنطونيا دى " ثروة تقدر بمليونى ليرة ، وحينذاك لم يلقب " بيانى أنطونيا دى " وإنما تلقب باسم مستر " جون أندوينادس " .

وأصبح الطفل المتشرد الذى خرج من بلده بعشرة قروش نحاسية فى جيبه ، محور نشاط بنوك مصر ، ونال أعظم حدائق الإسكندرية ، وآثار حسد الدوقة والأمراء .

حدثت هذه الحكاية العجيبة مثل أى واقعة عادية فى الإسكندرية ، وعلاوة على ذلك فلم يكن مستر جون أندونيادس المحظوظ الوحيد الذى لا مثيل له ، فقد أحرز كل من "آواروف" و"زاردوناكى" و"صورصوق" ثراءً بالقرب من النيل .

حل الليل ، وكان ليلاً أسود مظلما تاما ، إلا أن الأجرام السماوية كانت تنثر طبقة غبار متألق ورفيع ومهتز على الظلام الشامل ، وكان البحر بأسفلنا وكأنه ليل عذاب ، والهواء حولنا وكأنه بخار ظلام ، سقط عقب السيجارة الذى فى يدى فى البحر وقد رسم قوسًا من الشرارة بالنار معًا ، وكانت ذرات الرطوبة التى تمتلئ بهواء البحر وتتكاثف على شكل مطر رقيق ، فكان لابد من الانسحاب إلى حجرتى فى السفينة .

اليوم الثانى

استيقظت هذا الصباح مع الوقفة المفاجئة للباخرة ، وليس من السهل التعريف بوصف وتحديد شدة الخفقان الذى يتركه التوقف فجأة فى هذه البواخر على القلب ، إلا أنه ينبغى تصور أننا كنا نقوم بسياحة فى بحر من الشعب المرجانية وكادت كتلة الشعب التى صادفت قاع الباخرة بغتة أن تهلكنا ، وتكشف الحيوانات الصغيرة اللانهائية كل

أطراف هذا البحر الغريب عن هذه الحيود البحرية المرجانية ، ويشكل هذا الشرك عدم أمان بتنظيم وإنشاء سلاسل صخرية وتُكتشف كل سنة حيود مرجانية جديدة إلا أن كل حيد مرجاني يستطيع أن يمر بجانب باخرة كبيرة أو سفينة تضج بنفوس بشرية ، ومع كل خطوة يرد احتمال الاصطدام بهذه الحيود المرجانية المهلكة ، وهذا الاحتمال الذي يُعد بمثابة استطراد عادي للشئون البحرية ، هو ما يُرجف قلب كل سائح .

أيقظت وقفة الباخرة المفاجئة احتمال الهلاك الذي يرتجف في روحي بشدة ، وكأنما لم يبق شيء واحد مطلقًا على مرمى بصري في لحظة واحدة ، وليس هناك سوى حياتي فقط ، وعلاوة على ذلك صرت كمن يريد التمسك بها ، وعدم الانفصال عنها ، والبقاء داخل جوف مذهل لا حدود له ، وكأنما اختفى عمري السابق بأكمله ، وجميع خيالاتي وذكرياتي ، وجميع ما أحببته وكل شيء في قاع دوامة نسيان لا نهاية لها .

سمعت أنين وداع زلزل كياني داخل شعر مميت مذهل ، يقول الحكيم المشهور إسبينوزا :

" يريد كل موجود أن يخلد في وجوده " .

صدقت علم الحياة هذا ووافقته لحقيقة ضرب المثل بالتجربة الشخصية ، لا ريب أنني لم أكن أسعد من في الدنيا في ذلك اليوم ، لكنني اعتقدت أنني سأكون سيئ الحظ إن لم أستطع النجاة . كيف لا أعرف مدى حبي للحياة فقفزت إلى سطح السفينة بفوران ضار ، أوخ هذه الدهشة اللذيذة ، لا لم يكن هلاكًا قط ، كل شخص ثمل ساكن ،

وكان البحر راكداً ونعساناً وكنا مطمئنين تحت سماء غير صافية وصباح جميل تجاه منظر السحر لمرفأ مقدس .

ظهر انحناء حل على أجهزتي العصبية المشدودة أثناء التصارع الحميم الحقيقي حينذاك ، وانهرت على الكنبة التى فوق سطح السفينة بتعب عضلي محسوس ، وكنت أسأل نفسي :

هنا ، لماذا نقف هنا ؟ كل شيء قد اتضح فنحن أمام جبل الطور ، أمام تبة بني إسرائيل ، وقد غيرت الأختان " غرنفال " خط الباخرة السياحي مقابل ثلاثين ليرة ، والآن كانا سيصعدان إلى هنا ، إن الاسترخاء بعد رجفة هلاك عظيم ، والوقوف أمام أول بيت مقدس للدين السماوي الأول ، أمام فناء منزل هداية للإنسان . وكلما لاصق انتهاء الغضب كانت أجزاء عقلي تحيي أمام نظري ذكرياتي المتعلقة بالجبل المبارك ، كلما كانت الألياف العصبية مقرونة بالارتخاء ، وعلى الرغم من أنه لا تبدو صحراء التيه ولا ينهمر المن الذي غذى قوم بني إسرائيل أربعين سنة في تلك الصحراء ، ولا تطير أيضًا طيور السلوى ، على العكس من ذلك فالسماء خالية ، ويظل الأفق راكداً تماماً .

لكنه يطوق الخيال عبر تقويم جميع العصور ، ويدرك بنو إسرائيل الذين ظلوا في وادي التيه خائفين من ظلم العمالقة بينما كان في نيتهم النزول إلى جهة أريحا ، ويتصور برجفة ابتهال وخضوع كمال الوجدان المشرق على شكل حزمة كبيرة براقة ولامعة أمــام عيني النبــوة بنداء لا ينسى " لن تراني " الذي وصل لأذن موسى في تلك الفترة ومرحلة الطاعة التي بلغت أربعين يومًا قضاها موسى الكليم عليه السلام في

أعلى الطور ، وبينما كان حضرة موسى عليه السلام يرى مظهر الشرف عند ذروة سيناء كان فى الأسفل البقرة الذهبية التى صنعها السامرى السيئ التفكير بشكل فراغ الحلى التى سرقها جبابرة بنى إسرائيل من مصر في ساحة التيه ، والورطة الشنيعة التى وقع فيها بنو إسرائيل بسبب عبادتها ، وفى النهاية يقدم بحمد فائق فيضان نبع عذب من الكرم الإلهى مثل سعادة قلبية لنور الحق .

تظل الروح قرينة الوجد والترقب وكأنها تنتظر محبة وهداية من الجبل العالى الأسود الذى يقف صامتًا أمامها ... طور سيناء ، آخ ، كم هو مكان مريح ومناسب لمن يكشف ويعبر أطراف الرقة المصرية ، أليس كل شيء يربط مصر بشبه الجزيرة هذه ؟ ألم يعبر من هنا أجداد المصريين الأوائل .

لا تستطيع قناة السويس أن تحل هذه الروابط ، ولا تستطيع أن تمحوها ، وكان من الممكن أن يكون العبور بدون رؤية طور سيناء بعد رؤية القاهرة والإسكندرية قد ترك فراغًا يشعر به جيداً فى كتاب سياحتى .

قلت من قلبى " يجب أن أشكر أختى غرنفال " وفى الواقع شكرت الأختين اللتين صعدتا إلى سطح السفينة ، وهما ترتديان كسوة نسائية جديدة بعد قليل جدا ، وعن طريق هذا الشكر علمت أثناء محادثة طويلة مهذرمة أن هاتين التوأمتين العالمتين قد اكتشفتا كتاباً مزيناً ومزخرفاً بالأحاديث الشريفة والحكم الجليلة التى لم يبحثها مؤرخو حضرة عيسى عليه السلام حتى الآن مطلقًا فى مكتبة طور سيناء قبل بضعة شهور.

وقد ترجمت إحـــدى الأختين هذه النـــادرة النفــيسة المكتوبة باللغة الآشورية إلى الإنجليزية وكانت محتويات حكم هذه المجلة المنيفة عميقة ونفيسة حقيقية ، ولهذا السـبب صارت تجـذب أنظار اهتمام فوق العادة فى إنجلترا ، وستذهب هاتان الأختان مرة ثانية إلى الطور بسبب حسن وهو البحث عن دفائن الحكمة . وكانتا ستفتشان المكتبة القديمة .

وقد حاولت الآنستان إثبات صواب ظنونهما بكل همة وصبر ضد علامات الشك التى أظهرتها بخصوص نسبة مجموعة الحكم التى ترجمتاها من اللغة الآشورية إلى جناب المسيح عليه السلام ، كانتا تمطران الأدلة التاريخية كالبرد ، إلا أنه فى الحقيقة كانت أحد هذه الدلائل تبدو لى سخيفة عن الأخرى ، ربما كان من جهلى ، فقلت من أجل جواب مفهوم كله :

جلب كشفكما المهم ذلك حادثة مماثلة لذاكرتى ، وسوف أقصها لكما إن سمحتما :

فى مكتبة " آينه روز " كتاب أحيط بكل الرعاية والاهتمام ، وهو يرجع إلى القرون القديمة ولم يستطع أى قسيس أن يقرأ محتويات هذا الكتاب مطلقًا بسبب أنه مكتوب باللغة القديمة ، ومع ذلك فقد آمنت كل هيئة الدير وأعلنت قدسية هذا الكتاب وعلوه تبعًا لأقوال منقولة عن الأسلاف بحفظ الكتاب باحترام تام ، وكان يرى الكتاب طبقة ممتازة فقط من زوار الدير .

ونظراً لرواية الأسلاف فإن فى هذا الكتاب المبجل وجدت أدلة واضحة تثبت بشكل غير قابل للرد والاعتراض حقيقة المسيحية ، ـ حاشا ثم حاشا ـ وكان سيصبح ترجمة هذا الكتاب بداية حياة المسيحية وسعادتها ، كان هذا هو الكتاب السماوى الحقيقى ، آه ، وإن كان معلومًا متنه مرة واحدة ، ولكن كلما لم تقر الإنسانية بالصلاح تمامًا فإن ذلك لم يكن يسيراً ، وبينما كان هذا الكتاب الخفى محاطًا وموقراً بتلك الاعتقادات وجد من بين زائرى الدير ذات يوم قسيس سورى كان معروفًا بالوقوف على اللغة القديمة ، فبدأ البحث والتفتيش فى مكتبة الدير ، وكان لا يمكن أن يصادف فيها أثرًا مجهولاً نادراً ، وفى أثناء تناول الطعام ذات يوم اشتكى إلى أحد زعماء الدير المهمين فقر المكتبة ، حينذاك رمق كبراء الكنيسة مع بعضهم البعض بابتسامة تهكمية ، كانت هذه الانظار تريد أن تقول :

ذلك الكتاب ، آه ، لو ، آه ، بدلاً من ذلك ، بعد الطعام بشروا المضيف الفاضل بأنه سينال هذا الشرف ، ففهم الضيف النحرير فى النظرة الأولى أنه أثر مقدس كتب باللغة الآشورية ، وانتشر هذا الوعد الفجائى جميع المناستير بسرعة بارقة السيف وابتسامة بشرى العيد ، تلك الليلة لم ينطفئ ضياء المصباح الذى فى حجرة الضيف ، لكنه فى صباح غد لم يكن من الممكن رؤية أى علامة مطلقًا عن فرح مأمول فى وجه المترجم المرهق ، فعلى العكس من ذلك كان السيد القسيس يهز رأسه بيأس تام ، أظهر فى النهاية عن هذا المعنى المضطرب .

ذلك الكتاب المحفوظ وتلك الدفينة الحقيقية هى نسخة من القرآن الكريم المترجم إلى اللغة الآشورية ، وظلت الأختان مبتسمتين ابتسامة رقيقة ، وهما صامتتان وقد مدتا أيديهما للوداع بينما همتا الخروج من حجرتيهما ، وقالت إحداهما :

ومع ذلك فنحن نذهب لتحرى حقائق الحكم المسيحية .

وأجبت فى قلبى أيضاً :

كما ذهب ديوجين للبحث عن الإنسان فى الفنار .

المؤلف فى سطور :

جناب شهاب الدين

- ولد عام ١٢٨٦هـ / ١٨٧٠م فى مدينة مناستير .

- التحق بكلية الطب حيث تخرج منها (١٣٠٣هـ - ١٨٨٩م) برتبة يوزباشى طبيب .

- سافر إلى باريس فى بعثة لدراسة الطب عام ١٨٩٠ ودرس الأدب الفرنسى وتعمق فيه .

- عمل فى أقسام وزارة الصحة المختلفة فى إستانبول .

- عمل فى عدد من المجلات الأدبية مثل « ثروت فنون » .

- عمل مدرسًا للترجمة الفرنسية فى جامعة إستانبول وواصل أبحاثه الأدبية حتى توفى فى إستانبول فى ١٣ فبراير ١٩٣٤ .

المترجمة فى سطور :

سامية محمد جلال

– خريجة جامعة القاهرة ، كلية الآداب ، قسم اللغات الشرقية ، فرع اللغات الإسلامية .

– مدرس اللغة التركية وآدابها فى كلية الآداب ، قسم اللغات الشرقية ، جامعة القاهرة .

– حاصلة على درجة الماجستير بتقدير امتياز ، فى موضوع " جناب شهاب الدين شاعراً بين التقليد والتجديد " .

– حاصلة على درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى ، فى موضوع : " مصر فى كتابات الرحالة الأتراك فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر " .

المراجع فى سطور :

الصفصافى أحمد المرسى القطورى

أستاذ الدراسات التركية الحديثة والمعاصرة فى الجامعات المصرية والعربية .

– له العديد من الكتب والأبحاث المنشورة فى الدراسات التركية ؛ والحضارة الإسلامية .

– شارك فى العديد من المؤتمرات المحلية والعالمية عن الدولة العثمانية ، والدراسات الشعبية التركية .

– حاصل على جائزة رابطة الأدب الإسلامى الأولى عن ترجماته من الأدب التركى الإسلامى المعاصر فى ميدان القصة .

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز

الإشراف الفنـــى: حســـن كامـــــل

"على طريق الحج" كتاب فى أدب الرحلات وهو من إنتاج جناب شهاب الدين الأديب الذى تاقت نفسه إلى زيارة موطن الوحى، فبُعث إلى هناك مفتشا بالإدارة الصحية فى جدة، وركب أمواج البحر من إستانبول إلى الاسكندرية، فجال ببصره وبصيرته بين السحاب والأمواج، ووضع فى رسائله الست عشرة خلاصة ما اعتلج فى فؤاده ووجدانه من خلجات قلبه وهو على سطح الماء وخلف الشبابيك والأبواب، وعرض علينا ما شاهده فى بيرة وأثينا قبل وصوله إلى الإسكندرية.

طاف بين جنبات الاسكندرية فعرض علينا إلى جانب مآثرها وتراثها طبقات المجتمع الذى يعيش فيها... رسم بريشة الكاتب ما وعته عين الفنان من فسيفساء الأهالى الذين يقطنونها فى النصف الثا
من القرن التاسع عشر، مركزا على الطوائف الأ
التى تعج بها مدينة الإسكندرية... سافر بالقط
القاهرة ومنها إلى مدن القنال، فعرض علينا ا
والغيطان والأبراج والأهرام والحدائق ومت
القاهرة وآثارها الجميلة.